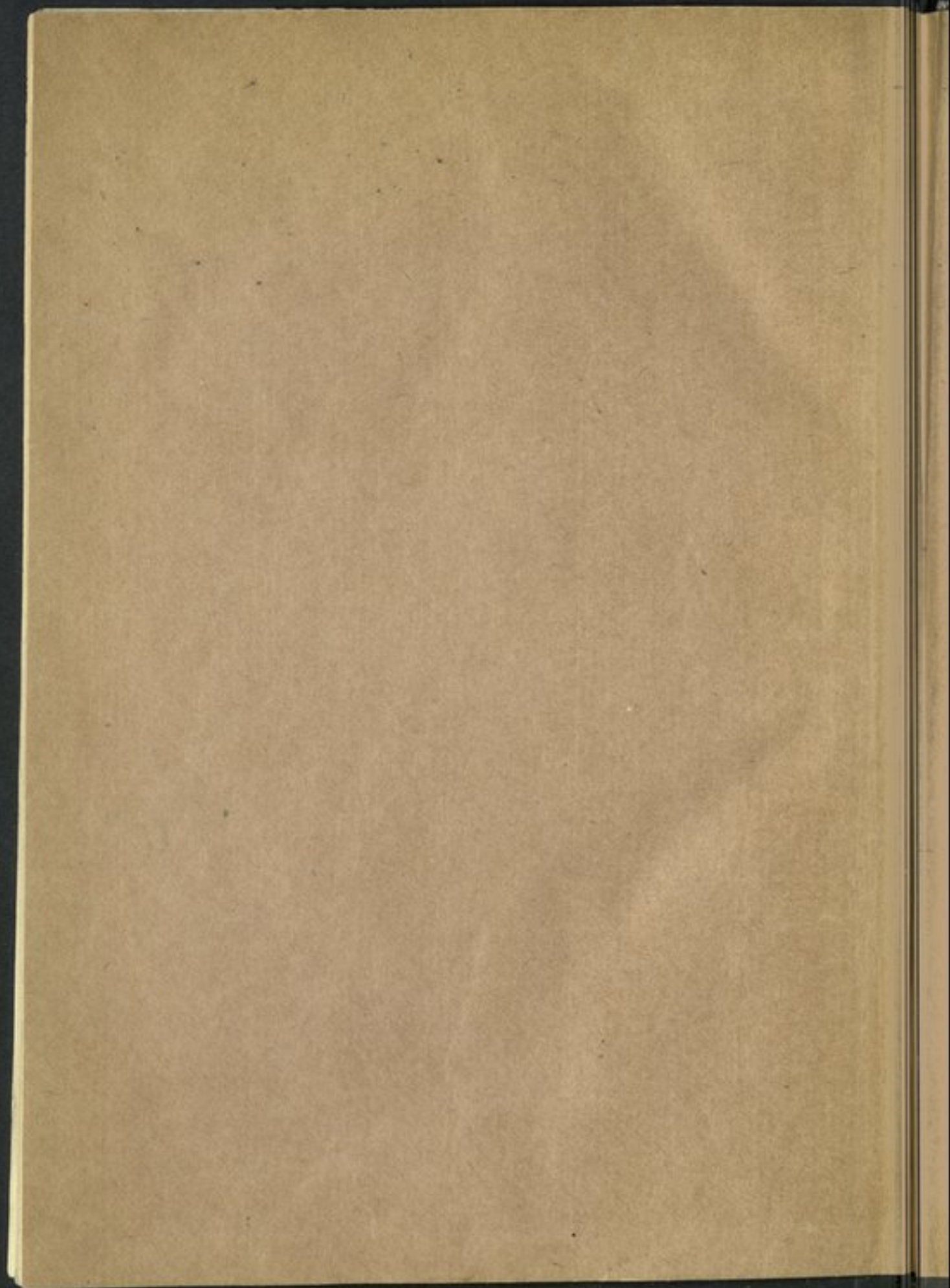
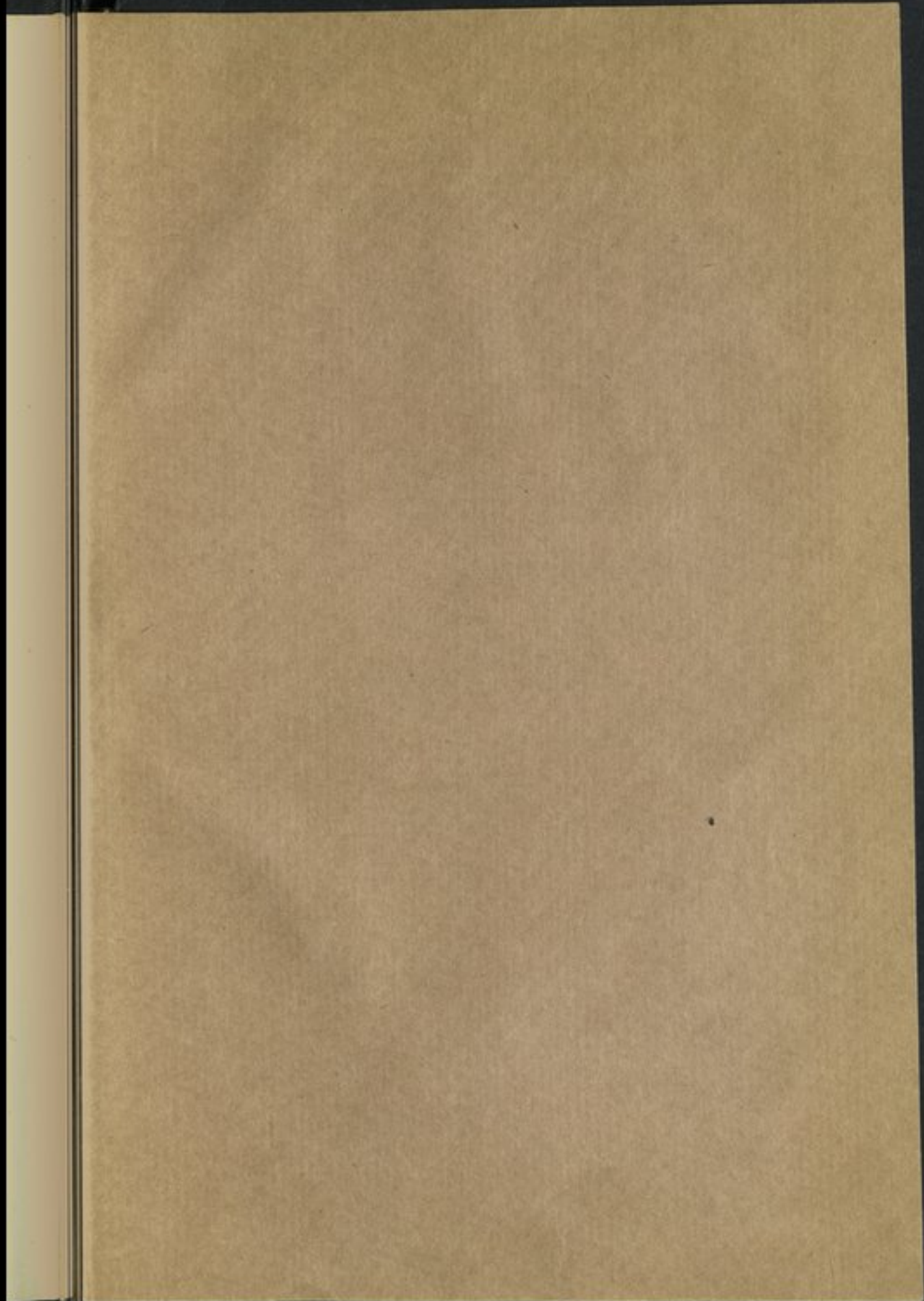
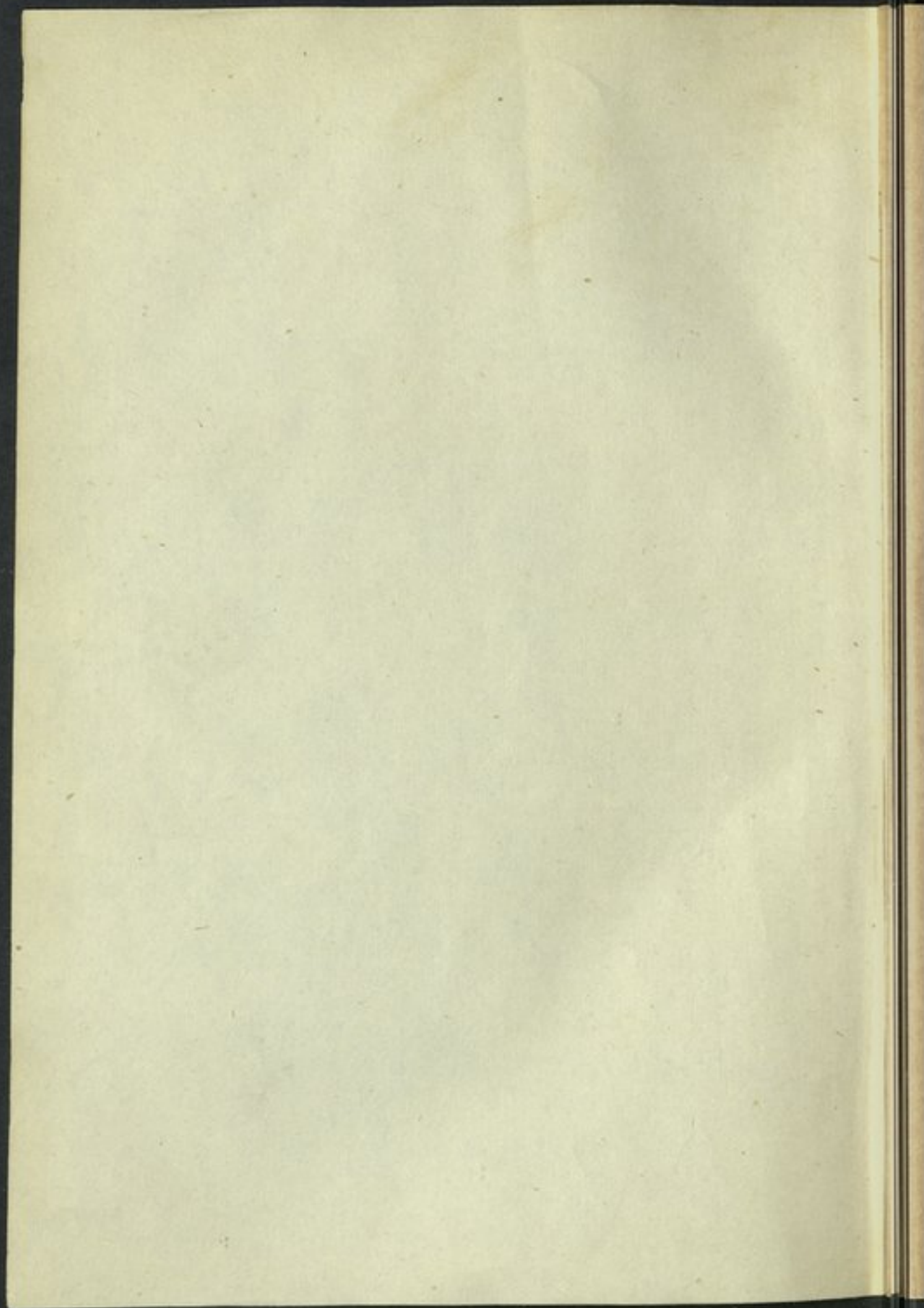


SAFETY LIB.
17-10-1979







Handwritten text on the left margin, possibly a page number or reference.

027
T19kA
V.3
C.1

الجمهورية اللبنانية

مِنُورَاتُ وَرَارَةِ التَّرْبِيَةِ الوَطَنِيَّةِ وَالفُنُونِ المَحْمِيَلَةِ

دار الكتب

خزائن الكتب العربية

في الخسافين

بقلم

الفيلسوف فيليب دي طيرازي

مؤسس دار الكتب اللبنانية

والعضو في عدة مجامع علمية شرقية وغربية

78245

المجلد الثالث

Cat. Jan. 52

شعوب الارض شرقاً وغرباً دون جدال . بل كل من اطلع على تلك الكنوز النادرة والمخطوطات الفاخرة في المعارض التي تقيها دار الكتب المصرية او متاحف الغرب حولاً بعد حول يشهد لحفدة عدنان بسلامة الذوق وبراعة الفن في ما خلتفه من الآثار الكتابية الجليلة الشأن والمنقطة القرين .

ليست جميع المخطوطات العربية في درجة واحدة من الاعتبار والنفاسة . بل يختلف اعتبارها اختلاف ما تحلت به من المزايا المرغوب فيها كثيرة كانت ام قليلة . وبالرغم من انتشار المطابع في الحافظين فان منزلة المخطوطات الثمينة لا تزال معززة لدى اهل المعرفة وذوي الخبرة والاختصاص . ولاجل ذلك نرى الحكومات الراقية والمعاهد العلمية ودور الكتب العامرة فضلاً عن الافراد يعتني كل منها عناية عظيمة باقتناء تلك الكنوز ويحرص عليها اشد الحرص .

٢ - اهم مزايا المخطوطات العربية

للمخطوطات العربية مزايا كثيرة يصعب احصاؤها بل يطول سردها في هذا البحث المختصر . لأن العرب تفوقوا على جميع الشعوب الراقية باساليب الكتابة فكان لهم القدح المعلى في اتقان المخطوطات وتنسيقها وتجويدها وترصيعها . ولأجل ذلك لم يدعوا فناً من فنون الظرافة والزخرفة والابداع الا استعماله في هذا السبيل . واهم ما يراعى عندهم من المزايا في المخطوطات ينحصر في ما يلي :

اولاً : ان يكون المخطوط قديم العهد ومكتوباً باحد الاقلام القديمة كالخط الكوفي مثلاً والخط البغدادي والخط الافريقي او القيرواني والخط الاندلسي (١) والخط الريجاني والخط الباني (٢) والخط المزرکش وما شاكلها من الخطوط . واغلى المخطوطات وافضلها واندرها ما كان منها متصلاً بالقرن الثاني عشر للميلاد او السادس للهجرة او قبلها .

(١) رسالة الخط تأليف الشيخ احمد رضا العاملي : صفحة ٢٠ وكتاب «زبدة الصحائف في اصول المعارف» : صفحة ١٢٥
(٢) كتاب «ماضي النجف» : صفحة ١٠٠

ثانياً : ان يكون المخطوط مجرداً واضح الكتابة كامل الصفات لا يعتوره خلل او خرم او حك او تشويه او نقص من اوله الى آخره .

ثالثاً : ان يكون المخطوط مشهوداً له بالضبط والدقة من مؤلفه نفسه او من احد انسابه الادنين او من احد العلماء المحققين .

رابعاً : ان يكون اسم المؤلف مدوناً في المخطوط مع اسم الناسخ واسم الواقف واسم المطالع ولا سيما اذا كان هذا المطالع من مشاهير العلماء والعظماء . وتزيد قيمته اذا دون فيه الناسخ ما يأتي : اولاً - تاريخ اليوم والشهر والسنة للفراغ من كتابة المخطوط . ثانياً - مكان كتابته . ثالثاً - اسم الخليفة او السلطان او البطريرك او الرئيس الذي نجح في عهده تأليف الكتاب او نسخه .

خامساً : ان يكون المخطوط مدبجاً بجواش وهوامش وتعاليق اثبتتها المؤلف بخط يده . او دوتها كبار العلماء او الملوك او طالعها اعلام مشاهير او قرئت عليهم واجازوها .

سادساً : ان يكون المخطوط حسن التبويب والترتيب بديع الحظ جيد الحبر مكتوباً على رق او بردي او حرير او كتان او قرطاس ثخين او ورق سمنجوني او اوراق شجرية او ما شابهها .

سابعاً : ان تكون مدونة فيه شروح واطافات وتصحيحات وفوائد لا توجد في سواه من الكتب المخطوطة او المطبوعة .

ثامناً : ان يكون مكتوباً بخط احد مشاهير النساخ كابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصي وبعض من سيأتي ذكرهم في غير هذا الفصل .

تاسعاً : ان يكون بحث المخطوط مبتكراً لم يتصد له مؤلف قبل مؤلفه . او ان يكون موضوعه نادراً وذا فائدة كبرى لعلماء ذلك البحث .

عاشراً : ان يكون المخطوط متقن التجليد ومحفوظاً في قمطر بديع الشكل
قد صنّع خصيصاً له . ويُستحسن ان يكون القمطر مرصعاً وطرأزه شرقياً .

حادي عشر : ان يكون المخطوط مزيناً بالرسوم الرائعة او موشى بالذهب
والفضة او منقحاً بالالوان الزاهية او منفرداً بمزينة لا اثر لها في سواه .

تلك مزايا يستحب ان تتجلى بها المخطوطات تعزيراً لقيمتها الاثرية وتمييزاً لها عن
المطبوعات . وما هدفنا في اثبات المزايا المذكورة الا لتتخذ دستوراً يعتمد عليه
عشاق المخطوطات ويعمل به خزنة المكاتب . فمتى اجتمعت هذه الأوصاف كلها او
بعضها في كتاب مخطوط وجب احرازه والتباهي به والحرص عليه من التلف
والفقدان وتزيين خزائن الدور والقصور به وبأمثاله . ففي مخطوط كهذا يصدق
بلا ريب قول الشاعر :

هذا كتاب لو يباع بوزنه ذهباً لسكان البائع المغبونا
أو ما من الحسبان أنك آخذ ذهباً وتترك جوهرأ مكنونا

الفصل الثاني

الوراق والوراقون

١ - اختلاف اساليب الوراقة عند الامم القديمة

الوراقة هي حرفة الوراق او صناعة الورق . والورق كما قال بعضهم لا أثر له في الكلام العربي القديم . لكنه اسم لجلود رفاق يكتب فيها . ولفظه مستعار من ورق الشجر (١) . ولم يعرف العرب الوراقة الا منذ منتصف القرن الثامن للميلاد كما سترى . اما الامم القديمة التي سبقت العرب فكانت متفاوتة الاساليب في الوراقة يختلف بعضها في ذلك عن البعض الآخر .

من المقرر ان الفونيقيين سبقوا جميع الامم في استنباط حروف الكتابة فكتبوها اولاً على جذوع البردي الذي استحضروه من مصر . لانهم لا قوا في ذلك اسهل الذرائع لضبط دفاترهم وفضالك حساباتهم وسفاتج بيعهم وشراهم وسندات دفعهم وقبضهم (٢) . واستعمل الفونيقيون كذلك اصناف الكتات وضروب الرقوق فدوتوا عليها كتاباتهم .

وغير خاف ان اليونان انما تعلموا الكتابة من الفونيقيين . واتخذوا لها ورقاً نقله اليهم تجار فونيقيون من بيبيلوس (جبيل) . ولذا اطلقوا على الورق اسم « بيبيلوس » وسموا ما كتبوه على الورق « بيبيليا » . ومن لفظ « بيبيليا » اتخذ الفرنج

(١) معجم اقرب الموارد : لسعيد الشرتوني : صفحة ١٤٤٥

(٢) المشرق : مجلد ٩ سنة ١٩٠٦ صفحة ٨٥٢

عموماً لفظ «ببيل Bible» عنواناً للكتاب المقدس كما اتخذوا لفظ «صيني»
للصحون الخزفية لأنها وردت في اول امرها من الصين (١) .

واستعمل الآراميون قلم الخيزر فدونوا به كتاباتهم على ملف البردي . ودونها
الآشوريون على الآجر بقلم قصب (٢)

اما اليهود فقد تلقنوا الكتابة عن الفونيقيين كما اتخذوا حروفهم عن الآراميين .
فكتبوا ما كتبوا على ألواح خشب وعلى حجر ولين وعلى صفائح معدنية كالرصاص
والحديد والبرونز والنجاس . واستعملوا ايضاً الجلود والاقمشة والرفوق في
كتاباتهم (٣) ولعلتهم اتخذوا البردي للكتابة كساثر الشعوب القديمة . لانهم عرفوه
في مصر واستعملوه في بعض حاجاتهم . يثبت ذلك ما ورد في سفر الخروج عن
ام موسى الكليم فانها اخذت قفة من البردي وطلتها بالتمر والزفت وجعلت فيها
طفلاً موسى (٤) . وذكر البردي ايوب الصديق هكذا : «هل تخضر الخلفاء . . .
او ينبت البردي حيث ليس مياه» (٥) . وكتب اشعيا النبي عن البردي قوله : «الذي
يرسل الرسل في البحر وفي زوارق من بردي على وجه الماء» (٦) .

وكان اهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من حشيش او كلاً . وعندهم اخذ
الناس بتوالي الازمنة يتفننون في تلك الصناعة حتى عم استعمالها شرقاً وغرباً .
واتخذ الهنود خرق الحرير الابيض لكتاباتهم .

اما الفرس فكتبوا على جلود مدبوغة كجلود الجواميس والبقر والغنم وما

-
- (١) المصور القديمة : تاليف الدكتور جايمس : صفحة ٢٠٦ وتاريخ الدول الآرامية السريانية :
للخوري اسحق ارملة : مجلد ١ قسم ١ فصل ٥
(٢) المصور القديمة : تاليف الدكتور جايمس : صفحة ١٠٩
(٣) قاموس الكتاب المقدس : للدكتور جورج بوست : مجلد ٢ صفحة ٢٣٩
(٤) سفر الخروج : فصل ٢ عدد ٣
(٥) سفر ايوب : فصل ٨ عدد ١١
(٦) نبوة اشعيا : فصل ١٨ عدد ٢

شاكلها من جلود الوحش والطيور . وكتبوا ايضاً في اللخاف وهي حجار بيض رفاق . وكتبوا على المعادن كالنحاس والحديد وعلى عُسْب النخل وعلى عظم اكتاف الابل والغنم . هكذا اخذ العرب يكتبون اساطيرهم مقلدين الشعوب المذكورة لقريهم منها (١) .

٢ - صناعة الوراقة عند العرب ونقلهم اياها الى اوروبا

استعمل العرب نسيج الكتان في كتاباتهم منذ عهد بني امية (٦٦٢ - ٧٤٦ م) بدمشق الشام عاصمتهم واطلقوا عليه اسم «خراساني» (٢) . اما صناعة الورق فقد اجمع المؤرخون على انها وصلت الى العرب سنة ٧٥١ م على ايدي اسرى صينيين سيقوا الى سمرقند . فتعلمها العرب منهم وانشأوا لها مصنعاً في المدينة المذكورة . وفي السنة ٧٩٤ م اقاموا معملًا للورق في بغداد عاصمة بني العباس . ولم يلبثوا ان اسسوا مصانع اخرى للورق في دمشق وحماة وطرابلس ومنبج وطبرية والقاهرة ودمياط ونهامة وشمال افريقيا ومدينة شاطبة وبلنسية وطلبيطة في الاندلس .

ويعود الفضل الى العرب ايام عزم وحضارتهم في ادخال صناعة الورق الى جزيرة صقلية بايطاليا والى فرنسا ومنها الى سائر انحاء اوروبا (٣) . وقيل ان هذه الصناعة اتصلت بالفرننج عن عرب الاندلس فتقننوا فيها واتخذوا لعملها الكتان بدلاً من القطن (٤) .

اما في مصر فكان الورق المنصوري يصنع في الفسطاط لا في القاهرة (٥) .

(١) صح الاعشى : لقلقشندي : مجلد ٢ صفحة ٧٥ :

(٢) خطط الشام : محمد كرد علي : جزء ٤ صفحة ٢٤٢ (١)

(٣) معجم لاروس الفرنسي

(٤) مختصر القرون المتوسطة : تاليف القس لويس رحمانى : باب ٤ فصل ٧ صفحة ٣٩٦

(٥) نفع الطيب : للمقري : جزء ١ صفحة ٩٢ (١)

ثم انشىء في القاهرة نفسها خان اسمه «خان الوراق» كما روى المقرئ في
خطه (١). وحدث احد علماء حلب ان الورق كان يصنع في حي من احيائها لم
يزل معروفاً حتى اليوم باسم «حي الوراق» حيث كانت معامل الورق في
سالف الزمان (٢).

٣ - تنوع الوراق وادوات الكتابة

ذهب بعضهم الى ان الوراق لم تُحصر في صناعة الورق وحدها بل تناولت
الاشتغال بالورق وبكل ما يتعلق به من كتابة ونسخ وضبط وصقل وتجليد وبيع
كتب الخ. وتناول ايضاً جميع ما يرافق ذلك من ادوات الكتابة على اختلاف
انواعها. واليك اسماء تلك الادوات كما فصلها القلقشندي في «صبح الاعشى» وهي:
القلم والدواة والحبر والليقة والسكين والمِقطّ والمِسنّ والمِلقمة والملواق والمرملة
او المتربة والرمل والمنشأة والمنفذ والملزّمة والمفرّشة والمسحة والمسقاة والمسطرة
والمصقّلة.

قال محمد بن شعيب بن سابور: «مثل الكاتب بغير دواة كمثل من يسير الى
المهيجاء بغير سلاح. ومن اهم ادوات الكتابة القرطاس ويقال له «قرطس» ايضاً
على ما ورد في الشعر الجاهلي. وجاء ذكر القرطاس في القرآن بقوله: «ولو نزلنا
عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بايديهم» (٣). وقال ايضاً: «قل من انزل الكتاب
الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قرطيس» (٤).

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: للمقرئ: جزء ٣ صفحة ٣٧

(٢) خطط الشام: جزء ٤ صفحة ٢٤٤

(٣) سورة الانعام: الآية ٦

(٤) سورة الانعام: الآية ٩٢

وأنشد الخش العقيلي النصراني يصف رسوم دارٍ شَبَّهاً بـمخطّ الزبور «مزامير
داوده على القرطاس قال :

كأنّ بجيـث استودع الدارَ أهلها مَحَطَّ زبورٍ من دواةٍ وقرطسٍ

ومن أطف ما قرأناه عن الدواة قول احمد ابن بنت الاعز (١) :

تعطلت فابيضت دواني لحزنها ومد قلّ مالي قلّ منها مدادها
وللناس مسودّ اللباس حدادهم ولكن مبيضّ الدواة حدادها

ومن هذا القبيل ايضاً ما رواه ابو علي البصير الاعمى عن المجبرة قال (٢) :

اذا ما غدت طلابة العلم ما لها من العلم الا ما يخلد في الكتب
غدوت بتشميرٍ وجدّ عليهم ومجبرتي سمعي ودفترها قلبي

واجاد الحسن بن وهب في ما انشده عن المداد بقوله :

وما شيء باحسن من ثيابٍ على حافاتها سمة المدادِ

ونظم آخر في المداد قوله :

لا تجزعن من المداد ولطخه ان المداد خلوق (٣) ثوب الكاتب

واحسن من كليها بيتان في المداد ظريفان انشدهما زيد بن الحسن الكندي

البغدادي (٥٢٠ - ٥٩٧ هـ) وزيد فروخ شاه وهما (٤) :

لامني في اختصار كسبي حبيب فرقت بينه الليالي وبينني

ليتني قد اطلت لكن عذري فيه ان المداد انسان عيني

(١) قواف الوقيات : لابن شاکر : جزء ١ صفحة ٤٥

(٢) نكات الهيان : صفحة ٧٧

(٣) الخلق كرسول : ضرب من الطيب مائع فيه صفة لان اعظم اجزائه من الزعفران

(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١١ صفحة ١٧٥

ومما نظم في مسحة القلم بيتان لعبد الرحيم اليبسافي المعروف بالقاضي الفاضل
وكان وزيراً للملك الأفضل قال (١):

مسحة نهارها بين ليل الظلم
كانها من طرفها مندليل لف القلم

أما القلم فأشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة إذ هو المباشر للكتابة دون
غيره . لأن غيره من آلات الكتابة يعدّ بمثابة الاعوان والخدم له . وحسب القلم
فخرآ ان القرآن اورد ذكره غير مرة كقوله : « ن والقلم وما يسطرون (٢) » .
وقوله : « اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم (٣) » .

وقه ابو الفتح البستي حيث يقول :

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعدوه بما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعةً مدى الدهر ان الله أقسم بالقلم

ورحم الله امية بن عبد العزيز بن ابي الصلت وهو القائل :

وما مقلّم اظفاري سوى قلبي وما كئائب اعدائي سوى كتي
ومن ابدع ما نظم في الكتب والقلم ايضاً قول احمد بن رضي الملقبي :
ليس المدامة بما استربح لها ولا منادمة الاوتار والتنعم
وانما لذتي كتب اطالعها وخادمي ابدأ في خلوتي قلبي

واثبت ياقوت الرومي في مقدمة كتابه «معجم الادباء» يصف ما سطره فيه من
حكم وامثال واخبار واشعار ونثر وآثار وغيرها فتطرق لذكر القرطاس والقلم
بقوله (٤) :

(١) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير : لابن الساعي الخزائن : جزء ٩٠ صفحة ٢٨
(٢) القرآن : سورة القلم : الآية الاولى
(٣) القرآن : سورة الملوك : الآية ٣ و ٤
(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٠ صفحة ٨

من كل معنى يكاد الموت يفهمه حسناً وبعده القرطاس والقلم

ووصف ابن سناء الملك قلمه 'بهذين البيتين قال (١) :

ولي قلم في أنجلي ان هزّزته فما ضربي الا اهزّز المهتدا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره فان صليل المشرقي له صدى

وانشد بعضهم ملغزاً في قلم قال (٢) :

وساكن رمس طعمه عند رأسه اذا ذاق من ذاك الطعام تكلمها
يقوم ويمشي صامتاً متكلماً ويرجع من في القبر منه مقوماً
وليس بجي يستحق كرامة وليس يبيت يستحق الترحماً

وانشد ابو هلال العسكري صاحب الصناعتين بشكو حاله وبلعن القرطاس
والخبر والقلم بهذه الابيات (٣) :

اذا كان مالي مال من يلقط العجم وحالي فيكم حال من حاك او حجم
فان انتفاعي بالاصالة والحجى وما ربحت كفي على العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي فلا بلعن القرطاس والخبر والقلم

٤ - مشاهير الوراقين

تسهلاً للاحاطة بجميع اطراف الموضوع الذي نبهته رأينا ان نثبت في هذا
الفصل اسما بعض مشاهير اهل الوراقة وما تفرع منها . فقد برز في عهد حضارة
العرب رجال برعوا بحرفة الوراقة التي راجت اسواقها في العراق وسوريا ومصر

(١) جريدة منبر الشرق : لمي الغاباتي في القاهرة : مجلد ٢٠ سنة ١٩٤١ عدد ١٤٨
صفحة ٧

(٢) عجالي الادب : للاب لويس شيخو : جز ٢٠ صفحة ١٤١

(٣) بغية الوعاة : لجلال الدين السيوطي : صفحة ٢٢١

والغرب وبلاد الاندلس . وارتقت الوراقة قديماً بعناية العرب حتى صارت
منتوجاتها تباع في اقطار ما بين النهرين ويران والمهند وغيرها .

ومن اقدم الورّاقين واشهرهم نذكر : سليمان الورّاق ومحمد بن عمر الورّاق
وكلاهما من علماء القرن الثاني للهجرة (١) . وفي اوائل القرن الثالث عاش سلمة
الوراق وابو نصر الوراق (٢) . ومحمد بن يوسف الوراق القيرواني ولد سنة ٢٩٢
لهجرة وألف اخبار سلجاسة ونكور والبصرة تأليف حسناً كما قال ابن حزم (٣)

وجاء بعد هؤلاء محمد بن عبدالله الكرمانى المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة . ومسند
بغداد ابو جعفر محمد البخاري وابراهيم بن صالح الوراق تلميذ الفارابي وقد توفيا
كلاهما سنة ٣٣٩ للهجرة . وعاش بعدهم ابن النديم الوراق البغدادي صاحب
الفهرست المتوفى سنة ٣٧٥ للهجرة . وابو بكر بن اسماعيل الوراق (٤) . وعلي
بن عيسى الوراق (٥) .

ومن الورّاقين في القرن الرابع ايضاً مطر الوراق واحمد بن ملتوك وابو الحسن
علي بن لؤلؤ الثقفي وثلاثتهم من مشاهير الورّاقين في القرن الرابع للهجرة .
وابو علي المصيصي الوراق (٦) والحسن بن احمد الوراق من صلحاء دمشق (٧) .
ثم ابو القاسم الاخفش الوراق (٨٤٦٠ هـ) وهو ثالث الاخفشين من النحاة .
وابو اسحق ابراهيم بن سعيد الوراق المصري (٨) ونحوي بغداد ابو الحسن محمد بن

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ١ صفحة ٢٤٩

(٢) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ١٤٩

(٣) انساب الناس في اخبار مكناس : جزء ١ صفحة ١٠

(٤) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ٤٤٥

(٥) المخطوطات العربية لكتبة النعراية : صفحة ٢١٤

(٦) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٤ صفحة ١٥٠

(٧) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٤ صفحة ١٥٢

(٨) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٣٦٠

هبة الله ابن الوراق الضري (١) من حفاظ القرن الخامس للهجرة . ومن اشهر الوراقين ايضاً : ابو بكر الساوي الوراق (٢) وابن عبد ربه الوراق (٣) .

وروى ياقوت الرومي في معجم الادباء اخباراً شتى عن اعلان الوراق الشعبي قال : كان اعلان قبيح الصورة ومرّ يوماً بمخنت يغزل على حائط فسأله المخنت : من ابن انت ؟ قال اعلان : من البصرة . قال المخنت : لا اله الا الله ! تغير كل شيء حتى هذا ؟ كانت القروء تجلب من مكة واليمن والان تجيء من العراق ! (٤) .

ومن مشاهير الوراقين ابو محمد البكري الشنتويني الوراق المتوفى سنة ٥١٧ هـ . كان شاعراً مقلماً ملبح الكتابة قليل الحظ نسخ الكثير بالاجرة . ومن شعره هذان البيتان نظمها في حرفته قال :

اما الوراقه في انكد حرفه اوراقها وثارها الحرمان
شبهت صاحبها بصاحب ابرة نكسو العراة وجسمها عريان

ومن مشاهير الوراقين ايضاً ابو محمد سفيان التجيبي كان من اهل المعرفة التامة بعلوم اللسان على تفاريقها حسن الوراقه ذا حظ صالح من الكتابة توفي سنة ٥٤٦ للهجرة (٥)

وقس على من سبق ابا الحسن اللخمي الفرناطي (٤٩٧-٥٥٦ هـ) ورد عنه في تاريخ غرناطة انه : « كان وزيراً فقيهاً نبيلاً جواداً اديباً عارفاً بالعروض والنحو واللغة والطيب سيد الشعر حسن الخط والوراقه » . ومثله عبد الرحمن بن المنذر قاضي الاسكندرية ويعرف بالانجر . كان واسع الاطلاع في علم الوراقه ومات

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ٣٣٧

(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر : مجلد ٢ صفحة ٧٢

(٣) معجم البلدان : جزء ٤ صفحة ٣٦٠

(٤) معجم الادباء : جزء ١٢ صفحة ١٩٢

(٥) بنية الوعاة : صفحة ٥٨

سنة ٥٦٨ للهجرة (١) . ثم جعفر اللخمي الاسكندراني الوراق (٥٧٥-٦١٣ هـ) .
ومحمد ابو نصر البغدادي الوراق (٥٤٣-٦٢٠ هـ) . ومحمد ابو العباس الاحول
ذكره الزبيدي في طبقة المبرد وتعلب وقال عنه : « كان يورق بالاجرة وكان قليل
الخط من الناس وجمع دواوين مائة وعشرين شاعراً » .

ونذكر بعد هؤلاء جمال الدين الانصاري الكتبي الوراق المعروف بالطواط
(٦٣٢-٧١٨ هـ) (٢) . ومحمد بن حمدون الغافقي القرطبي الوراق . والشهاب احمد
الوراق (٣) . وغانم الوراق تلميذ ابو نواس . وبقاوت الرومي الذي تعاطى نسخ
الكتب وتاجر بها . و ابا بكر التميمي الوراق . والله در الشاعر سراج الدين الوراق
الذي اجاد في وصف صناعته يهذين البيتين قال :

يا خجلتي وصحائفي قد سُودت وصحائف الابرار في الاشراق
وموتبخ لي في القيامة قائل أكذا تكون صحائف الوراق

ومن لطيف ما نظمه لسان الدين الخطيب عن براعة الوراق قوله (٤) :

يمضي الزمان وكل فان ذاهب الا جميل الذكر فهو الباقي
لم يبق من ابوان كسرى بعد ذا ك الحفل الا الذكر في الاوراق
هل كان للسفاح والمنصور وال مهدي من ذكر على الاطلاق
او للرشيد وللامين وحنوه لولا شباة براعة الوراق

٥ - القاب خاصة ببعض الوراقين

أطلق اسم الوراق ايضاً على مشاهير تجار الكتب والمشتغلين بها فلقبوا بالكتبيين.

(١) بنية الوعاة : صفحة ٢٩٧

(٢) معجم المطبوعات العربية : ١٩٢٠

(٣) سلك الدرر في اعيان القرن الحادي عشر للرازي : جزء ٤ : صفحة ٩٩

(٤) نفع الطيب : جزء ٤ : صفحة ٢٤

ومن عرفوا بهذه الحرفة ابن شاعر الكندي مؤلف كتاب «فوات الوفيات»
فرزق منها مالاً وافراً. ومنهم الشمس علي بن الكندي الحازن . وابن الكندي
الطبيب . وابن صورة الكندي بالقاهرة . وصلاح الدين الكندي صاحب التاريخ (١)
والاسكندراني الكندي (٢) . واطلق لقب «فخر الكتاب» على ابي علي الحسن
وكانت تباع كتبه باغلي الاثمان (٣)

وكان «ظفر البغدادي» من رؤساء الوراقين المعروفين بالصبط وحسن الخط
كعباس بن عمر الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتها . واستخدمه الحكم المستنصر بالله
في الوراقا لشدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها . وسكن ظفر في قرطبة
واليه اشار حبان الاندلسي في كتاب «المقتبس» (٤).

واطلق على بعض الوراقين لقب «قراطيسي» نسبة الى القراطيس وهو جمع
قراطس اي الصحيفة التي يكتب فيها . ومن اشتهر بهذا اللقب يوسف بن يزيد
القراطيسي (٥) احد علماء مصر . وفي دمشق حتى يومنا هذا اسرة قديمة كنيته
«القراطيسي» لم يزل بعض افرادها يتعاطون تجارة الورق .

ونذكر من هذا القبيل لقب «الكراريسي» نسبة الى الكراريس جمع كراس (٦)
واطلق على بعضهم لقب «مصحفي» نسبة الى المصحف . وهم الذين اشتهروا بكتابة
المصاحف دون سواها . نذكر منهم الحاجب جعفر المصحفي وزير المستنصر بالله
الحكم الثاني سلطان قرطبة (٧) . وكان ذا ادب بارع ونظم رائع .

-
- (١) خطط الشام : جزء ١٠ صفحة ١٦ وخزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ٣
 - (٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ : صفحة ٢٣٦
 - (٣) وفيات الاعيان : جزء ١ : صفحة ١٨١
 - (٤) نفع الطيب : جزء ٢ : صفحة ١٠٣
 - (٥) نفع الطيب : جزء ١ : صفحة ٥٨٢
 - (٦) مجلة المشرق : مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ : صفحة ٣٧١
 - (٧) نفع الطيب : جزء ١ : صفحة ٢٧٧

وأطلق لقب «كاغدي» على بائع الكاغد اي القرطاس . وهو لفظ فارسي
 معرب (١) . ومن عرف بهذا اللقب قديماً الحسين بن علي بن ابراهيم الجعفي
 (٣٠٨-٣٩٩ هـ) الكاغدي (٢) . وعرف بعده بهذا اللقب ابو الفضائل عبد الرحيم
 الكاغدي . ومن القاب بعض الوراقين لقب «ناسخ» لمن امتاز بالنسخ كأبي
 عبد الله الناسخ الذي خصه صاحب «تاج العروس» بهذا اللقب . وقس عليه
 لقب «نساخ» لمن اشتهر بكثرة النسخ كعبد السلام النساخ (٣) . واطلقوا لقب
 «خير النساخ» على من اجاد النساخة واحكمها وبرع فيها . وقد كني بهذا
 اللقب ابو الحسن محمد بن اسمعيل (٤) .

وتشمل الوراقاة ايضاً جميع المشتغلين بادوات الكتابة كما سلف الكلام .
 هكذا أطلق لقب «حبار» على صانع الحبر الذي يكتب به وعلى بائعه والمتعاملين
 به . ومن اشتهر الحبارين الذين ورد ذكرهم في التاريخ حسين المصري ابو علي
 بدر الدين الذي صار يجلس بعد ذلك في زاوية بظاهر القاهرة ويعظ الناس (٥) .
 ومن يصح ان يطلق عليه لقب «حبار» ابو محمد البتجبي المعروف بابن الحجاج . فانه
 اقتنى كتباً كثيرة من جميع العاوم وزنها سبعة قناطير كلها بخطه وربما كان يصنع له
 مطرة من الحبر لاجل كثرة كتاباته !! (٦)

٦ - بعض مؤلفات في الوراقاة والكتابة

لا تخلو المكتبات من تأليف تبحث في الوراقاة والكتابة وآدابها ككتاب

-
- (١) معجم «اقرب الموارد» لسيد الشرنوبى : صفحة ١٠٩٠
 - (٢) الاعلام : لحيدر الدين الزركلى : جزء ١ صفحة ٢٥٤
 - (٣) اعقاب اعلام الناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٥ صفحة ٤٨١
 - (٤) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ٤٨
 - (٥) تاريخ ابن الفرات : نشره الدكتور قسطنطين زريق : مجلد ٩ جزء ١ صفحة ١٧٣
 - (٦) معالم الايمان في معرفة اهل القبروان : جزء ٣ صفحة ٧٠-٧٢

«ادب الكتاب» لابن قتيبة (١) المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة . وكتاب «الرأي الصائب في ما لا بد منه للكتاب» تأليف عماد الدين الكتاني (٢) . وكتاب «تحفة اولى الالباب» في صناعة الحُط لابن الصانع . وفيه صور الحروف وموازينها . وكتاب «لمحة المختطف في صناعة الحُط الصلغ» لابن يس . وكتاب «شرح ابن وحيد على ارجوزة ابن البواب» في الحُط . وكتاب «عمدة الكتاب» في الحُط والمداد والاقلام . وكتاب «النجوم الشارقات في عمل اللبقات» لابن ابي الخير الحسيني . ورسالة في صناعة الاحبار . وهذان الاخيران هما من ملحقات كتب الحُط (٣) . ومنها كتاب «الحراج وصناعة الكتابة» لقدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة . وكان قدامة نصرانياً فأسلم (٤) . ومنها رسالة في الكتابة والحُط انشأها ابو العباس احمد بن محمد ثوابة توفي سنة ٢٧٧ للهجرة . وكتاب «تنويق النطاقة في علم الوراق» تأليف الشيخ عبد الرحمن بن احمد بن مسك السخاوي المتوفى نحو السنة ١٠٢٥ للهجرة (١٦١٦ م) . وذكر ابن النديم في فهرسته ان ابا دلف كان ممن تكلموا في فضل الحُط .

اخيراً لا يسعنا السكوت عن «المتروجم» وهو يُطلق على كتابة سرية اصطلاح عليها العرب ويقال لها الآن «الشفرة» عند الفرنج . وفي الخزانة التيمورية نسخة من «قصيدة ابن الدريهم في المتروجم» نشر عنها تيمور باشا مقالة ممتعة (٥) . وفي الخزانة الزكية بالقاهرة مجموعة رسائل في «المتروجم» تعد من اثن الكنوز (٦)

٧ - اسواق الوراق والورّاقين

من اقدم اسواق الورّاقين الوارد ذكرها في التاريخ «سوق البصرة» وقد

(١) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ صفحة ٥٤

(٢) مخطوط في الخزانة البارودية ببيروت

(٣) نواذر المخطوطات بقلم احمد تيمور باشا (الجلد : مجلد ٢٨ : صفحة ٣٢٧)

(٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة : صفحة ١٤٩٤-١٤٩٥

(٥) الجلال : مجلد ٢٤ : صفحة ٣٦٤ (٦) الجلال : مجلد ٢٨ : صفحة ٣٢٨

اشتهر امره منذ القرن الثاني للهجرة . ومن اكثر التردد اليه محمد بن القاسم
ابو العيناء في ايام الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ م و ٨٤٢ - ٨٤٧ م)
بن المعتصم (١) .

وروى شهاب الحفاجي في كتابه «ريحانة الالباء» (٢) ترجمة ابراهيم بن المسلط
الذي عدّ من عيون ادباء عصره . وذكر انه كان شيخ سوق الوراق في مدينة
القاهرة . ولابن مسلط شعر لطيف . من ذلك قوله :

يا عايباً لسواد قهوتنا التي فيها شفاءُ الناس من أمراضها
أفلا تراها وهي في فنجانها تحكي سواد العين وسط بياضها

واقى ابن بطوطة في كتاب رحلته على وصف سوق الوراقين في دمشق .
وارادهم باعة الكاغد والمداد والاقلام وما يتبعها . وفي السنة (٥٧٤٠ - ١٣٣٩ م)
احترق سوق اللبّادين وسوق الوراقين الواقعان شرقي الجامع الاموي (٣) .

وليوسف بن عبد الهادي المعروف بابن المبرّد مخطوطٌ عنوانه «نزهة الرفاق
عن شرح حال الاسواق» يقع في خمس عشرة صفحة . وقد سرد فيه مؤلفه اسماء
الاسواق التي كانت على عهده بدمشق في القرن التاسع للهجرة اي الخامس عشر
للميلاد . فعدّد منها مائة وخمسين سوقاً مختلفة الاسماء مائة وخمسين حرفة او صناعة .
وقد جاء فيها تحت الرقم التاسع اسم «سوق الوراقين» في باب البريد (٤) .

وكان في تونس كما في سائر البلدان سوق للوراقين ايضاً . ويروى انه لما
تحركت الاقطار التونسية على امير المؤمنين زكريا ابي يحيى اللحياني في اوائل
القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) جمع كتبه وباعها في الوراقين (٥)

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٧٣

(٢) ريحانة الالباء : مخطوطة في خزائن دار الكتب اللبنانية ببيروت

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧

(٤) الخزانة الشرقية : لحبيب زيات : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨

(٥) المؤنس في اخبار افريقية وتونس : لابن ابي دينار : صفحة ١٣٤

٨ - تجهيز الادباء لحفا في منازلهم للوراقين واهل العلم

تفرد رهنم من اهل الادب بعطف خاص على الغرباء من الوراقين واهل العلم . فلم يكتفوا بان يرفدوهم بالمال والكسوة والضيافة والجرايات وهلم جرا . بل ذهبوا الى اقصى من ذلك اذ جهزواهم افرشة وحقاً للمبيت عندهم . وعلى سبيل المثال نذكر يعقوب بن شيبه السدوسي المتوفى سنة ٢٦٢ للهجرة . فقد أعد في منزله اربعين حفا لمن كان يبيت عنده من الوراقين لتبييض الكتب (١)

وحدث القاضي ابو عبدالله الصبري انه سمع محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ للهجرة يقول : « كان في داري خمسون ما بين حفا ودواج معدة لاهل العلم الذين يبيتون عندي (٢) » .

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٤ صفحة ٢٨١ (٢)

(٢) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ٣ صفحة ١٣٥ (٢)

الفصل الثالث

مشاهير الخطاطين

١ - الخطاطون الاولون واشكال الاقلام القديمة

كان الخطاطون في العصور الغابرة يتنافسون في اجادة الكتابة وبيالغون حتى درجة الابداع في تنسيق الكنب وزخرفتها . واعظم اجلال داود الملك للكتاب فقد انشد عنه في مزاميره قائلاً : «لساني قلم كاتب بارع» (١) ومن طريف ما نظمه الشعراء في الكتبة قول احدهم (٢) :

ما الناس الا الكتّبة هم فضة في ذهبة
قد احرزوا دينام من شق تلك القصبه

ومن مشاهير الخطاطين الاقدمين نذكر : مالك بن دينار . وقطبة الذي عدّ أكتب اهل زمانه فكان يكتب المصاحف خلفاء بني امية . وبعد قطبة يأتي الضحّاك بن عجلان الكاتب . ثم اسحق بن حماد في عهد الخلفين المنصور والمهدي . وكان له عدة تلاميذ وضعوا الخطوط الاصلية الموزونة في اثني عشر قلماً وهي : قلم السجلات . قلم الديباج . قلم الجليل . قلم المنفتح . قلم الحرم . قلم العهود . قلم الحرفاج . قلم المدامرات . قلم القصص . قلم اسطورمار الكبير . قلم الثلاثين . قلم الزنبور (٣) .

(١) مزموور ٤٤ عدد ٢

(٢) محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء : للراغب الاسهباني : صفحة ٥٥

(٣) الحضارة الاسلامية : لاجد زكي باشا المصري : صفحة ٦٨

ثم قام الفضل بن سهل الوزير الكاتب . واسحق بن ابراهيم التميمي مؤلف رسالة «تحفة الرامق» . والعلامة الجليل احمد بن يوسف خطاط الخليفة المأمون .

٢ - ابن مقلة

اول من نال القدر المعلى في اجادة الخط علي بن محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة . كان وزيراً للخليفة جعفر المقتدر بالله (١) وهو اول واشهر من كتب الخط البديع . نقل طريقته عن خط الكوفيين وبرزها في هذه الصورة . ويروى عن القطب الكبير السيد عبد القادر الجيلاني (٤٩١ - ٥٦١ هـ) مؤسس الطريقة القادرية انه كان يجلس ابن مقلة ويشي عليه ويقول : « ان في يده سرّاً من اسرار الله » . وفي ابن مقلة انشد ابو عبيد البكري الاندلسي صاحب التأليف المشهورة قوله (٢) :

خطّ ابن مقلة من أرواه مقلته ودّت جوارحه لو أصبحت مقلّا
فالدّر يصفرّ لاستحسانه حسداً والورد يجمّر من إبداعه نجلاً

وانشد شاعر ثان هذين البيتين معرضاً فيها بان مقلة قال :

وعهدي بالصبا زمنياً وقدّي حكي ألف ابن مقلة في الكتاب
وصرت الآن منحياً كافي أفتش في المقابر عن شباني

غير ان ابن مقلة لم يسلم من حساد اخصهم ابن رايق وشوا به الى الخليفة الراضي بن المقتدر . فأمر بقطع يده في منتصف شهر شوال عام ٣٢٦ للهجرة . ثم عاد ابن مقلة يسعى في الوزارة وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب . ولما نمي الى ابن رايق ان ابن مقلة يدعو عليه وعلى الخليفة الراضي كرر الوشاية به . فأمر الخليفة

(١) صلة تاريخ الطبري : جزء ١٢٠ صفحة ٦٩

(٢) فلاند العيان : لفتح ابن خاتان : صفحة ١٩٩ طبعة مصر

بقطع لسانه فقطع (١). وضيق عليه في الحبس فأصابه ذرّب اودى بجياته سنة
٣٢٨ للهجرة (٢).

وقال ابن مقلة ينوح على يده اليمنى : «خدمت بها الخلفاء وكتبت القرآن
الكريم دفعتين تقطع كما تقطع ايدي الصوص». ثم أنشد (٣) :

ما سئمت الحياة لكن توثقت بإيمانهم فبانن يميني
بعث ديني لهم بدنياي حتى حرموني دنياهم بعد ديني
ولقد خططت ما استطعت يجهدني حفظ ارواحهم فما حفظوني
ليس بعد اليمين لذّة عيش يا حياي بانن يميني فييني!

حدث ابو القاسم بن الرقيّ منجم سيف الدولة بن حمدان أنه سمع سيف الدولة
يقول وقد عاد مكسوراً من احدى مواقعه : «هلك مني مما كان في صحتي خمسة
آلاف ورقة بخط ابي علي بن مقلة . وكان لابن مقلة شيء للنسخ وحوض فيه محابر
واقلام فيقوم ويتمشى في الدار اذا ضاق صدره . ثم يعود فيجلس في بعض تلك
المجالس وينسخ ما يخفّ عليه . ثم ينهض ويطوف جوانب البستان ثم يجلس في
مجلس آخر وينسخ اوراقاً آخر . فاجتمع من خطه ما لا يحصى (٤) .

٣ - ابن البواب

بعد ابن مقلة ظهر صاحب الخطّ الجميل عليّ بن هلال المعروف بابن البواب المتوفى
سنة ٤١٣ للهجرة . قال عنه ابن خلكان : «لم يرق بين المتقدمين والمتأخرين من
كتب مثل ابن البواب ولا قاربه . وان كان ابن مقلة اوّل من نقل هذه الطريقة
عن الكوفيّين فان ابن البواب هدّب طريقته ونقحها وكساها حلاوة وطلاوة» .

(١) زبدة الصحائف في اصول المعارف : صفحة ١٢٢

(٢) تاريخ ابي الفداء : جزء ٢ ، صفحة ٨٥

(٣) تاريخ ابن الوردي : جزء ١ ، صفحة ٢٧٠

(٤) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٩ ، صفحة ٣١-٣٢

وردى ياقوت الرومي في «معجم الادباء» عن ابن البواب ما نصه قال (١) :
«كان ابن البواب مزوقاً يصور الدور ثم صور الكتب. ثم عانى الكتابة ففاق
فيها المتقدمين واعجز المتأخرين» .

ولسنا نرى ان نفوتنا قصيدة طريفة جزيلة الفائدة نظمها عليّ ابن البواب في
صناعة الخط قال (٢) :

| | |
|---|---|
| يا من يُريد إجادة التحرير ان كان عزمك في الكتابة صادقاً أعدّ من الأقلام كلّ متقف وإذا عمدت لبريه فتوخه انظر الى طرفيه فاجعل بريه واجعل جلفته قواماً عادلاً والشقّ وسطه ليبقى برّيه حتى اذا اتقت ذلك كله فاصرف لرأي القطّ عزمك كله لا تطعمن في ان ابوح بسرّه لكنّ جملة ما أقول بانه والتيّ دوانك بالدخان مدبراً وأضف اليه مغرة قد صولت حتى اذا ما ختمت فاعمد الى ال فاكبسه بعد القطع بالمعصار كي ثم اجعل التمثيل دأبك صابراً إبدأ به في اللوح منتصباً له | ويروم حسن الخط والتصوير فارغب الى مولاك في التيسير صلب يصوغ صياغة التحبير عند القياس باوسط التقدير من جانب التدقيق والتحصير يخاو عن التطويل والتقصير من جانبيه مشاكل التقدير اتقات طب بالمراد خير فالقطّ فيه جملة التدبير إني أضن بسرّه المستور ما بين تحريف الى تدوير بالحل او بالحصرم المعصور مع اصفر الزرنبخ والكافور ورق النقي الناعم المحبور ينأى عن التثقيب والتغيير ما أدرك المأمول مثل صبور عزماً تجرّده عن التثبير |
|---|---|

(١) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ١٢٠-١٢١

(٢) عجائب الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٤ صفحة ١٥٩-١٦٠

لا نخجلن من الردي تخطته
 فالامر يصعب ثم يرجع هيناً
 حتى اذا أدركت ما أملته
 فاشكر الهك واتبع رضوانه
 وارغب لكفك ان تخط بنانه
 فجميع فعل المرء يلقاه غداً
 في اول التمثيل والتسطير
 ولرب سهل جاء بعد عسير
 اضحيت رب مسرة وحبور
 إن الاله يحب كل شكور
 خيراً تخلفه بدار غرور
 عند التقاء كتابه المنشور

٤ - كبار الخطاطين بعد ابن مقلة وابن البواب

ومن احرز قصبة السبق بعد ابن مقلة وابن البواب بين مشاهير الخطاطين
 نذكر ابا الحسين بن ابي علي. وكان حفيداً لابن مقلة فاحكم صناعة الخط مقلداً
 فيها اسلوب جده. ومنهم ابو العباس عبدالله بن اسحق اشهر ايضاً بجودة الخط
 بين معاصريه (١).

وروى ياقوت الرومي عن ابي نصر الفارابي قال: «كان من اعاجيب الزمان
 ذكاء وفطنة وعلماً. وكان اماماً في اللغة والادب وخطه يضرب به المثل لا
 يكاد يفرق بينه وبين خط ابن مقلة».

وعرف في القرن السادس للهجرة عمر بن الحسن الذي اتخذ طريقة علي بن
 هلال البواب. فاجاد في ذلك كل الاجادة واشتهر خطه عند كتاب الآفاق.
 وكان له من آلات الكتابة ما لم يكن لاحد قبله. قيل انه بيع في تركته آلات
 للكتابة في جملتها دواة بازهار اشتراها بعض ولد زعيم الدين بن جعفر صاحب
 الخزن بتسعمائة دينار. وبيع باقي التركة من سكاكين واقلام وبراكير (جمع بركار)
 بمبلغ آخر. وتوفي عمر بن الحسن الخطاط سنة ٥٥٢ للهجرة (٢).

(١) الفهرست لابن النديم

(٢) معجم الادباء: لياقوت الرومي: جزء ١٦: صفحة ٣٠٦

ومن ابرع الخطاطين في القرن السابع للهجرة ابو الفضل زهير (٥٨١-٦٥٦ هـ) ولقبه بهاء الدين الكاتب . كان من فضلاء عصره ونبغ في حسن الخط نبوغه في النظم والنثر (١) .

ومن افاذا الخطاطين كمال الدين عمر بن احمد هبة الله العقيلي المشهور بابن العديم (٥٨٨-٦٦٦ هـ) . كان راساً في الخط المنسوب ولا سيما في النسخ والخواشي . وهو اكتب من تقدمه بعد ابن البواب صنف كتاب «ضوء الصباح في الحث على السياح» للملك الاشرف . وكان الملك قد سار من حران بطلبه . فلما وقف الاشرف على خطه استهى ان يراه فقدم ابن العديم عليه . فاحسن الملك اليه واکرمه وخلع عليه وشرفه . وشاع ذكر ابن العديم في البلاد واشتهر خطه بين الحاضر والباد . فتباداه الملوك معجبين ببراعته في صناعته (٢) .

وانتهى حسن الخط بعد من تقدم ذكرهم الى جمال الدين المستعصي المتوفى سنة ٦٩٨ للهجرة . وهو ابرع الخطاطين غير مدافع واجودهم خطاً غير معارض . وقد كتب نسخة من كتاب «الشفاء» لابن سينا في مجلد واحد . ثم اهداه الى الشاه محمد طغلق احد ملوك الهند فانعم عليه بألف مثقال من الذهب . ولياقوت المستعصي مؤلفات تذكر منها : كتاب «اسرار الحكماء» طبع سنة ١٣٠٠ للهجرة في الاستانة . وكتاب «اخبار واشعار وملح وحكم ووصايا منتخبة» طبع كذلك في الاستانة سنة ١٣٠٢ للهجرة . وختم ياقوت المستعصي فن الخط واکمله وادرج جميع قوائمه في بيت شعر فقال :

اصول وتركيب كراس ونسبة صعود وتشير نزول وارمال

ومن معاصري ياقوت المستعصي عبد المؤمن صفي الدين الذي لم يكن في زمانه من يكتب المنسوب مثله . ففاق فيه الاوائل والاواخر وبه تقدم عند الخليفة .

(١) بحالي الادب في حدائق العرب : للاب لويس شيخو : جزء ٦ ، صفحة ٣٠٦

(٢) ابن العديم وتآليفه : لمحمد كرد علي (مجلة الرسالة : سنة ٥ ، صفحة ١٥٣٥-١٥٣٧)

ولما انتهت الخلافة الى المستعصم عمر خزانة كتب وامر ان يُختار لها خطاطان يكتبان ما يختاره . ولم يكن في ذلك العهد اعظم شهرة في تجويد الخط من عبد المؤمن المشار اليه والشيخ زكي الدين فصار تعيينها لتلك الوظيفة . وقد رتب الخليفة لعبد المؤمن خمسة آلاف دينار كل سنة وامر له برزق وافر . وبعد سقوط الدولة العباسية ساءت احوال عبد المؤمن وتراكت عليه الديون لانه كان ينفق ماله على الملاذ . ومات محبوساً سنة ٦٩٣ للهجرة على دين مبلغه ثلاثمائة دينار (١) .

واشتهر بحسن الخط في القرن التاسع للهجرة احمد بن يوسف بن محمد الدمشقي . فانه بعدما فقد يده اليمنى راح يكتب باليسرى . وقد اشار الى ذلك في هذين البيتين قال (٢) :

لقد عشتُ دهرآ في الكتابة مفردآ اصوّر منها احرفآ تشبه الدرآ
وقد صار خطي اليوم اضعف ما ترى وهذا الذي قد يسّر الله لليسرى
فما كان من قاضي القضاة الا ان انشده البيتين التاليين ليشجعه ويسرّي عنه
همّه قال :

لئن فقدت يمينك حسن كتابة فلا تحتمل همآ ولا تعتقدُ عسرا
وأبشّر ببشرٍ دائمٍ ومسرّة فقد يسّر الله العظيم لك اليسرى

٥ - الخلفاء والملوك المبرزون في جودة الخط

لم يكن الخلفاء والملوك اقل رغبة من الرعية في تجويد الخط والتأنق فيه . فان الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٥-٦٥٧ هـ) كتب بيده اربع نسخ من القرآن ، واقضى اثره الحجاج بن يوسف الثقفي وأهدى ما كتبه بيده من نسخ هذا

(١) فوات الوفيات : لابن شاکر : جزء ٢ صفحة ١٨

(٢) شذرات الذهب

المصحف الى عواصم المملكة . وكان السلطان ابراهيم بن يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨-٤٢١ هـ) سلطان بخارا يجيد الخط ويكتب كل سنة نسخة من القرآن يبعث بها الى مكة .

وروى ابن خلدون أن ابا الحسن سلطان افريقيا كتب نسخة من القرآن بيده وبعث بها الى مكة . وكتب نسخة اخرى انفذها الى المدينة المنورة . وكان ينوي كتابة نسخة ثالثة يوجهها الى القدس ففرضه قبل انجاز نيته .

وكان غياث الدين ملك الغورية ذا فضل عزيز وادب مع حسن خط وبلاغة . وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها في المدارس التي بناها (١) .

وسبق لنا في اثناء بحثنا عن خزائن كتب المسجد الاقصى بالقدس ان وصفنا مصحفاً نسخ بجهر احمر وازرق واخضر وقرمزي مزج بالزعفران والمسك . وقد كتبه بيده عبدالله بن امير المسلمين ابي سعيد عثمان سلطان الجزائر . وفي خزائن المسجد الاقصى ايضاً مصحف عريق في القدم نسخه بيده علي رق غزال ابن عبد الحق سلطان المغرب الاقصى .

٦ - نوابغ الخطاطين في القرون الاخيرة

قام في القرون الاخيرة خطاطون جديرون بالوصف رفعوا شأن هذا الفن بذكائهم وتقنيتهم وجلادتهم . ذكر الشيخ حسن البوريني بعض الخطاطين من آل المقدسي الدماشقة كالشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمانها الناس ولا سيما اهل دمشق لحسن الخط ودقة الضبط . وقد كتب منها الشيخ ابراهيم ما يزيد على مائة مصحف . ثم نوه البوريني بالشيخ خليل المقدسي ومن تلمذاته مصحف مسبق كتبه بخطه سنة ٨٠٩ للهجرة .

(١) المختصر في اخبار البشر : لاني الدداه : جزء ٣ صفحة ١٠٤

واشتهر بنو الحموي في دمشق اشتهار آل المقدسي بجودة الخط . ومن نوابغهم احمد بن محمد بن عبدالله . وقد اطلعنا في خزانة عيسى المعلوف على نسخة من المقامات الحريرية كتبها احمد الحموي سنة ١١٤٨ للهجرة (١٧٣٥ م) . وهي بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب (١) .

ومن مشاهير الخطاطين محمد الطاراني الدمشقي الذي كان يكتب اشكال الخطوط باجمعها ويقلد اقسامها على اختلاف اجناسها . ولما سافر من دمشق الى وادي النيل وُشي به الى حاكم مصر انه قلّد الطغراء السلطانية . فاستحضره الحاكم وألحّ عليه بالاقرار فأقرّ فقطعت يمينه . وصار الطاراني يلف بعد ذلك خرقة على يده ويمسك بها القلم ويكتب .

ومن معاصري محمد الطاراني نذكر ابن هلال الحمصي (٩٢٠ - ١٠٠٤ هـ) الذي ضاعاه بجودة الخط . قيل انه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعه النصارى الروم في كنيسة قسطنطينية . وكانوا يبرزونه في المواسم ويتخذونه من جملة ضروب الزينة لمزيد اعجابهم من حسنه واتقانه . وقد تقلبت على ابن هلال الحمصي احوالٌ ويحنّ ادت الى قطع يده اليمنى . ومن نكد الدنيا ان مثل تلك اليد النفيسة تقطع . ومن اعجب عجائبها ان ابن هلال كتب بالنسري بعدما قطعت يده اليمنى (٢) ولم يكن بدمشق في زمانه اعلم منه بالفقه واقدر على استخراج النقول من محالها . وقد قال فيه الشيخ ابو الفتح المالكي :

ان الكتابة للفتاوى لم تجد احداً سواك يحلّ من اشكالها
حملتك مقتلها فيما انساها انت ابن مقتلها وابن هلالها

واشار الناظم بالشرط الاخير الى ابي علي بن مقلة الوزير والى علي بن هلال المشهور بابن البواب . وهما الخطاطان الممتازان اللذان اثبتنا اخبارهما في بدء هذا الفصل .

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧

(٢) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٣٤١

ولا يقلّ عن ابن هلال الحمصي شهرةً في براعة الحُطّ الشيخ سعدي العمري الذي كان نادرة عصره وحسنةً من حسنات مصره . وُلد بدمشق بعد السنة الثمانين والالف للهجرة فطلب العلم على شيوخها وولي دار الحديث فيها . تفرّد بالشعر الحسن والنثر البديع والحُطّ المعجب حتى أصبح يشار إليه بالبنان بين أقرانه . ويروي عنه انه لما ارتحل الى بلاد الروم خدم سلطانها احمد خان الثالث (١١١٤ - ١١٤٣ هـ و ١٧٠٢ - ١٧٣٠ م) بقصيدة تمّتها بخطه الرائع . وضمن كل بيت منها تاريخاً لتأسيس خزانة الكتب التي انشأها السلطان المشار اليه (١) . ومن امتاز بحسن الحُطّ من أسرته عبد الرحمن بن محمد العمري الذي اشتهر بالحُطّ المنسوب ونحرج عليه خلق كثير (٢) .

ومن مشاهير خطاطي القرن الثاني عشر للهجرة عبد اللطيف بن عبد القادر الزوائد خطيب جامع الحسروية في حلب . كان فقيهاً حافظاً خطاطاً ذا صوت حسن شجي وقلّ ان تجتمع هذه المزايا في عالم . نشأ في فقرٍ حاله لان والده عاش وهو يحترف الصباغة . فكان المترجم لشدة فقره لا تصل يده الى شراء ورق لتعلم الكتابة . ففتقت له الحيلة ان يقصد الى القصاب ويأخذ منه ألواح الغنم فيفر كها بالرماد لتزول منها الزهومة ثم يكتب عليها . وقد فتقت له الحيلة ايضاً ان يجمع اوراق شجر البن فيلصق بعضها ببعض ويصقلها ويتعلم بها الكتابة . هكذا حسن خطّه وصار ينسخ بالاجرة جودة كتابته واتساق سطورها ويتفنن في شتى اساليبها . فانتعش حاله بعد الفقر المهلك واصبح في يسرٍ من العيش . وعلى اثر ذلك وجّهت اليه خطابة جامع الفرمانية وإمامته . وظلّ بهذه الوظيفة حتى فاجأته المنية عام ١١٣٢ للهجرة اذ سقط ميتاً عن ظهر البعلة بالقرب من باب النصر (٣) .

وآخر من برع بالحُطّ في دمشق السيد محمود حمزة الحسيني (١٢٣٦ - ١٣٠٥

(١) سلك الدرر : جزء ٢ صفحة ١٥١

(٢) سلك الدرر : جزء ١ صفحة ٢٧٥

(٣) سلك الدرر : جزء ٣ صفحة ١٢٦

و ١٨٢٠ - ١٨٨٧ م) مفتي الديار الشامية . فانه على تبحره بالعلم واشتغاله به وبمهام منصبه كان آية الزمان بالكتابة . وقد أتقن أنواع الخطوط بغاية الدقة والضبط والجمال فضلاً عن تفتنه العجيب بهذه الصناعة . ومن أغرب ما نقتنه يده كتابته على ورقة بحجم فص الحاتم أسماء شهداء وقعة بدر الكبرى وهم ثلاثمائة وسبعة عشر شهيداً (١) .

وندمج بمن أثبتنا أسماءهم بعض نوابغ الخطاطين في عصرنا كجليل بك العظيم . ومصطفى السباعي الحمصي المشهور بخطه الفارسي في دمشق . والشيخين مراد الشطي وحسن الشطي والشيخ حسين الباعجاني وممدوح افندي في دمشق ايضاً . ومسعود الكواكبي ومحمد علي الخطيب في حلب . ونسب مكارم في لبنان وله آيات مدهشات في فنون الخط على حبات الأرز وفصوص الخواتم وبيض الدجاج وغير ذلك (٢) . وفهد العنداري خطاط الجمهورية اللبنانية وكامل البابا في بيروت الخ الخ

٧ - شذرات شعرية في الخط

أنشد احمد بن احمد المكنى بابي العنايات ابن عبد الكريم النابلسي يصف خطه وحظته قال :

زاد خطي وقلّ حظّي فمن لي نقلُ نقطٍ من فوق خاءٍ لطاءٍ
وبشعريّ العالِي ترخّص شعري وبطبّ الفنون متّ بدائي

وقال آخر في المعنى ذاته :

لا تحسبوا أنّ حسن الخطّ يُسعدني ولا سماحة كف الحاتم الطائي
وانما انا محتاج لواحدةٍ لنقل نقطة حرف الخاء للطاء

(١) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٧٩

(٢) المشرق : مجلد ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٩٤٠

وقال الحليل :

كُتبتُ بـخَطِّي ما تَرى في دفاتري عن الناس في عصري وعن كل غابر
ولولا عزائي أنه غيرُ خالدٍ على الارض لاستودعته في المقابر
ومن لطيف ما نظم في الخطِّ ما أنشده ابو محمد عبدالله بن البياسي لنفسه
بالاسكندرية قال :

يمدّ الدهر من أجلي وعمري كما أني امدّ من المدادِ
لنا خطّان مختلفانِ جداً كما اختلف الموالِي والمُعادي
فاكتبُ بالسوادِ على بياضٍ ويكتبُ بالبياضِ على السوادِ
وهذا يشبه ما نظمه شاعر آخر بقوله :

ولي خطّ وللايام خطّ وبينهما مخالفة المدادِ
فاكتبُه سواداً في بياضٍ وتكتبُه بياضاً في سوادِ

الفصل الرابع

غرائب الخطاطين والخطاطات

روى فريق من المؤرخين شيئاً كثيراً من غرائب الخطاطين ونوادير الخطاطات قديماً وحديثاً. وقد اطلعنا على طائفة منها فانتقينا ما الفيناها ذا فائدة. ويطيب لنا الآن ان نثبت ملحقاً من تلك الغرائب والنوادير استكمالاً للموضوع الذي يدور عليه محور بحثنا .

١ - الخطاط حسين البيهقي

وُلد الحسين بن احمد فطيمية في بيهق من نواحي نيسابور وألها ينسب . وكان الحسين شيخاً مسناً رائع الخط كثير السماع من تلاميذ الامام ابي بكر البيهقي . أصيب بعملة في يده فقطعت اصابعه التي اعتاد ان يكتب بها . فصار يضع الكاغد على الارض ويمسك قلماً برجله وينسخ خطاً مفرداً . ووافته المنية سنة ٥٣٦ للهجرة في بلدة سخر وجرّد (١) .

٢ - الخطاط الفتح بن شخرف الكسي

حدث ابو محمد الحريري ان الفتح بن شخرف الكسي قال له : عندي قلم كتبت به مدة اربعين سنة . فكنت اكتب به نهاراً واكتب به على ضوء القمر ليلاً .

(١) معجم البلدان : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٢٤٧

وإثناء ارتفاع القمر كنت أجلس الى سلم في دارنا أرتقي عليها مرقاةً مرقاةً حتى
أنتهي الى اعلاها . فاذا نشعت رأس القلم قططته وهو لم يزل محفوظاً عندي .
وللحال احضر انبوبة واخرج منها القلم وأرانيه (١) .

٣ - الخطاط بي دست

قرأنا في كتاب «تاريخ الخط العربي وآدابه» مؤلفه محمد طاهر بن عبد القادر
الكردي المكي عن رجل يسمى «بي دست» ما نصه : «جاء الى مصر القاهرة في
السنة ٥٧٦ للهجرة رجل عديم البدن وأظهر كثيراً من الفنون والمعارف . وكان
يعرف جميع الخطوط فكتب برجليه جملة اسطر بالقواعد التامة . فكان موضع
الاعجاب وأقر له من كات موجوداً من الخطاطين ذلك الوقت . واقبلوا عليه
وجمعوا له مالاً كثيراً» .

٤ - الخطاطة بنت خداوردي

ورد في كتاب «اخبار الأول» للاسحاق ما حكايته : «في زمن الملك الكامل
في شهر شوال سنة ٦٢٤ للهجرة أحضرت من الاسكندرية امرأة خلقت من
غير يدين وفي موضع ثديها مثل الخلمتين . فجيء بها بين يدي الوزير رضوان
فعرفته أنها تعمل برجليها ما عمله النساء بأيديهن من خط ورسم وغير ذلك .
فأحضرها دواة فتناولت برجلها اليسرى قلماً ولم ترض شيئاً من الأقلام المبرية
التي أحضروها . فاخذت السكين وبرت لنفسها قلماً وشقته وقطته . وأخذت
ورقة فأمسكتها برجلها اليسرى وكتبت باليمنى احسن ما يكتبه الكتاب
بيمينهم . ثم ناولت الوزير تلك الرقعة فاذا فيها السؤال بالزيادة في راتبها فزادها
الوزير وأعادها الى بلدها» .

(١) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي : جزء ١٢٠ صفحة ٣٨٥

وأخبار الاسحاقى ان لهذه الخطاطة قبرا مشهورا في الاسكندرية يُزار . وهو
الآن بباب رشيد على يمين الداخل الى المدينة ويُعرف بمقام « بنت خداوردي » .
ولها اوقاف وأطيان ويُصرف لها من ديوان الاسكندرية في كل سنة ثلاثة
آلاف نصف فضة .

٥ - الخطاطة الست نسيم

اشهرت الست نسيم البغدادية بخطها في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله
(٥٧٦ - ٦٢٢ هـ) . وكان هذا الخليفة قد أصيب بفقد البصر واضطّر ان يحتج
عن وزراء الدولة وعن الناس . وبما ساعده على مواصلة سياسة المملكة انه استعان
بالست نسيم المشار اليها لكتابة مراسيمه واوامره لانها كانت تقلد خطه فكتبت
كتابة لا تميز عن كتابته قط . فقرّبها الناصر اليه وأفضى اليها بأسراره
وجعل يستكتبها كل ما شاء واراد . وكانت اذا وصلت المراسيم الى الوزير نقدها
فورا لجهله داء الخليفة واعتقاده ان المراسيم هي خطه لا خط الست نسيم (١) .

٦ - الخطاطان محمد الطائي وبيدع الرمان الهمداني

امتاز محمد بن سعيد الطائي بجمال الحلق والحلق واناقة الملابس والحط وكان
سريع الكتابة . وبما تفرّد به انه كان ينسخ الكتاب معكوسا من حسبلته الى
بسبلته (٢) . فاذا اراد نسخ كتاب بدأ به من آخر لفظه حتى ينتهي الى اول
لفظة منه . وكان المخطوط يبرز من بين يدي الطائي في غاية الظرافة والاتقان كانه
قد نسخ من البسلة الى الحسبة لا من الحسبة الى البسلة كالمألوف العادة . فهذه

(١) تاريخ الدول : لابن العبري : صفحة ٤٤٩ طبعة بيجان باريس

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ١٦

الطريقة المبتكرة تفرّد الطائي عن جميع النساخ فأثار ببراعته اعجاب الرفيع والوضيع والقريب والغريب .

ولا يعرف احدٌ قبل محمد الطائي نهج هذا الاسلوب في النساخ المعكوسة الا بديع الزمان الهمداني (٣٥٨ - ٤٣٩٨) . فقد ورد عنه في «معجم الادباء» لياقوت الرومي ما نصّه : «وكان بديع الزمان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بأخره ثم هلم جراً الى اوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه (١)» .

٧ - الخطاط عماد الدين التيرباج (توفي سنة ٨٥٥ للهجرة)

حلت وفاة عماد الدين سنة ٨٥٥ للهجرة . وكان رائع الخط حسن المحاضرة والمفاكية . ونظم ديوان شعر أنلفه وهو حي يرزق ضناً بكرامته وإعلاءً لشأن الادب على زعمه . ولما سُئل عما حمله على اتلاف الديوان قال : «كان الشاعر قديماً اذا نظم قصيدة ومدح بها احداً أجزى على قصيدته بمنحة سخية . اما انا فانظم القصيدة وأرسل معها الخدم والعسل وغير ذلك لكي تحوز القبول . وقد اغناني الله سبحانه عن الاستجداء فأريد قبل وفاتي ان اتصرف في ديواني حرصاً على كرامتي ولئلا يقال بعدي : ما أكثر ما سأل بقصائده !» (٢) .

٨ - الخطاط ابرهيم الشيباني

روى المقرئ في «نفع الطيب» عن ابي اليسر ابرهيم بن احمد الشيباني انه نسخ كتاب سيبويه كله بقلم واحد . وظلّ يبره ويستعمله في نساخه الكتاب المذكور حتى قصر . فأدخله في قلم آخر وكتب به الى ان فني بنام الكتاب (٣) .

(١) معجم الادباء : جزء ١ صفحة ٩٦

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جزء ٥ صفحة ٢٥٤

(٣) نفع الطيب : للمقرئ : جزء ٢ صفحة ١١٥

٩ - خطاط بلا يد ولا رجل

عثرنا في هامش «تحفة الخطاطين» على ما يلي : «جاء الى الديار القسطنطينية رجل بلا يد وبلا رجل وذلك سنة ١٠٨٢ للهجرة . فاخذ يتعلم الخط على مشق الاستاذ صيولجي زاده والاستاذ مصطفى . فلما حسن خطه كتب سورة الانعام ثم كتب سطرأ واحداً بالثلث وسطرين بالنسخ . وقدم ذلك الى السلطان (محمد بن ابراهيم ١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ) فأجزل له العطاء» .

١٠ - احمد بن محمد الصخري

كان يكتب الكتاب مبتدئاً بآخر سطر حتى ينتهي الى السطر الاول فيخرجه مستوفى الالفاظ والمعاني . وانتدب الصخري على لسان الشيخ ابي الحسين السهيلي ان يكتب في معنى مؤلف الكتاب كتاباً الى الدهخدا ابي سعيد محمد بن منصور الحوالي يذكر فيه أن اخبار فلان تأتينا ثم تشوقنا الى مشاهدته وبديع تأليفاته . فأخذ الصخري القلم والقرطاس وبدأ يكتب من السطر الاخير ثم لم يزل يمضي قدماً في الكتاب ويرتفع عن عجزه الى صدره ومن أسفله الى اعلاه ويصل او اخره باوائله حتى أتم المعنى الذي اقترح عليه . وفرغ من الكتاب في زمان قصير المدة (١) .

(١) معجم الادباء : جزء ٥ صفحة ٢١

الفصل الخامس

النسابة والطباعة

أولاً : حرص العرب على صيانة مؤلفات السلف

لا غرو ان العرب الاولين في ايام سؤدهم كانوا احرص الناس على تراث آباؤهم ومؤلفات علمائهم . وقد احدث ملوكهم وأمراؤهم دواوين خاصة لنسخ الكتب في القصور والمساجد ودور العلم وبيوت الحكمة . وعينوا لتلك الدواوين كتاباً ونساحاً من اهل الضبط والخط الحسن قام بينهم علماء وشعراء ومؤرخون وفلاسفة . فأكرمهم أولئك الملوك وجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ورتبوا لهم الجرايات الكافية . وكان في كل ديوان عشرات من النساخ وذوي الشهرة البعيدة في الثقافة ينصرفون الى هذا العمل ويعيشون في كنف الملوك والأمراء من تلك المهنة الشريفة .

وفي التاريخ امثلة من هذا القبيل لا تحصى ولا تُعد . فمنها ان الوزير بن كلث كان يجمع في قصره بالقاهرة عدداً كبيراً من الموظفين يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن . وكان بعضهم ينسخ شيئاً من كتب الحديث والفقه والادب وبعض كتب العلوم حتى الطب . وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط (١) .

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ٢٣٦

ومن ذلك ان المستنصر باثه الحكم الثاني سلطان قرطبة (٩٦١ - ٩٧٦ م) جمع
بداره الخذاق في صناعة النسخ والمهارة في الضبط (١) . ومنها ان مائة وسبعين
امرأة كن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي بالربض الشرقي من قرطبة احدى
عواصم الاندلس (٢) .

وكان ديوان موقت الدين ابن المطران المتوفى سنة ٥٨٧ للهجرة (١١٩١ م)
حافلاً بالنساخ يكتبون له دون انقطاع . فكان يجزل لهم في العطاء ولهم منه
الجامكية والجرابية (٣) .

وحكي عن يوسف بن صبيح انه توجه الى جزيرة تنيس الواقعة في بحر مصر
بين دمياط والفرما . وهناك شاهد خمسة صاحب بحيرة يكتبون الحديث .
فدعاهم الى بعض نواحي الجزيرة وصنع لهم وليمة توقر فيها الطعام لجمعهم (٤) .

وناهيك ان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٢٩-٥٩٦ هـ) بلغ عدد مجلدات
مكتبة بالقاهرة مائة واربعة وعشرين الفاً فيها نساخ لا يفترقون ومجلدون لا
يبتلون (٥) . وقد سبق لنا القول ان الملك المؤيد هزبر الدين داود ملك اليمن
(٦٩٥ - ٧٢١ هـ) كان عنده اكثر من عشرة نساخ ينسخون الكتب ويضمونها
الى خزائنه بعد التدقيق فيها ومقابلتها على الاصل . اما الطبيب الاسرائيلي افرانيم
بن الزفان فكان النساخ يزاولون له النسخ ابدآ ولهم منه ما يقوم بمؤونتهم (٦)
ويروي عن صاحب امين الدولة السامري ان النساخ لا يفارقون خزائن كتبه .
ولما اراد احراز نسخة من تاريخ الشام في ثمانين مجلدآ لابن عساكر كتف عشرة نساخ

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٧-٦٩

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥

(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٧٨

(٤) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٢ صفحة ٤١٩

(٥) خطط القرظي : جزء ٤ صفحة ١٩٩

(٦) طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ١٠٥

ان ينقلوه فكتبوه بمدة سنتين (١) وروى المؤرخون ان مائة من الخطاطين كانوا يدأبون في نساخة الكتب بدار العلم في طرابلس الشام على عهد قضاتها آل عمار .

ثانياً - اساليب القدماء في ضبط النساخة

استعمل كبار النساخ في عهد مضي اساليب خصوصية لاناقة الخط ونجويد النسخ وضبطه في كل وجوهه . وتفنن العرب في ذلك تفنناً غريباً حتى برزوا على جميع الامم في ما خلفوه من المخطوطات البديعة واشكال الكتابات المتكررة التي لا يحصى لها عدد . فكان الناسخ اتقاناً لعمله يستحضر مقوى (كرتون) يعادل حجمه حجم الكتاب المنوي نسخه . ثم ينقب في طرفي ذلك المقوى ثقباً متوازية يشد فيها خيوطاً يساوي عددها عدد سطور كل صفحة من صفحات الكتاب . ويجعل الفرق بين الخيطان متناسباً مستقيماً طبقاً للاصول المرعية في فن الكتابة . وبعد تهيئة تلك «المسطرة» يأتي الناسخ بالكاغد المعد للنسخ ويضغطه على الخيوط المشدودة في ذلك المقوى . فتطبع عليه اسطراً بيضاء لا تكاد تنظر بالعين المجردة وتزول بتوالي الايام . وعلى هذا الاسلوب يستعمل الناسخ كتابة ما أزمع ان يكتبه بنظام ودقة فوق تلك الاسطر المعتدلة البيضاء . فتخرج نسخة الكتاب من بين يديه ظريفة الشكل متقنة الكتابة محدودة الاسطر كاملة الاوصاف منسقة تنسيقاً واحداً في جميع الصفحات دون زيادة ولا نقصان .

وقد شاهدنا نماذج من ذلك المقوى كبيرة وصغيرة محفوظة في المنكبتات القديمة وفي دبورة الرهبان . وشاهدنا كذلك عدة صحائف في مخطوطات لم تزل آثار سطورها البيضاء باقية هذا العهد .

ومن استعرض المخطوطات القديمة ثبت له مقدار عناية اربابها بصناعة النسخ . فكان هؤلاء يختارون لكتابة المخطوطات ورقاً صقيلاً صفيقاً ولا يستعملون الا

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٤

حبراً ثابتاً باشكاله من أسودٍ واحمرٍ واخضرٍ وأصفرٍ وزعفرانيٍّ وفضديٍّ
ومذقٍ. وكانوا يتفتنون بتجويد الحروف على اختلاف أنواعها ويعتنون كثيراً
باتقان العناوين وزخرفة الصفحات وضبط الحواشي وتسيق الهوامش مما يأخذ
بمجامع الابصار. *في نسخة بخط اليد: في نسخة بخط اليد: في نسخة بخط اليد*

ومن أهم ما يجب ان يتحلى به الناسخ من المزايا امانة النقل ودقة النظر
في صيانة أصل ما ينسخه ويضبطه طبقاً لنسخة المؤلف عنه. ويطلب من الناسخ
علاوةً على ذلك ان يراعي عبارة الكتاب وحركاته وادواته وفصوله حرصاً على
آداب المؤلف الذي أحيا اللبالي في التفكير والبحث والتدوين.

وقد تنافس الشعراء قديماً في مدح الكتاب والنسّاخ فاجادوا. ومن أفصح ما
مدح به كاتبٌ من الكتاب قول ابن المعتز:

إذا أخذَ القرطاسِ خلتَ يمينهُ تُفَسِّحُ نوراً أو تنظِّمُ جوهرًا
وأنشد شاعرٌ آخرَ هذين البيتين :

إن هزَّ أفلامهُ يوماً ليُعَمِّلها أنساك كلِّ كمي هزَّ عاملتهُ
وإن أقرَّ على رَقٍّ أناملتهُ أقرَّ بالرقِّ كتابُ الأنام لهُ

وكما أجاد الشعراءُ في مدح خيرة الكتّاب والنسّاخ كذلك راح بعضهم
يذمُّ حمقى الكتّاب ويلهج بهجوم. من ذلك قول أحدهم في كاتب جاهل (١):

حمارٌ في الكتابة يدعيها كدعوى آل حربٍ في زيادِ
فَدَعُ عَنْكَ الكتابةَ لستَ منها ولو غرقتَ نيا بك في المدادِ

ثالثاً - نشأة الطباعة العربية في الغرب

إذا نحررنا الكلام عن الطباعة العربية تبين لنا ان الغرب كان المجتلي في

(١) صحح الاعشى: جزء ١، صفحة ٧٧؛

ابرازها للوجود منذ مطلع القرن السادس عشر . وغير خاف ان للطباعة شأنها
الخطير في عالم الحضارة بتوفير نسخ الكتب واغناء المكتبات بحيث يصح ان
نطلق عليها لقب «أم الكتب الولود» . تلك حقيقة تثبتنا بالشكر لابناء الغرب
عموماً وللمستشرقين خصوصاً . لانهم هم الذين استنبطوا حروف الطباعة العربية
وهذبوها ونشروها في جميع الاصقاع . ولم يقصروا همتهم على ذلك بل بعثوا
مخطوطاتنا العربية القديمة من دفائنهم . فطبعوها في بلادهم وعلقوا عليها الشروح
وأردفوها بالفهارس ثم ترجموها بلغاتهم وعلّموها في مدارسهم وزينوا بها
خزائن كتبهم .

على ان البعثة الاب لويس شيخو تفرغ للتدقيق في تاريخ فن الطباعة العربية
شرقاً وغرباً واستوفى البحث عنها في مجلة المشرق (١) . فرأينا ان ننقل ما دونه
عن المطابع العربية في بلاد المغرب ونلخصه بما يلي :

اول كتاب عربي ظهر في عالم الطباعة نشرته مطبعة «فانو» العربية وهو
كتاب «صلاة السواعي» حسب الطقس الاسكندري . وظهر بعده في جنوا
عام ١٥١٦ كتاب «مزامير داود» باربغ لغات وهي : العربية والسريانية
والعبرانية واليونانية .

وفي السنة ١٥٣٨ نشر الطباع بوستل في باريس مبادئ اثني عشرة لغة شرقية
في جملتها اللغة العربية .

وطبع الاب يوحنا البيان عام ١٥٦٦ كتاب «اعتقاد الامانة الارثوذكسية في
كنيسة رومية» بمطبعة المدرسة الرومانية .

وفي السنة ١٥٨٤ نشر دومينيك باسا اول كتاب علمي عربي وهو كتاب
«البلستان في عجائب البلدان» تأليف سلامش بن كندغدي الصالحي .

ونشر آل ميديسيس عام ١٥٩١ كتاب «الانجيل» بحرف مشرق وتصاوير
انيقة على الخشب . وطبعوا في السنة التالية كتاب «نزهة المشتاق في ذكر الامصار

(١) المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٨٠-٨٥

والآفاق» لابي عبدالله محمد المعروف بالشريف الادريسي . ثم نشرها عام ١٥٩٣
«قانون ابن سينا» وألحقوه بكتاب «النجاة» وطبعوا كذلك في السنة ١٥٩٥ كتاب
«تحرير أصول اوقليدس» تأليف نصير الدين الطوسي .

ونشرت مطبعة سافاري دي براف في رومة سنة ١٦٢٤ كتاب «نحو اللغة
العربية» وكتاب «الابساغوجي» في المنطق عام ١٦٢٥

ونشرت مطبعة البروبغندا في رومة عدة كتب دينية وتاريخية وعلمية ولغوية
نذكر منها قاموساً عربياً ايطالياً طبعته عام ١٦٣٧

اما مطبعة ليدن فقد امتازت بكثرة مطبوعاتها العربية . ومن جملتها امثال
لقمان الحكيم عام ١٦١٥ وقصة يوسف الصديق نقلاً عن القرآن عام ١٦١٧ وهو
اول كتاب عربي ضبط بالشكل الكامل . ونشرت هذه المطبعة نفسها تاريخ
ابن العميد عام ١٦٢٥ ومجموع امثال علي بن ابي طالب عام ١٦٢٩ و «عجائب
المقدور في اخبار تيمور» لابن عربشاه عام ١٦٣٦ وطائفة من مقامات الحريري
عام ١٧٤٠ و «معلقة طرفة» عام ١٧٤٢ وديوان الامام علي عام ١٧٤٥ ولاهية
كعب بن زهير عام ١٧٤٨ وسيرة صلاح الدين الايوبي لابن شداد سنة ١٧٥٥
وقصيدة البردة سنة ١٧٦١ وكيلة ودمنة سنة ١٧٨٥ ونخبة من امثال الميداني
عام ١٧٩٥ الخ الخ . هكذا نالت مطبعة ليدن المقام الاول بين زميلاتها في اوربا
بمطبوعاتها النفيسة .

اما مطبعة باريس الملكية فقد اجادت كل الاجادة بطبع نسخة الكتاب المقدس
المشهورة بالبوليغلوتا في تسعة مجلدات ضخمة تتضمن جميع اسفار العهدين القديم
والجديد بست لغات وهي : العربية والعبرانية والسامرية والسريانية واليونانية
واللاتينية واستغرقت طبعها ثلاث عشرة سنة (١٦٢٣ - ١٦٤٥) وهي من ابداع
واجل ما طبع لذلك العهد (١) .

(١) اول طبعة من «البوليكلوت» باليونانية والسريانية واللاتينية والعربية ظهرت في ايطاليا
عام (١٥١٤-١٥١٧) ثم في البندقية عام ١٥١٨ (المشرق ٣٨ : ١٩٤٠ : ٢٦٥)

ونشرت مطبعة لندن «تاريخ الدولة الخوارزمية» لابي الفداء سنة ١٦٥٠ وطُبعت
«التوراة المقدسة» بتسع لغات في ستة مجلدات ضخمة سنة ١٦٥٧ ورسائل طبية للرازي
سنة ١٧٦٦ وكتاب «الجراحة» لابي القاسم سنة ١٧٧٨. و«المعلقات» سنة ١٧٨٣
ونشرت مطبعة او كسفرد نبذة في تاريخ العرب سنة ١٦٥١ ومقالات لموسى
بن ميمون عام ١٦٥٥ و«تاريخ سعيد بن بطريق» عام ١٦٥٨ و«لامية الطغراني»
عام ١٦٦١ و«تاريخ مختصر الدول» لابن العبري عام ١٦٦٣ و«رسالة حي بن يقظان»
عام ١٦٧١ و«السيرة النبوية» من تاريخ ابي الفداء سنة ١٧٤٣

وُنجمل الكلام عن سائر المطابع الاوروبية فنقول : نشرت مطبعة البندقية
كتاب «القرآن» سنة ١٥٣٠ وطُبعت في بادوا سنة ١٦٩٨ «تفسير القرآن»
للبيضاوي والزمخشري والسبوطي. وُطبع في ابسالام عام ١٧٥٧ كتاب «خريدة
العجائب» ونشرت في ليبسيك عام ١٧٥٥ «رسالة ابن زيدون». وطبع في
هودرنبغ كتاب «مقصورة ابن دريد» في السنتين ١٧٦٨ و١٧٨٦ وفي فرنكفورت
كتاب «لامية الطغراني» عام ١٧٦٩ وفي غوتا كتاب «وصف مصر» عام ١٧٧٦
وتاريخ ابي الفداء في كوبنهاغ عام ١٧٨٩ اما كتاب عبد اللطيف في «الامور
المشاهدة بمصر» فقد طبع اولاً في توبنغ عام ١٧٨٩ وثانياً في او كسفورد عام ١٨٠٠
وطبع في صقلية عام ١٧٩٠ كتاب «آثار العرب في بالرمة». ونشرت في ليبسيك
عام ١٧٩١ منتخبات من كتاب «تقويم البلدان» لابي الفداء و«معلقة زهير» عام ١٧٩٢
وُنشر في رُستك عام ١٧٩٧ كتاب «النقود الاسلامية» للمقرزي الخ الخ. ومنذ
افتتاح القرن التاسع عشر دخلت المطبوعات العربية في طور جديد بحيث صار
عددها يربي في اوروبا على المئات. وفي ما ذكرناه كفاية.

انما لايسعنا السكوت عن الاشارة الى بعض كتب عربية نُشرت بحرف
عبراني في مدينة القسطنطينية بمطبعة المرني اسحق جرسون اليهودي في اواخر
القرن الخامس عشر. وقس على ذلك كتباً عربية جمّة نُشرت في مطابع اوروبا
بحروف سريانية.

رابعاً : ظهور الطباعة العربية وذيوعها في الشرق

١ - بواكير المطابع النصرانية في الشرق

إذا انتقلنا من البحث عن المطابع العربية في الغرب الى البحث عنها في الشرق فلنا ان جبل لبنان هو السبّاق الى ذلك . لانه فيه تأسست أوّل مطبعة عربية . وامتدّت الطباعة بعد ذلك الى سائر انحاء الشرق كسوريا ومصر وفلسطين والعراق وما بين النهرين وغيرها .

فاقدم مطبعة برزت للوجود في الشرق هي مطبعة دير قزحيا بلبنان . وقد نشرت عام ١٦١٠ كتاب « المزامير » في حقلين متقابلين : احدهما في اللغة العربية بحروف كرشونية والآخر في اللغة السريانية .

وأوّل مطبعة عربية أنتجت في الشرق كتباً عربية بحروف عربية هي المطبعة التي جلبها الى حلب بطريك الروم الملكيين اثناسيوس الثالث (١٦٨٥ - ١٧٢٤) من آل دباس . فانه سافر عام ١٦٩٨ الى بلاد الفلاح واستحضر تلك المطبعة من عاصمتها بكرش (بخارست) الى حلب . ثم نشر فيها عام ١٧٠٦ كتاب الانجيل مزيناً بصور الانجيليين الاربعة (١) .

وبعد مطبعتي قزحيا وحلب قامت مطبعة دير الشوير بلبنان . أسسها وحفر حروفها الشماس عبد الله زاخر (١٦٨٠-١٧٤٨) العلامة النابغة . وكان باكورة مطبوعاتها كتاب « ميزان الزمان » سنة ١٧٣٤ وقد اتيح لنا ان تعهدنا هذه المطبعة القديمة التي توقفت عن العمل . فأعجبنا حرص الرهبان على صيانة مطبوعاتها وجميع ادواتها وعلى حفظها سالمة دون ان يفقد شيء من بقاياها . وهي مرتّبة في غرفها الاصلية ترتيباً تاماً يستوجب الثناء على القائمين بحراسنها .

(١) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب شيخو : قم ٢ صفحة ١٩٣

ورابع مطبعة عربية عرفها الشرق هي مطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثوذكس في بيروت . انشأها الشيخ يونس نقولا جبيلي المشهور بابي عسكر (+ ١٧٨٧) وكان ذا ثروة واسعة ونفوذ عظيم لدى الجزائر . واول ما نشرته هذه المطبعة هو كتاب المزامير فالسواعية فالقنذاق سنة ١٧٥١

وخامس مطبعة في الشرق أنشئت في الاسكندرية سنة ١٨٠٠ في اثناء الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال نابليون بوناپرت . وبها طُبعت جريدة «التنبيه» بتاريخ ٦ كانون الاول سنة ١٨٠٠ وهي باكورة جميع الجرائد العربية في العالم اجمع .

اما سادس مطبعة عربية في الشرق فقد جلبها عام ١٨١٦ من لندن الى دير الشرفة - بلبنان المطران بطرس جروة الذي نصب بعد ذلك بطريركاً انطاكيّاً (١٨٢٠ - ١٨٥١) على السريان الكاثوليك . ومن مطبوعاتها العربية كتاب «مجمع الشرفة» المعقود سنة ١٨٨٨ وكتاب «المباحث الجليلة في الليتورجيات الشرقية والغربية» للبطريرك اغناطيوس افرام رحمانى .

٢ - بواكير المطابع الاسلامية في الشرق

اول مطبعة اسلامية نشرت كتباً عربية هي مطبعة سعيد افندي في الاستانة . فقد استعان براهيم آغا المجري واصر فيها عام ١٧٢٨ تاريخ الحاج خليفة (١٠٠٤ - ١٠٦٧ هـ) بعنوان «تحفة الكبار في اسفار البحار» وهو باكورة مطبوعاتها العربية . اما اشهر المطابع العربية في تلك العاصمة فمطبعة «الجوائب» أسسها عام ١٨٦١ احمد فارس الشدياق اللبناي ونشر فيها تصانيف عربية جليلة كالجاسوس على القاموس وديوان البحوتي وديوان الطغرائي ورسائل الخوارزمي والهمذاني ومنتخبات الجوائب الخ .

وأقدم مطبعة اسلامية عربية في القطر المصري هي مطبعة بولاق الذائعة الصيت .

انشأها عام ١٨٢٢ محمد علي باشا راس العترة المالكة. ونستغني عن تعداد مطبوعاتها الوافرة لانها اشهر من نار على علم.

وأقدم مطبعة اسلامية عربية في بلاد المغرب اسسها عام ١٨٦٠ محمد الصادق باشا باي تونس (١٨٦٠-١٨٨٢). وتعد باكورة منشوراتها جريدة «الرائد التونسي» التي برزت للوجود بتاريخ ٢٠ تموز ١٨٦٠ (١٢٧٧ هـ). وقد كلف الباي المشار اليه مستعرباً فرنسياً يقال له منصور كرني لاجراء مشروع المطبعة والجريدة الى الوجود (١).

واقدم المطابع الاسلامية العربية في دمشق مطبعة ولاية سوريا جرى تأسيسها في السنة ١٨٦٤ وكانت باكورة نشراتها رسالة الشيخ عمر العطار في المنطق وقواعد الاوقاف تأليف السيد محمود حمزة مفتي دمشق.

اما المطابع الاسلامية العربية في العراق فأقدمها مطبعة الزوراء أنشئت عام ١٨٦٩. ومن بواكير مطبوعاتها بعد جريدة «الزوراء» سالنامه ولاية بغداد وقانون الجزاء المهابوني وقانون الاراضي.

واقدم المطابع الاسلامية في بيروت «مطبعة جمعية الفنون» انشأها سنة ١٢٩٢ للهجرة (١٨٧٤ م) الشيخ عبد القادر قباني. ونشر فيها جريدته «ثمرات الفنون» وهي باكورة جميع الصحف الاسلامية في هذه الحاضرة. واول ما طبع فيها كتاب «كشف الارب عن سر الادب» نظم الشيخ ابراهيم الاحدب. وكتاب «اطواق الذهب في المواعظ والخطب» للزمخشري شرحه الشيخ يوسف الاسير.

٣ - بواكير المطابع الحجرية في الشرق

بكد لا يتجاوز عدد المطابع الحجرية في الشرق عدد الافامل. واقدمها عهداً «المطبعة

(١) تاريخ الصحافة العربية : جز ١ صفحة ٦٥

الكاثوليكية ، التي أسسها الآباء اليسوعيون في اول تشرين الاول ١٨٤٨ ببيروت .
 ونألفت في بداية امرها من مطبعة حجرية صغيرة . ثم اضاف اليها مؤسوسها
 ادوات خشبية للكبس والحياطة والتجليد صنعها فرديناند بوناچينا (+ ١٨٦٠)
 احد رهبانهم الايطالي الاصل . ومن اقدم مطبوعاتها براآت بابوية وديوان المطران
 جرمانس فرحات وامثال لقمان الحكيم . ولما استحضر الآباء اليسوعيون عام ١٨٥٤
 مطبعة عربية على الحروف أهموا المطبعة الحجرية . فارسلوها الى مدرستهم في غزير
 حيث طبعوا كتاب « نخب الملح وغرة المنح » وجددوا فيها طبع « امثال لقمان
 الحكيم » .

وثانية المطابع الحجرية انشأها الشاعر اللبناني صاحب السيف والقلم حنا بك
 الاسعد (١٨٢٠-١٨٩٧) المنتمي الى آل ابي صعب وهم من مزرعة بيت ابي صعب
 في البترون (١) . وقد نشر فيها سنة ١٨٥٣ بخطه الجميل شرح المعلقات للزوزني .
 واتخذ مركزاً لها قصر «بتدين» دار الامارة اللبنانية في عهد الامير بشير الكبير
 (١٧٨٨-١٨٤٠) . وكان حنا بك الاسعد متولياً الكتابة في ديوان الامير المشار
 اليه باللغتين العربية والتركية . وقد ذهب في خدمته الى مالطا والاستانة ولم
 يرجع الى لبنان الا في السنة ١٨٤٩ اي قبيل وفاة مولاه الامير الكبير (+ ١٨٥٠) .
 وقد وصفه احد الشعراء بهذين البيتين :

لحنًا قد أقرّ العربُ طُراً بفوزٍ بالسباقِ لدى الرهاتِ
 له شهدَ البراعُ بحسنِ خطِّ كما سجد الحسامُ مع السنانِ

ثم توفرت المطابع العربية الحجرية في العراق . واقدم مطبعة عُرفت فيه
 «مطبعة كربلاء» جلبها من بلاد ايران عام ١٨٥٦ احد اعيانها ونشر فيها مقامات
 ابن الالومي المشهورة بمقامات الجدة . وجرى ذلك في ايام محمد رشيد باشا والي بغداد
 وكان من اعظم انصار الادب .

(١) تاريخ الصحافة العربية : لفيليب دي طرازي : جزء ١ صفحة ١٢٥-١٢٨

وانشئت في بغداد بعد مطبعة كربلاء ثلاث مطابع حجرية : أقدمها «مطبعة كامل التبريزي» التي أسسها الميرزا عباس سنة ١٨٦١ ونشر فيها بعض الكتب . نذكر منها ١ : «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» للسويدي . و«المقامة الطيفية» لجلال الدين السيوطي . وكتاب «الطرائف واللطائف» للشيخ أبي نصر أحمد بن عبد الرزاق المقدسي الخ . ثانيها مطبعة حجرية فاخرة ابتاعها من باريس سنة ١٨٦٩ والي بغداد أحمد مدحت باشا الوزير العثماني الشهير وألحقها بمطبعة الولاية وثالثها «المطبعة الجديدة» لصاحب امتيازها عبد الوهاب أفندي وكانت عضواً في مجلس المبعوثان العثماني الأول بالآستانة . وبما طبع فيها كتاب «بجر الكلام» لسيف الحق أبي المعين النسفي . ورسائل فقهية وغير ذلك .

٤ - إقامة بطريرك الاقباط مهرجاناً في الشوارع ابتهاجاً بمطبعته

من أروع ما أثبتته التاريخ من مجالي التجلته والاعتبار للمطابع تلك الحفاوة الكبرى التي احتفل بها الانبياء كيولس الرابع بطريرك الاقباط (١٨٥٤ - ١٨٦١) ترحيباً بأول مطبعة اقتناها لابناء ملته . فانه وجه الامر الى المطارنة والكهنة والشمامسة ولقيف الاكليروس ان يقيموا الاستقبالها مهرجاناً فخماً . فخرجوا قاطبة الى محطة القاهرة في الصلابة والمخامر والشمعات والصنوج . وتوشحوا باتواهم البيعية وجعلوا ينشدون الترانيم الرخبية جذلين مسرورين . وتبعهم القوم بالاهازيج والزغاريد حتى بلغوا بالمطبعة الى الدار البطريركية . وعند ذلك هرع البطريرك الى استقبالها مهتلاً وهو يقول : «لولا الخوف من لوم الجهال خرجت الى الطريق ورقصت امام المطبعة كما رقص داود امام تابوت العهد (٢ ملوك ٦ : ١٤)» (١) . وظل القوم في جميع أنحاء القطر المصري يتحدثون زمناً طويلاً عن ذلك الاستقبال الغريب الذي لم يسمع بمثله في التاريخ (٢) .

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٣ صفحة ٩-١٠

(٢) تراجم مشاهير الشرق : تأليف جرجي زيدان : جزء ١ صفحة ٢٧٨

٥ - مطبعة عربية تصدر كتاباً بعشرين لغة

لم يقتصر ارباب المطابع العربية في الشرق على نشر الكتب باللغة العربية فقط بل نشطوا الى تجهيزها بحروف اغلب اللغات الشائعة شرقاً وغرباً . واول مطبعة احرزت قصة السبق بتفنيها في ذلك هي المطبعة الكاثوليكية ببيروت . فقد نشرنا فيها منذ السنة ١٨٩١ كتابنا « القلادة النفيسة في فقيه العلم والكنيسة » بعشرين شكلاً من الحروف الشرقية والغربية في ٢٠٤ صفحات . وهو اول كتاب اصدرته المطابع العربية في الشرق بهذا العدد الوافر من اللغات (١) .

٦ - تقلص ظل المخطوطات العربية بانتشار المطابع

على اثر توفّر المطابع العربية انتشرت الطباعة رويداً رويداً في جميع ارجاء الشرق الادنى . فعمت او كادت تعم المدن والداكر من شاطيء دجلة حتى وادي النيل . وقد اكتفينا بذكر النزر من بواكير المطابع العربية في الشرق تنويراً لمن تهمة معرفة ذلك .

وبداعي اختراع الطباعة أخذ ينقلص ظل المخطوطات تدريجياً بزيادة انتشار المطابع . وصار عليها وحدها المعول في تجهيز خزائن الكتب بمختلف التصانيف . ومن ذلك الحين قلت المخطوطات في انحاء الشرق بعد ما كانت حافلة بها خزائن ادياره ومساجده ومدارسه وبيوت علمائه . ذلك إما لانها تلفت لكثرة ما تداولتها الايدي . وإما لانها نُقلت الى مكاتب الغرب ومناخه . فعدت من دواعي التفاخر والزينة في مكاتبنا لندرتها وقدامة عهدا وتقن الخطاطين في نساختها وزخرفتها .

(١) مجلة المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ٧١٥

الفصل السادس

مشاهير الكتاب والفساخ المسلمين والسلامات

١ - نوابغ الكتاب في القرون الاولى للهجرة

أقدم من أطلق عليه في الاسلام لقب «كاتب» فيما نرجح هو عبد الحميد الكاتب قُتل في الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة . وكان على قول مؤلف «العقد الفريد» اول من فتن أحكام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر . ضربت الامثال ببلاغته . والى ذلك اشار البحثري في قصيدته الى محمد بن عبد الملك قال (١) :

وتفنتت في البلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

وجاء بعد عبد الحميد مئات ومئات من العلماء والفساخ تغلب عليهم لقب «كاتب» نكتفي بذكر بعضهم في ما يلي : ايوب بن محمد الكاتب (٢) وكان صديقاً لابي نواس (١٤٥-١٩٥ هـ) وخالد بن يزيد الكاتب الذي أنشد هذين البيتين في تقاحة كتب عليها الخليفة هرون الرشيد بغالية قال (٣) :

تقاحة خرجت بالدر من فيها أشهى الي من الدنيا وما فيها
بيضاء من حمرة غلت بغالية كأنما قطقت من خد مهديها

(١) محاضرة عن عبد الحميد الكاتب : محمد كرد علي (مجلة الجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٥١٣ فما بعد)

(٢) اخبار ابي نواس : لابن منظور المصري : سفر ١ صفحة ١٤٣

(٣) مروج الذهب : للمسودي : جزء ٢ صفحة ٢٢٣

وَمِنْ تَفَرُّدٍ فِي عَصْرِهِ بِحَسَنِ الْحَطِّ وَكَثْرَةِ النِّسْخِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ الشَّهِيرِ . فَانَّهُ
أَتَقَنَ الْكِتَابَةَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ الْيَمْنَى وَالشَّرَى . وَحَلَّتْ مِنْبَتُهُ عَامَ ٢٦٥ لِلْهِجْرَةِ .

وَحَدَّثَ أَبُو الْحُسَيْنِ عَلِيُّ بْنُ هِشَامِ الْكَاتِبِ قَالَ : « سَمِعْتُ الْوَزِيرَ أَبَا الْحَسَنِ يَقُولُ
لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ ثَوَابَةَ مَتَوَلِيَّ الدِّيْوَانِ فِي خِلَافَةِ الْمُقْتَدِرِ (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)
مَا نَصَهُ : مَا أَحَدٌ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ أَكْتَبَ مِنْ جِدِّكَ . وَكَانَ أَبُوكَ أَكْتَبَ مِنْهُ
وَأَنْتَ أَكْتَبَ مِنْ أَبِيكَ (١) .

وَمِنْ مَشَاهِيرِ الْكُتَّابِ أَبُو عَلِيٍّ الْحِصَارِيُّ الْكَاتِبُ عَاشَ فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ لِلْهِجْرَةِ .
وَقَدْ وُلِّيَ أَبُوهُ إِمْرَةً دِمَشْقَ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَصِمِ (٢) . وَقَدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ (٣١٠ هـ)
الْكَاتِبُ الْبَغْدَادِيُّ (٣) وَمُحَمَّدُ بْنُ بَحْرِ الْأَصْبَهَانِيِّ الْكَاتِبُ (٢٥٤ - ٣٢٢ هـ) . وَسَهِيلُ
بْنُ هُرُونَ الْكَاتِبُ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٣٨٠ لِلْهِجْرَةِ وَأَخُوهُ سَعِيدُ بْنُ هُرُونَ الْكَاتِبُ (٤٠٠ هـ)
وَكَانَا خَازِنَيْنِ لِبَيْتِ الْحِكْمَةِ فِي بَغْدَادٍ . وَالْمُسَبِّحِيُّ الْكَاتِبُ الْحَرَّانِيُّ مُؤَلِّفُ كِتَابِ
« السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ » (٤) تُوُفِيَ سَنَةَ ٤٢٠ لِلْهِجْرَةِ . وَأَبُو صَالِحِ النَّبْسَابُورِيُّ الْكَاتِبُ
(٣٨٨ - ٤٧٠ هـ) .

٢ - نَوَائِجُ الْكُتَّابِ فِي الْقَرْنَيْنِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ لِلْهِجْرَةِ

مِنْ اِشْتِهَارِهِمَا بِلِقَبِ كَاتِبٍ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ نَذَكُرُ : أَبَا عَبَّاسِ الْإِنصَارِيَّ
الْحُزْرَجِيَّ (٤٩٢ - ٥٦٩ هـ) الْكَاتِبُ خَازِنُ مَكْتَبَةِ الْحِكْمَةِ فِي مَرَاكِشَ . وَمُحَمَّدُ
السَّامِيُّ الْإِنْدَلِسِيُّ الْوَزِيرُ الْكَاتِبُ (٥) . كَانَ حَيًّا بَعْدَ السَّنَةِ ٥٥٠ لِلْهِجْرَةِ . وَعَلِيُّ

(١) مَجْمَعُ الْأَدْبَاءِ : لِأَبُو الْقَاسِمِ الرَّومِيِّ : جُزْءٌ ٤ : صَفْحَةٌ ٢٤٣

(٢) التَّارِيخُ الْكَبِيرُ لِأَبْنِ عَسَاكِرَ : مَجْلَدٌ ٤ : صَفْحَةٌ ١٧٢

(٣) مَجْمَعُ الْمَطْبُوعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَعْرُوبَةِ : صَفْحَةٌ ١٤٩٤-١٤٩٥

(٤) كِتَابُ الْفُطُونِ : لِأَخِي خَلِيفَةَ : مَجْلَدٌ ٢ : صَفْحَةٌ ٢٨١

(٥) بِنْيَةُ الرَّعَاةِ فِي مَطْبَعَاتِ الْقُتُوبِيِّينَ وَالنَّحَاةِ : لِجَلَالِ الدِّينِ السُّيُوطِيِّ : صَفْحَةٌ ١٥

بكري خادم مكتبة المدرسة النظامية في بغداد المتوفى سنة ٥٧٥ للهجرة .
وابا حامد عماد الدين الكاتب (١) الاصفهاني الشافعي (٥١٩ - ٥٩٧ هـ) .

واشتهر في القرن السابع : محمد ابن عبيد الله بن جبرائيل بن عبيد الله الشاعر
والكاتب (٢) . وابوالحسين بن دينار الكاتب الذي قتله التتوسنة ٦١٧ للهجرة (٣) .
وابو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب . واحمد بن يوسف الكاتب (٤) . وابو الفرج
بن الجوزي الكاتب الذي صرح في آخر عمره على المنبر قائلاً : « كتبت باصبعي »
هاتين ألفي مجلدة (٥) . وجمال الدين المعروف بابن الجمالة الكاتب .
وابن الوحيد وغيرهم .

ومن تفرّد بجودة الخط وكثرة النسخ في تلك الحقبة ابو عمرو بن قدامة
(٥٢٨ - ٦٠٨ هـ) . قال عنه الحافظ الضياء المقدسي في رسالته : « كتب الكثير
بخطه مثل (الخليعة) لابي نعيم و(الابانة) لابن بطة وتفسير (البغوي) و(المفتي) في
الفقه . وكان يكتب لاهله المصاحف وينسخ (الخرقي) للناس بلا اجرة . وكان
يقول : ربما كتبت في اليوم كراسين بالقطع الكبير (٦) »

واشتهر بعد ذلك احمد بن عبد الدائم (٥٧٥ - ٦٦٨ هـ) المولود في جبل نابلس .
ارتحل الى بغداد وكتب بخطه المبيع السريع ما لا يوصف لنفسه او بالاجرة .
وكان اذا تفرغ كتب في اليوم تسعة كراسيس . ولازم الكتابة مدة خمسين سنة
فبلغ مجموع ما كتبه في حياته ألفي مجلدة كما ورد في شعر له قال (٧) :

-
- (١) الخزانة الشرقية : حبيب زيات : جزء ٢٠ صفحة ٣٩
 - (٢) الخزانة الشرقية : حبيب زيات : جزء ٢٠ صفحة ٣٩
 - (٣) بغية الوعاة : صفحة ١١
 - (٤) صبح الاعشى : للفلقشندي : جزء ٢٠ صفحة ٦٤
 - (٥) نفع الطيب : جزء ٣٠ صفحة ٨٧
 - (٦) المدرسة العمريّة : بقلم محمد اسمد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٧ صفحة ٢٢ في ١
تموز ١٩٤٠)
 - (٧) نكات الهيان : صفحة ٩٨

عجزتُ عن حمل قرطاسٍ وعن قلمٍ من بعد إلفيَ بالقرطاس والقلمِ
 كتبتُ ألفاً وألفاً من مجلدةٍ فيها علومُ الوري من غير ما ألمر
 العلم زينٌ وتشريفٌ لصاحبه فاعملُ به فهو للطلاب كالعلمِ
 ما زلتُ أطلبه دهرى واكتبه حتى ابتليتُ بضعف الجسم والمهرمِ

٣ - نوابغ الكتاب في القرن الثامن فما بعده للهجرة

من اصحاب هذا اللقب في القرن الثامن : علاء الدين الكندي الدمشقي
 الكاتب ابن وداعة (٦٤٠ - ٧١٦ هـ) (١) . وابن الفوطي الصابوني الكاتب
 (٦٤٢ - ٧٢٣ هـ) والحازن البغدادي (٦٧٨ - ٧٤١ هـ) الكاتب . وابوزكريا بن
 سراج الكاتب . واحمد بن المنان الكاتب من علماء القرن الثامن للهجرة (٢) .

ونضم الى من تقدم ذكرهم : ابا عثمان سعيد بن حميد الكاتب (٣) . و ابا الفتح
 الاطرابلسي المقرئ الكاتب (٤) . وابن سعد الكاتب . والعمار الكاتب . و ابا القاسم
 عبيد الله النردشيري الكاتب . و ابرهيم بن احمد بن الليث الازدي اللغوي الكاتب .
 واحمد بن اسكندر الرومي الكاتب . ورشيد الدين الوطواط الكاتب . و ابا القاسم
 خلف الغافقي القبتوري الكاتب (٥) . ومحمد بن موسى الكاتب . و ابرهيم بن قاسم
 الكاتب . وعلي اللواتي الابياري الكاتب (٧٥٠ - ٨١٤ هـ) وغيرهم .

٤ - رؤساء الكتاب والمكتوبون

بين الكتاب من فاق غيره بالذكاء والتقن واناقة الخط وغير ذلك من مزايا

-
- (١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ ، صفحة ٢٨٦
 (٢) تخاف اعلام الناس في اخبار مكناش : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ١ ، صفحة ٢١٢
 (٣) الفهرست لابن النديم
 (٤) التاريخ الكبير : لابن عساكر : جزء ٣ ، صفحة ١٨
 (٥) نفع الطب : جزء ١ ، صفحة ٦٢٤

الكتابة . وقد أطلق عليهم الملوك والامراء نعوتاً خاصة ولقبوا بعضهم بلقب «رئيس الكتاب» تمييزاً له عن سائر اصحاب هذه المهنة . ومن اشهر رؤساء الكتاب « نذكر : ابا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري . و ابا محمد عبد المهيم بن محمد الحضرمي . وذا الوزارتين ابا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم (١) و ابا الحسن بن الجياب (٢) .

ويقال عند العرب لمعلم الكتابة «المكتب» . و اشهر من عُرف بهذا اللقب بل أقدمهم هو الحجاج بن يوسف (٤١ - ٨٩٥) وكان مكتباً بالطائف (٣) . و من عُرف بهذا اللقب ايضاً ابو ابراهيم بن محمد البديخوني المكتب (٤) و محمد بن اسماعيل المكتب في بغداد (٥) . و ابو الطيب محمد بن جعفر المكتب المتوفى سنة ٣٧٧ للهجرة (٦) .

و أطلق لقب «المكتبي» على صاحب المكتب او على المعلم في المكتب . و من اشهر بهذا اللقب محمد بن احمد المكتبي في حلب . المتوفى سنة ١١٧١ للهجرة . اشتغل اولاً باقراء الاطفال ثم عاشر العلماء ودرس عليهم (٧) . و من أطلق عليه اللقب عينه الشيخ ابراهيم المكتبي الحفني و تربته في باب النيرب بحلب (٨)

٥ - اشهر النساخ المسلمين في الازمنة السالفة

كما أطلق لقب «كاتب» على من امتاز بالكتابة أطلق كذلك لقب «ناسخ»

-
- (١) نفع الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٦١ (٢) نفع الطيب : جزء ٣ صفحة ٢٩٨
 - (٣) اقرب الموارد : لسعيد الشرتوني : جزء ٢ صفحة ١٠٦٤
 - (٤) معجم البلدان : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٩٤
 - (٥) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ٥٢
 - (٦) تاريخ بغداد : لابي بكر الخطيب البغدادي : جزء ٢ صفحة ١٤٦
 - (٧) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : لراغب الطباخ : جزء ٦ صفحة ٥٤٠-٥٤٤ و منظومة الشيخ وفا في اولياء حلب : رقم الشعر ١٩٩ للاب فرديند توتل
 - (٨) منظومة الشيخ وفا : رقم الشعر ١٧٨

على من تفرد بالنساخته . وأقدم من عرفه التاريخ بهذا اللقب إعلان الشعبي الذي كان ينسخ في «بيت الحكمة» للرشيد والمأمون والبرامكة (١) . وأشهر النساخ من بعده أبو جعفر الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) المؤرخ المشهور . فقد قيل انه قضى أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين صفحة (٢) . ثم أبو عبد الله الناسخ وقد ورد في «تاج العروس» انه نسخ بخطه ألف مصحف . وجاء بعده جمال الدين المزني القضاعي الذي نسخ المصحح المتقن كثيراً لنفسه ولغيره . وكان ذا مروءة وسماحة بإذلاً لكتبه (٣) .

أما أبو بكر الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة . فلم يكن يفارق النسخ بل كان يسود أو يبيض (٤) . وروى أبو جعفر القصري المتوفى سنة ٣٢١ للهجرة أنه ما جف له قلم مدة أربعين سنة لكثرة ما نسخه من الكتب (٥) . وبلغت كتب أبي العرب التميمي المتوفى سنة ٣٣٣ للهجرة ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب كلها بخط يده (٦) . وكان عبدالله بن سليمان الحارثي بارع الخط يكتب بيده اليسرى لتعذر اليمنى . ولم يكن يخرجها من ثوبه ولم يعرف احدٌ عذرها (٧) .

ويحكى عن الامام أبي عبد الله محمد الأزدي الحميدي الأندلسي تلميذ ابن حزم انه كان كثير الاجتهاد في نسخ الكتب . فلما ارتحل الى مكة صار ينسخ الكتب بالليل من شدة القيظ وهو جالس في إجازة ماء يتبرده به . وحلت وفاة الامام أبي عبدالله سنة ٤٩١ للهجرة (٨) . واشتهر بعده شجاع بن فارس الذهلي

-
- (١) الفهرست : لابن النديم : صفحة ١٠٥
 - (٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جزء ٢ صفحة ١٩٨
 - (٣) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٢٨٠-٢٨١
 - (٤) تاريخ مختصر الدول : لابن العبري : صفحة ٢٧٤-٢٧٥
 - (٥) معالم الايمان في معرفة اهل القبروان : للشيخ عبد الرحمن الدباغ : جزء ٣ صفحة ١١
 - (٦) معالم الايمان في معرفة اهل القبروان : جزء ٣ صفحة ٤٣
 - (٧) بنية الوعاة في طبقات الفويعين والنحاة : لجمال الدين السيوطي : صفحة ٢٨٣
 - (٨) نفع الطيب : جزء ١٠ صفحة ٣٧٥

(٤٣٠ - ٥٠٧ هـ) الذي نسخ بخطه من التفسير والفقہ ما لم ينسخه أحدٌ من النساخ .
وقلتما تُوجد بلد من بلاد الاسلام الا وفيه شيءٌ من خط شجاع (١) .

ومن كتب ونسخ كثيراً بين فلاسفة الاسلام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٦ للهجرة .
فانه عُني بالعلم منذ صغره الى كبره ولم يدع النظر ولا القراءة منذ عقل الاليتة وفاة
ابيه . وقيل انه سوّد في ماصنّف وقيد وألف وهذب واختصر نحو من عشرة
آلاف ورقة (٢) .

ومن اهل النسخ ايضاً ابو علي محمد بن الحسن بن الهيثم انتقل من البصرة الى مصر
وسكنها الى آخر عمره . فاقام في الجامع الازهر حيث اشتغل بالتأليف والنسخ .
وكان يبيع في كل سنة ثلاثة كتب من نسخته وهي : كتاب « اقليدس » وكتاب
« المتوسطات » وكتاب « المجسطي » . وكان ثمن تلك المخطوطات محدداً بمائة
وخمسين ديناراً مصرياً لا يقبل فيه مواكسة ولا معاودة قول . وكانت يجعلها
ابن الهيثم مؤونة حياته طول سنة وظلّ كذلك الى حلول أجله (٣) .

وجارى فخر الدين المارديني من تقدم ذكرهم من فلاسفة الاسلام في كثرة
النسخ وجودة الخط . فانه جمع في حياته خزانة كتب عظيمة نسخ اغلبها بخط يده
وغالى في ضبطها واتقانها .

ومن كبار النساخين مهذب الدين عبد الرحيم الدخواز المتوفى سنة ٦٢٨ للهجرة .
اليه انتهت رئاسة صناعة الطب في زمانه . وواظب على النساخة وكان خطه
منسوباً . وقد كتب كتباً كثيرة بخطه رأى منها ابن ابي أصيبعة نحو مائة مجلد
واكثر في الطب وغيره (٤) . ومنهم ابن الجوهري المحدث المتوفى سنة ٦٤٣ للهجرة .

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ ، صفحة ٣٦-٣٧

(٢) تاريخ فلاسفة الاسلام : تأليف محمد لطفي جمعة : صفحة ١٢٣

(٣) تاريخ فلاسفة الاسلام : تأليف محمد لطفي جمعة : صفحة ٢٢٧

(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : لابن ابي أصيبعة : جزء ٢ ، صفحة ٢٣٩

كتب ما لا يُوصَف كثرةً واستنسخ وأنفق ميراثه في هذا الشأن (١) . ومنهم عزّ الدين ابو اسحق ابراهيم بن محمود بن السويديّ . وُلد بدمشق سنة ٦٠٠ للهجرة ودرس الطب على الدخواز . وخدم المستشفى النوري الكبير ونسخ بخطه كتباً كثيرة (٢) .

وعُرِف في القرن السابع للهجرة كمال الدين الحلبي الشهير بابن العديم . صنّف تاريخاً حلب ووطنه سماه «بغية الطلب في تاريخ حلب» في اربعين مجلداً . وهو معدود كمؤرّخ صادق ثبت الرواية بليغ العبارة . وكان كمال الدين لا ينقطع عن النسخة والتأليف حتى في اسفاره . فاذا سافر جلس في محفة يحملها بغلان فينسخ ويصنّف او يطالع ويبيّض كأنه في مكتبه . وقد اختصر تاريخه المذكور بتاريخ آخر دعاه «زبدة الطلب في تاريخ حلب» ثم توفي سنة ٦٦٠ للهجرة (١٢٦٢ م) . وقد عُني الاوروبيّون بنقل هذا التاريخ الى اللغة الفرنسية وطبعوه لكثرة فوائده (٣) . وله مصنّفات شتى منها كتاب في «الحط» وعلومه وآدابه ووصف ضروره واقلامه على ما ذكر ابن شاكر في كتاب «فوات الوفيات» .

ومن اشتهر بالاجادة في نسخ الكتب ابو السعود بن الكازروني (٩٨٠-١٠٥٨) . كان له مهمة عظيمة في النسخ لم يضع اوقاته سدّي فجمع بذلك مكتبة نفيسة بخطه (٤) . ولم يقل شهرة عنه محمد بن عبد الوهاب الوزير الغسّاني الاندلسي الفاسي المتوفى سنة ١١١٩ للهجرة . فانه ظلّ مدةً طويلةً يكتب لمولاي اسمعيل سلطان المغرب الاقصى (١٠٨٢ - ١١٣٩ هـ) . وكان نجيباً في ذلك . وتولى نسخة جميع الاوامر السلطانية واستوفها دون ان يغرب عنه شيء منها على كثرتها . وكانت له سرعة في نسخة الكتب لا تُعرف لغيره (٥) .

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ ، صفحة ٢٤٢

(٢) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ٢ ، صفحة ٢٦٦

(٣) اطرب الشعر واطيب النثر : للاب شيخو : قسم ٢ ، صفحة ١٨٣-١٨٤

(٤) خلاصة الاثر : جزء ١ ، صفحة ١٤٤

(٥) رحلة الوزير في افكالك الاسير : المقدمة صفحة ١٠ وانحاف اعلام الناس : جزء ٤ ، صفحة ٦٦

وروى الجبرتي عن رضوان الفلكي مؤلف «الزيج الرضواني» انه خلف مصنفات وتحقيقات لا يمكن ضبطها لكثرتها . وقد كتب رضوان بخطه ما ينيف على حمل بعير من مسودات وجداول وحسابات وغير ذلك . كانت سكناه ببولاق وتوفي سنة ١١٢٢ للهجرة (١) .

٦ - اشهر النساخ المسلمين في الازمنة الحاضرة

من اجاد النساخة واتقنها وضبطها واكثر منها بين المسلمين في الازمنة الاخيرة نذكر :

اولاً : المكي بن المختار الحنّاش المقومه الجليل كان اوجد زمانه في الادب والانشاء نساخاً للكتب شديد المحافظة والضبط والانتقان . انتقاه مولاي عبد الرحمن بن هشام سلطان المغرب الاقصى لينسخ الكتب الخطيرة خزائنه السلطانية . وتوفي في حدود السنة ١٢٧٠ للهجرة (٢) .

ثانياً : الشيخ ابراهيم الاحدب (١٢٤٢ - ١٣٠٨ هـ) الذي سبق لنا وصف مكتبته بين المكتبات الاسلامية الخاصة ببيروت . فانه نسخ بيده ما اربى على الف كتاب ورسالة (٣) في جملتها نسخ شتى كتبها لفائدة تلاميذه كما روى لنا نجله حسين بك الاحدب . اخصها «حاشية الصبان» فقد نسخها اربع مرات متوالية . وكان الشيخ ابراهيم لا يكل ولا يمل من التأليف والنساخة ليله ونهاره (٤) .

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : للجبرتي : جزء ١ ، صفحة ٧٧

(٢) اغراف اعلام الناس : جزء ٤ ، صفحة ٣٠٩

(٣) فرائد اللآل في جمع الامثال : المقدمة : صفحة ٣ وتراجم مشاهير الشرق : لجرجي زيدان : جزء ٢ ، صفحة ١٦٦

(٤) الشيخ ابراهيم الاحدب والنهضة العلمية في القرن التاسع عشر : لفيليب دي طرازوي : صفحة ٤

ثالثاً : من ابرع النساخين في دمشق الشيخ رضا البابا (١٢٨٠ - ١٣٥٥ هـ)
أطلق على أسرته لقب « البابا » لان احد اجداده كان شيخاً للديباغين . وغير خاف
ان كل من تولى رئاسة حرفة الديباغين في دمشق لقب بالبابا . وأولع الشيخ رضا
منذ صباه بالخط فصار يتردد على المكتبة الظاهرية وينسخ نفائس مخطوطاتها . ومن
آثار براعته التي اطلعنا عليها كتاب « الشطرنج » وكتاب « ارسطوطاليس »
وكتاب في الطب وغير ذلك .

رابعاً : الشيخ محمد نعيان الوردى الحموي كان من اجود الخطاطين في القرن الثالث
عشر للهجرة . نسخ بيده على ما روى لنا ابن حفيده نحواً من مائة مصحف اتقن
زخرفة فوائدها وعناوين سورها . واشهر بعده ابنه الشيخ مصطفى في تنسيق
المصاحف الشريفة ونساخته التأليف القديمة . وبرع خصوصاً في كتاباته التاريخية
على الاضحة والجسور والمباني العامة مما يشهد له بالتفوق في صناعة الخط .

خامساً : اشتهر بالنساخته في المغرب الاقصى عبد القادر بن عبد الرحمن بن
عبد المالك بن زيدان . وكان وجيهاً ظريفاً لسيناً ذا خط بارع . نسخ كثيراً من
الكتب التاريخية والفقهية والادبية وتولى ايضاً نساخته كتب مهمة لحزارة مولاي
السلطان حسن (١٢٩٠ - ١٣١١ هـ) الذي اجازته على ذلك بأعطيات سخية .
وحدث وفاة عبد القادر عام ١٣٢١ للهجرة (١) .

سادساً : من انشط النساخين الدمشقيين الذين تعرفنا اليهم واطلعنا على آثارهم
محمد صادق فهمي ابن السيد امين المالح . تولى النساخته في المكتبة الظاهرية فكتب
بخطه الاثني عدداً وافراً من المؤلفات القديمة احيا بها ذكرى مصنفها . واقتنينا
لمكتبتنا الخاصة بعض مخطوطات قلمه نذكر منها : كتاب « التيسير والاعتبار
والتحرير والاختبار » مزداناً بنقوش جميلة . منه نسخة فريدة في المكتبة الظاهرية
المشار اليها . اما مؤلف هذا الكتاب فهو الشيخ محمد بن خليل الاسدي . وقد اهدينا

(١) اغاف اعلام الناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٤ ، صفحة ٢٥٣

المخطوط المذكور الى مكتبة دير الشرفة (١) في جملة ما اهديناه اليها من الكتب
المخطوطة والمطبوعة .

٧ - اشهر النساء المسلمات الكاتبات

في تواريخ العرب اسما فنة كبيرة من النساء الكاتبات اللواتي تفرّدن بالثقافة
العالية وجودة الخط وجمال الادب . ومن شهيراتهن عائشة بنت احمد القرطبية لم
يكن في زمانها بين حرائر الاندلس من عادتها علماً وفهماً وادباً وفصاحةً وشعراً .
مدحت ملوك الاندلس وخاطبتهم بما عرض لها من حاجة . وكانت حسنة الخط
كتبت المصاحف وماتت عذراء عام ٤٠٠ للهجرة (٢) وقد خطبها بعض الشعراء ممن
لم ترّضه فاعرضت عنه ثم كتبت اليه تقرّعه بهذين البيتين :

انا لبوة لكنني لا ارضي نفسي مناخاً طول دهري من أخذ
ولو اني اختار ذلك لم اُجب كلباً وكم غلقت سمعي عن أسد

وفي القرن السادس للهجرة برعت امرأة من فضليات النساء اخذت الخط عن
محمد بن عبد الملك تلميذ ابن البواب حتى انتهت اليها هذه الصناعة في عصرها . وهي
الشيخة المحدثّة الكاتبة «زينب» الدينورية الملقبة بشهدة بنت الابري . وعنها اخذ
امين الدين ياقوت وغيره من نوابغ الخطاطين (٣) . وقد اناقت الى التسعين من
سنيها وتوفيت ببغداد في ١٣ محرم ٥٧٤ للهجرة .

وذكر احمد ابن ابي خالد جارية كاتبة فقال في وصفها : «كان خطها اشكال
صورتها ومدادها سواد شعرها وقرطاسها اديم وجهها وقلمها بعض اناملها وبياتها
سحر مقلتها (٤) .

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٩٦

(٢) نفع الطيب : مجلد ٢ صفحة ٩٢-٩٣

(٣) رسالة الخط بقلم الشيخ احمد رضا : صفحة ١٩

(٤) محاضرات الادباء : لراغب الاصمالي : جزء ١ صفحة ٧

ومن شهيرات الكاتبات اللواتي كنَّ يكتبن للامراء نذكر : مزينة كاتبة
الامير الناصر (١) . ولبنى بنت عبد المولى وكانت كاتبة الخليفة المستنصر بالله وقيل
بل كانت جاريتَه . وكانت تكتب الخط الحسن وتجد قواعده . وكانت حاذقة
بصيرة بالحساب والعروض شاعرة ولدت في الاندلس وتوفيت سنة ٣٩٤ للهجرة .
وفي السنة ٤٨٠ للهجرة توفيت فاطمة بنت الحسن بن علي الاقرع . ولعل
كتبتها أم الفضل البغدادية الكاتبة التي جودوا على خطها . وكانت تقلد طريقة
ابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة . ويحكى انها كتبت ورقة للوزير الكندري
فنفحها بالف دينار .

ونضم اليهن الكاتبة «بادشاه خاتون» . وهي ابنة محمد بن حميد تابنكو . كانت
فاضلة اديبة شاعرة وكانت تكتب الخط الحسن . وقد كتبت من المصاحف
الشريفة ما لا نظير لها وقد جاء ذكرها في مرآة الادوار .

وسبقنا فروينا في غير هذا المحل نقلاً عن تاريخ ابن فياض «انه كانت بالربض
الشرقي في قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهن المصاحف بالخط الكوفي» .
فاذا كان ذلك كذلك فكم كان من النساء الكواكب في جميع ارباض قرطبة التي
بلغت ثمانية وعشرين ربضاً؟ (٢) .

(١) رحلة الاندلس للبتوني : صفحة ٣١

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥

الفصل السابع

مشاهير الكتاب والنساج النصارى

١ - نساخة الكتب في الاديار النصرانية

مثلاً اشتهر المسلمون بالكتابة والنساخة في عصورهم قام كذلك بين النصارى رهط عظيم من الكتاب والنساج خدموا الآداب العربية ورفعوا ألويتها شرقاً وغرباً. وتجلت هذا الامر بكل وضوحه خصوصاً في الصوامع والمناسك والاديار التي بلغ عددها الالوف في الاصقاع الشرقية. وكان الرهبان مع اعتكافهم على الزهد والقنوت ينصرفون ايضاً الى كتابة الاسفار الدينية ونساخة المؤلفات العلمية والادبية والفلسفية والتاريخية. فزينوا المكاتب العربية بأثارهم القلمية وأدوا للمعارف اعظم خدمة يرددها لهم التاريخ جيلاً بعد جيل.

وإلى اولئك النساك المجتهدين يرجع الفضل في صيانة كتب شتى كانت لولاهم مفقودة لا اثر لها. تلك حقيقة ناصعة أيدها مؤرخو جميع الاعصار والامصار. نذكر منهم البحاثة المصري محمد فريد وجدي قال: فلما جاءت القرون الوسطى كانت المكتبات القديمة بين يونانية ورومانية قد ادر كها العطب. فلم يبق منها الا عدد نزر من المؤلفات القديمة. فكان للكنيسة المسيحية الفضل في الاستيلاء عليها وحفظها بين جدرانها بعيدة عن الضياع... وما بقي من آثار الاقدمين لم يوجد الا في الكنائس المسيحية (١).

(١) دائرة معارف القرن العشرين: مجلد ٨، صفحة ٦١

٢ - نقل مخطوطات ثمينة من تكريت الى اديار مصر

وتأييداً لذلك نروي خبراً من الوف الاخبار يبرهن عن شديد حرص الرهبان على خزائن مخطوطاتهم . وهو ان مفارئة (١) السريان انشأوا في تكريت مركزهم مكتبة عامرة بالكتب والآثار الثمينة . غير ان الرزايا تتابعت عليها بتوالي القرون ولا سيما عندما غزا الطاغية تيمور سنة ١٣٨٧ م تلك النواحي . فأنزل فيها ضروب النكبات وأهدر دماء العباد ودمر كل ما صادفه فيها من مظاهر الحضارة والعمائر . واجهز على مكتبة تكريت المشار اليها فلم يسلم من مخطوطاتها وآثارها الا ما استطاع الرهبان اخفائه . وحذراً من ان تلفح الكوارث المتواصلة تلك البقية الثمينة نقلها رهبان تكريت وتجارهم على ظهور البهائم الى دير السيدة في وادي النظرون بمصر . وقد عانوا مشقات اسفار طويلة حتى أوصلوا تلك الذخائر الكتابية الى الدير المذكور الذي اعتادوا الاختلاف اليه منذ القرن السابع للميلاد . ونظراً الى خطورة تلك المخطوطات المكتوبة على الرقوق فان المتحف البريطاني اشترى سنة ١٨٤٢ طائفة منها بما وازى ثقلها ذهباً كما سبق القول في غير هذا الفصل .

٣ - ذكر بعض اديار الشرق وانتشار النساخ والوراقة فيها

لما كان يصعب احصاء النساخ في كل دير من الاديار المسيحية لسبب كثرتها تجتريء بالقول ان عدد تلك الاديار في مصر وحدها كما اثبت الانبا مكاربوس بلغ ستائة دير (٢) . واربي عددها في الرها على ثلاثائة دير (٣) سكنها تسعون الف

(١) المفارئة جمع مقربان وهو لقب ديني محصور في اللة السريانية البغوية يتمتع صاحبه بامتيازات دون البطريرك وفوق المتربوليت (راجع كتاب Primat d'Orient, par Paul Hindo, 1936)

(٢) كتاب « وادي النظرون » : صفحة ١٦١

(٣) صحح الاعشى : مجلد ٤ : صفحة ١٣٩

راهب (١) وبلغ عدد الدبورة في سوريا الجنوبية واطراف دمشق مائة واربعة وعشرين ديراً (٢). وورد في كتاب العفة للمؤرخ يشوع دناح البصري اسماء نيف ومائتي دير شيدها المسيحيون في الاقطار العربية والفارسية (٣). واحصى الاب شيخو ادياراً وافرة العدد في جزيرة العرب وغسان وحواران والغور وشبه جزيرة سينا والعراق والجزيرة وشرقي بلاد الشام وجبال طي (٤). وكان في طورعبدین شرقي مدينة ماردين اكثر من مائتي دير لم تزل آثار بعضها ماثلة حتى الآن. وجباً للايجاز نضرب صفحاً عن مئات من الاديار انتشرت واشتهرت في فلسطين وجبل لبنان وضواحي انطاكية وبلاد ما بين النهرين وغيرها.

وتعاقب في تلك الاديار ايام عزاها عشرات بل مئات الالوف من الرهبان العلماء يدرسون ويبحثون ويؤلفون ويتجمعون. ومنهم رهبان كانوا ينسخون الكتب وينقحونها وينمقونها ويضبطونها ويجلدونها. وكان فريق آخر يتعاطى بري الاقلام وأرباش الطير ويقوم بصنع الجبر المختلف الالوان. وفريق يهتس الرقوق والجلود والكاغد لكتابة المخطوطات وتزخرفها. ويشاهد حتى في يومنا هذا فئة من الرهبان الكلدان ينسخون الكتب ويجلدونها في اديارهم المجاورة لمدينة الموصل.

٤ - وصف انجيل منسوخ بحروف ذهبية وغلافه مدبج بالجواهر

من المقرر انه لو سلمت تلك الاديار العديدة بما اصحابها من الرزايا والكوارث على توالي الازمان لحوت خزائنها في يومنا ملايين من المخطوطات النفيسة التي لا

(١) تاريخ الهاوي : صفحة ١٠٨ (طبعة البطريرك افرام رحمانى في دير الشرفة)

(٢) فهرس مخطوطات المتحف البريطاني : رقم ٧٥٤ صفحة ٧٠١ و ٧١٤

(٣) كتاب العفة : سنة ١٩٠١ طبعة بيجان

(٤) انجيل القارىء الى مطالعة اسماء تلك الاديار في كتاب « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية »

للأب شيخو

تقدّر بثمان . وعلى سبيل المثال نذكر نسخة من كتاب الانجيل كبيرة الحجم قديمة العهد كتبت حروفها كلها بالذهب والفضة . وزينت صفحاتها من اولها الى آخرها بنقوش رائعة . وكان غلاف هذا الانجيل البديع مدبجاً بالجواهر واللاآلى . النفيسة . وقد وقع في يد الاتراك لدى استيلائهم على جزيرة قبرس فنقلوه الى القسطنطينية وانتزعوا الجواهر عن غلافه الثمين . وفي اوائل القرن السابع عشر حمله احداهم الى حلب فاشتراه بطريك السريان اغناطيوس بطرس الحامس (١٥٩٨ - ١٦٣٩) المعروف بابن هدايا وضمه الى مكتبته في حلب (١) .

٥ - البطريك يوحنا برشوشن ونسخه الكتب حين اسفاره

لسنا نرى ان نغض عن ذكر كاتب شهير تأبر على نسخ الكتب طول مدة رهبته وبطريكته معاً . وهو البطريك يوحنا برشوشن (١٠٦٤ - ١٠٧٣ م) . فقد اثبت عنه ابو الفرج ابن العبري انه كان متضلعا من العلوم المنطقية والبيعية ومولعا بالتأليف ونسخ الكتب . وبما يؤثر عنه انه كان اذا ارتحل من بلد الى بلد وجلس للاستراحة أخذ القلم وجعل يسود ويبيض . هكذا نسخ برشوشن ونقح كتباً وافرة ما برح بعضها مكنوزاً الى هذا اليوم في اشهر الخزائن ولا سيما في مكتبة لندن .

٦ - بعض النساخ في الكنائس والاديرة

اقدم ناسخ نصراني عربي عثرنا على كتابه له بخطه ه اصطفاي بن حكم المعروف بالرملي في سبق ماري خريطن (٢) . فانه نسخ بخطه مجلداً يشتمل على تأليفين

(١) الآثار الخطية للاب انطون رباط : صفحة ٣٨٨ و ٣٨٩

(٢) اعني : اصطفاي بن حكم الرملي في دير مار خريطن منشور الحياة النسكية في الديار الفلسطينية

لثودورس ابي قرة (+ ٨٢٠ م) اسقف حرّان الملكي . احدهما في عبادة الصور
وثانيهما في ملخص العقائد النصرانية . وقد انجزهما في كنيسة القيامة ببيت المقدس
سنة ١١٨٨ من سني الاسكندر (الموافقة للسنة ٨٧٧ م) . وهذا المخطوط محفوظ
منذ السنة ١٨٩٥ في المتحف البريطاني بلندن (١) .

ومن قدماء النساخ في الكنائس والاديار دويد (داود) العسقلاني الذي كان
يكتب على رقّ بالقلم الكوفي . ومن آثاره الباقية الى يومنا كتاب مواظ نسخه
في كنيسة القيامة بالقدس سنة ٦٤١٧ للعالم (الموافقة للسنة ٩١٠ م) . واشتهر بعده
بزمن قليل القس بقطر الدمياطي المترهب بدير سيناء . ولم يزل في خزائن هذا الدير
مخطوطات جمّة نسخها بيده . نذكر منها اناجيل الآحاد والاعباد مكتوبة بالعربية
واليونانية في حقلين متقابلين يرتقي عهد نساخها الى السنة ٣٨٥ للهجرة
(٩٩٥ م) (٢) .

وعُرف في القرن الثالث عشر للمسيح الراهب يمين الدمشقي الذي لم يتفرّد
بحسن الخط العربي فقط بل امتاز بفنّ التصوير ايضاً . ومن مخرجاته كتاب « العهد
العتيق » فانه نسخه سنة ١٢٣٦ م ووشاه بصورٍ بديعة (٣) . وكتاب « العهد
العتيق » هذا منقول عن النسخة الاصلية المكتوبة في انطاكية سنة ٦٥٣٠ للعالم
(١٠٢٢ م) .

وللراهب يمين الدمشقي بعض مخطوطات نسخها سنة ٦٧٤٥ للعالم (١٢٣٧ م)
وهي محفوظة في المتحف البريطاني (Catal. II N° 79) وهو ايضاً ناسخ تأليف
يوحنا الدمشقي المصونة في المكتبة الواتيكانية (Mai N° 79) سنة ٦٧٣١ للعالم

(١) الشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١٠١١

(٢) مكتبة دير سيناء : بقلم يس عبد المسح (مجلة الزامي الصالح بالاسكندرية مجلد ١ سنة
١٩٤٠ صفحة ٤٧-٤٩)

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النمرانية في المكاتب البطريركية : بقلم اغناطيوس كرتشوفسكي

(١٢٢٣ م (١)) . ويُقرأ في تلك المخطوطات اسم « سابا السبقي » مضافاً الى اسم
بيمين الدمشقي .

ونسخ الراهب صفرونيوس بن موسى ابن الحاج سليمان الطرابلسي « الرسالة
اللاهوتية التاريخية في مذاهب النصارى » في امطوش القيامة المقدسة سنة ١٦٤٢
ميلادية (٢) .

٧ - مشاهير النساخ النصارى في سالف الازمنة

متنٌ عُرف بين نساخ النصارى سوى الرهبان رجلٌ يقال له «الازرق» كان
يكتب لحنين بن اسحق شيخ تراجم الاسلام في صدر الخلافة العباسية . روى ابن
ابي اصبيعة انه رأى اشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخط الازرق . ورأى
بعضها عليه تنكيت بخط حنين بن اسحق وعلى تلك الكتب علامة المأمون (٣) .

ومن مشاهير نساخ النصارى ايضاً يحيى بن عدي السرياني البعقوبي
(٨٩٣ - ٩٧٤ م) كان كثير الكتابة ووجدت بخطه كتب كثيرة . قال ابن
النديم البغدادي في الفهرست : وقد عاتب يحيى بن عدي على كثرة نسخه .
فاجابني : من اي شيء تعجب في هذا الوقت من صبري ؟ قد نسخت بخطي نسختين
من التفسير للطبري وحملتها الى ملوك الاطراف . وقد كتبت من كتب المتكلمين
ما لا يحصى . ولعهدي بنفسى انا اكتب في اليوم والليله مائة ورقة واكل (٤) .
اما ابو الفرج الملقب المعروف بابن العبري فقد روى عن يحيى بن عدي قوله :

(١) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٨

(٢) المخطوطات العربية لكتبة الهرانية : بقلم الاب لويس شيخو : صفحة ١٤٨

(٣) طبقات الاطباء : جزء ١٠ صفحة ١٨٧

(٤) طبقات الاطباء : جزء ١٠ صفحة ٢٣٥

كان ملازماً للنسخ بيده . كتب كثيراً من الكتب وكان يكتب خطأ قاعدياً
بيناً في اليوم والليلة مائة ورقة وأكثر (١) .

واشتهر بعد يحيى بن عدي التكريتي ابو الحسن بن دنح الطيب الكاتب .
وعظم أمره في أيام بهاء الدولة بن بويه في اواخر القرن العاشر للميلاد (٢) . ونضم
الى هؤلاء الطيفوري النصراني الكاتب الذي كان يحسد حنين بن اسحق ووشى به
الى الخليفة المتوكل عداوةً وزوراً (٣) . واشتهر ايضاً ابو الفرج جرجس بن بوخنا
بن سهل بن ابراهيم البرودي (+ ١٠١٠ م) الذي نسخ الشيء الكثير من مؤلفات
الطب (٤) . ثم يحيى بن يحيى بن سعيد المسيحي (+ ١١٩٣ م) المشهور بابن ماري
مؤلف المقامات الستين . فانه كان كاتباً ماهراً نسخ بيده الشيء الكثير من كتب
الادب والطب وغيرها (٥) . وفي السنة ١١٩٥ م توفي صاعد بن هبة الله بن المؤمل
ابو الحسن النصراني الحظيري المتطبيب . وهو اخو الجائليق المعروف بابن المسيحي
كان ينسخ بخطه كتب الحكمة (٦) .

وذكر ابن ابي اصيبعة اسم الكاتب النصراني الشيخ موفق الدين بن البوري
الذي عاش في أيام صلاح الدين الايوبي . ومن كتاب النصارى في ذلك العهد ايضاً
والد المهذب المعروف بالحظير . وقد أسلم هو واولاده على يد اسد الدين شيركوه
بمصر . وما عم ان صرفه اسد الدين عن ديوانه فقال فيه ابن الذروي (٧) .

لم يُسلم الشيخ الحظير رُغبة في دين أحمد
بل ظنَّ انَّ محاله يُبقي له الديوان سرمد
والان قد صرفوه عن فدينه فالعود احمد

-
- (١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٩٧
(٢) اخبار العلماء باخبار الحكماء : صفحة ٢٦٣
(٣) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٢٥٢
(٤) عيون الانباء في طبقات الاطباء : مجلد ٢ صفحة ١٤٠-١٤٣
(٥) معجم الادباء : جزء ٢ صفحة ٤٠ (٦) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٤١٦
(٧) كتاب «القديم والحديث» بقلم محمد كرد علي : صفحة ٣٠٤

وفي القرن الثاني عشر امتاز موفق الدين ابن المطران (١١٩١ +) بجودة الخط وكثرة ما نسخه واستنسخه من الكتب فزّين بها خزائنه . وكان يشتغل في ديوانه دون انقطاع ثلاثة نساخ يجزل لهم العطاء وينفق عليهم بكل سخاء . قال ابن ابي أصيبعة : كتب ابن المطران بخطه كتباً كثيرة وقد رأيت عدّة منها . وهي في نهاية حسن الخط والصحة والاعراب... واكثر الكتب التي كانت عنده قد صححها واتقن تحريرها وعليها خطه بذلك (١) . ولا يخفى ان موفق الدين هذا كان طبيباً نصرانياً ثم أسلم .

وينبع في اوائل القرن الثالث عشر للميلاد سعيد بن ابراهيم بن بوخسا الجوخني المسيحي المتطبب الذي كان ينسخ الكتب لأمين الدولة موفق الملك المفضل ابن ابي غالب ابن الماوردي المسيحي الموصلّي . وكانت امين الدولة هذا رئيس الحكماء وعمدة الاطباء في عهده . ومن آثاره الكتابية « المعني في تدبير الامراض ومعرفة العلل والاعراض » نسخه سنة ٦٠٧ للهجرة (١٢١٠ م) وهذا المخطوط محفوظ في الخزانة المعاوية بزحلة .

وأنجبت مدينة قارة بضواحي دمشق نساخاً عديدين تسلسوا فيها حقبة بعد حقبة أشهرهم الاسقف مكاريوس (٢) الذي عاش في القرن الخامس عشر . وذكر الاب يوسف نصرالله ان الاسقف المذكور واولاده وحفدته ترجموا كتباً كثيرة الى اللغة العربية . ونسخوا بأيديهم كتباً جمّة كما تتضح حقيقة ذلك من فهارس مخطوطات برلين وباريس (٣) واوكسفرّد وغيرها .

وفي القرن الخامس عشر اشتهر في لبنان عددٌ جمّ من النساخ . قال البطريرك اسطفان الدويهي : «أحصينا اسما من كانوا من النساخ في ذلك العصر بمن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مائة وعشرة نساخ (٤) .

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء : جزء ٢ صفحة ١٧٨

(٢) مجلة الآثار الشرقية : السنة الثانية : صفحة ٣٥٦

(٣) Jos. Nasrallah : Manuscrits Melkites, Yabroud, Rome, page 85

(٤) الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل : للمطران يوسف الدبس : عدد ٤٢ صفحة ٢٤٧

واشتهر في القرن السادس عشر الاسقف جبرائيل بن استيئة الاهدني (١٥٥٦+).
فانه لم يكن ينقطع عن نسخ الكتب فكثرت جداً كتبه في كنائس لبنان . ولم
يدع كنيسة اجداده مار جرجس باهدن تحتاج الى شيء من الكتب . فكافاه
البطريرك موسى العكاري (١٥٢٤ - ١٥٦٧) بتوقيته الى الاسقفية (١) . وعرفنا
في القرن نفسه الحوري يوحنا الزطيمية بتوتج الذي ارتحل مع عائلته عام ١٥١٠
الى قبرس في جملة من اللبنانيين . وكان هذا الحوري عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من
الكتب البيعية وجرت له مباحث دينية مع الروم بقبرس وكانوا يسمونه
«كروكليا» لانه كان يعتمّ بعمامة زرقاء . وخلفه ابنه القس يوسف والشماس
الباس واشتهرا بنسخ الكتب البيعية (٢) .

وذكرت الصحف في القرن السابع عشر انطون الاهدني الصهوني تلميذ المدرسة
المارونية برومة . فانه نسخ بيده كتباً جمّة انحصاراً : اسفار العهد الجديد . وبعض
كتب ارسطو . واربعة كتب فلسفة ترجمها حنين بن اسحق عن اليونانية . وكتاب
في الحساب والجبر لمحمد شهاب الدين . ومقالة في الخطوط الهندسية لاحمد بن علي
وغيرها (٣) .

٨ - مشاهير النساخ النصارى في القرون الاخيرة

قام في القرون الاخيرة نساخ كثيرون أغنوا الخزانة الكتابية بما خطته اقلامهم
من الاسفار الوافرة العدد . ففي القرن السابع عشر اشتهر «ثلجة» اخو البطريرك
الملكبي افثيموس كرمه (١٦٣٤ - ١٦٣٥) وكان من كبار النساخين (٤) . فانه

(١) الجامع المفصل : عدد : ٥ صفحة ٣١٦ (٢) الجامع المفصل : عدد ٥٥ صفحة ٣١٦
(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصارية : صفحة ١٣٦-١٣٧ وتاريخ سوريا للطران
يوسف الدبس : مجلد ٧ صفحة ٣٤٤-٣٤٥ وتاريخ اهدن : تاليف سمان الخازن : جزء ٢
صفحة ١٤١

(٤) الرسالة الخالصة : مجلد ٧ سنة ١٩٤٠ صفحة ٤١٠ ورحلة من حماة الى حلب : للاب
لويس شينغو (المشرق : مجلد ٨ سنة ١٩٠٥ صفحة ٩٣٠)

ما عدا مخطوطاته العديدة في مكتبات الشرق قرأنا اسمه في فهارس مكتبة
او كسفورد والمتحف البريطاني. وجاء بعده البطريرك مكاريوس الثالث
(١٦٤٧ - ١٦٧٢) ابن الزعيم وابنه الارخدياقن بولس اللذان مرّ بنا ذكرهما في
فصل سابق. فقد احتوت بعض مكتبات الشرق والغرب كثيراً من مخطوطاتها
الانيقة.

وفي سلخ القرن السابع عشر اشهر رزق الله امين خان مطران حلب
(١٦٧٨ - ١٧٠١). الذي خلف مخطوطات شتى توميء الى سلامة ذوقه في
الكتابة وجودة الخط. نذكر منها مخطوطاً في دير الشرفة مزداناً بأربعين صورة
ملونة (١) نسخها المطران رزق الله عام ١٦٩٠. وفي مكتبة الدير نفسه مدرج
بديع طوله نحو اربعة امتار كتبه سنة ١٦٨٥ المطران رزق الله عينه (٢).

ومن خطاطي النصارى في الحقبة ذاتها بنو عطايا الاطباء بدمشق. وفي دار
الكتب الظاهرية كتاب «تذكرة داود البصير» نسخه ميخائيل بن يوحنا عطايا
الطيب سنة ١٠٨٢ للهجرة (١٦٧١ م) في ٨٨٠ صفحة. ومنهم ايضاً بنو
صروف وجباره واليازجي والميداني وغيرهم ممن خلفوا مخطوطات بديعة في خزائن
مختلفة (٣).

ومن نوابغ النساخ في صدر القرن الثامن عشر غريغوريوس نعمة قدسي
مطران دمشق (١٧٣٠ - ١٧٤٥) الذي كان ذا منزلة علمية بين مشاهير عصره.
أحكم فنون الخطابة والشعر والمعاني والبيان والمنطق فبرز في جميعها وصنف
كتباً في بعضها. وتفرّد بجودة الخط فتمتق بيده كتباً جمّة (٤). ونشاهد آثاره

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٠٠-١٠١

(٢) السلاسل التاريخية في اساقفة الارشبات السريانية : بقلم قليب دي طرازوي : صفحة ٣٤

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ : صفحة ٣٠٧-٣٠٨

(٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الارشبات السريانية : بقلم قليب دي طرازوي : صفحة

الخطية النفيسة في بعض مكتبات الشرق والغرب من جملتها مكتبة الشرفة
ومكتبة دير المخلص (١).

واشتهر أيضاً في القرن الثامن عشر ثلاثة كهنة في جبل لبنان هم : سر كيس
محاسب وعون نجم الغوسطاويان وجرجس افرام الباني . وُعرف بمدينة حلب
في القرن نفسه نسّاخ عديدون لا 'يشق' لهم غباراً في هذه الصناعة . نذكر منهم :
مكرديج بن عبد الاحد الكسيح . ويوسف بن جرجس صقال . وجرجس بن
الباس لبّاد . ولا سيما الحوري بطرس الدويهي تزيل حلب . فانه خلف شيئاً
كثيراً من خطوطه القاعدية البديعة رأينا منها في خزائن دير الشرفة وحدها اثني
عشر مجلداً ضخماً حوت ستة آلاف وثمانمائة وعشر صفحات كبيرة الحجم (٢)

ومن مشاهير النساخ في تلك الحقبة ايضاً : زخريا بن سليمان الخوام (٣)
والباس بن عبود الفتال الحلبي (٤) . وحنان بن عبد المسيح الانطاكي الحلبي (٥) .
ومبخائيل بن جرجس شحادة صباغ الدمشقي (٦) . والشدياق يوسف الذي قضى
حياته في النساخة وخلف ما لا يحصى من الكتب بخط يده (٧) .

وفي عهد الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) نبغ ميخائيل القماطي
بجودة الخط . فاتخذه امير لبنان المشار اليه خطاطاً له في قصر بتدّين . واطلق
عليه لقب « نقاش » لتفوقه بهذا الفن (٨) . ومن ذلك الحين غلبت كنية « نقاش »

-
- (١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣٤٤ و ٤٣٦ و ٥٠١ . الخ .
 - (٢) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١٢٦ و ٣٢٠ .
 - (٣) الذكري في حياة المطران جرمانوس فرحات : بقلم الاخ بولس مسعد : صفحة ١٠٨ .
 - (٤) مكتبة المتحف الاسيوي في لينفرااد : مخطوط رقم ٢١ وغيره .
 - (٥) مكتبة المتحف الاسيوي في لينفرااد : مخطوط رقم ١٩١ وغيره .
 - (٦) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ صفحة ٦٧٨-٦٨٠ .
 - (٧) محفوظات دير الشرفة : مجلد ٢٣ .
 - (٨) جريدة « لسان الحال » بيروت : مجلد ٦٤ عدد ١٣٨١٩ .

على سلاطة ميخائيل القماطي وقام منها ادباء كثيرون : اشهرهم مارون نقاش
منشى . اول رواية تمثيلية مسرحية باللغة العربية (١) .

وفي مطلع القرن التاسع عشر تفرّد عبد الاحد كرجي اللبناني بجودة الكتابة
ووفرة النساخة . وقد شاهدنا من آثار خطه الجميل ثمانية مخطوطات في الخزانة
المعلوفة بزحلة . منها ديوان « صفي الدين الحلبي » بحجم كبير واتقان غريب يقع
في ٥٣١ صفحة (٢) .

ومن اروع الكتبه في القرن المذكور : عبّود بك البحري (+ ١٨٤٣) الذي
كان رئيس قلم الانشاء في ديوان ولاية الشام ولدى محمد علي باشا الكبير مؤسس
الاسرة المالكة في مصر . وقد رثاه المعلم بطرس كرامة بقصيدة طويلة
قال فيها (٣) :

يا للمنيّة قد جازت* وقد غدّرت* ببدرِ فضلٍ له الآدابُ هالاتُ
مولى البراعة عبد الله من فقدت* بفقده وانقضت تلك البراعاتُ
يا طالما سكبت اقلامه* دوراً تقلدت بلائها الرسالاتُ
وكم على وجنة القرطاس في يده تفاخرت ببديع الخط لاماتُ
ما لاعت قلماً يوماً انا مله* الا نبت مشرفيات صقيلاتُ
لما اتى الناس ناعيه بكى أسفاً من البراعة دالات ومياتُ

ونبع رزق الله حسون الحلبي (١٨٢٥ - ١٨٨٠) بخطه الجميل ووفرة الكتب
التي نسخها . ولا تزال مخطوطاته الرائعة محفوظة في مكاتب روسيا وفرنسا
وانكلترا (٤) اذ كان يختلف اليها بلا انقطاع . وقد شاهدنا من مخطوطاته طائفة
كبيرة في المتحف البريطاني بلندن وفي خزانة الدكتور لويس صابونجي باستنبول .

(١) تاريخ الصحافة العربية : جزء ٢ صفحة ١٢٢ وتراجم مشاهير الشرق : جزء ٢ صفحة ٢٠٥

(٢) فهرس مخطوطات الخزانة العلوية : رقم ١٨٠٧

(٣) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : تأليف الاب لويس شيخو : صفحة ٣٣ وسجع

الجماعة في ديوان كرامة

(٤) تاريخ الصحافة العربية : تأليف فيليب دي طرازي : جزء ١ صفحة ١٠٩

واتحفنا نحن خزانة دير الشرفة بطرّف من الكتب والرسائل والصحف منقّحة
بخطّ يده (١) .

واعظم من برّز بجودة الخط ووفرة النسخ معاً العلامة الكبير الشيخ ناصيف
البيازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) اللبناني . فانه كتب ونسخ ما لم ينسخه احد من
معاصريه . وذهب بعضهم الى انه لو جمع ما نسخه البيازجي بخطّ يده في حياته لما
قلّ عن محمول جملين (٢) .

وممن يجدر ذكره بين النساخ كيرلس الخامس بطريرك الاقباط
(١٨٧٥ - ١٩٢٧) في مصر . فانه تهب في دير والدة الله المعروف بدير السيدة
بوادي النظرون وفيه تلقى العلوم في اواسط القرن التاسع عشر (٣) . وهناك
أكبّ على النساخة فتمت بخطه الجميل طائفة معتبرة من الكتب الدينية والقوانين
الكنسية والمقالات العلمية ومواعظ يوحنا في الذهب وغيرها . وقد جاءت تلك
المخطوطات آية في الظرافة والضبط لانه اعتنى بها اعتناءً فائقاً (٤) .

وعرف في اواسط القرن التاسع عشر الشيخ حبيب عواد من حصرون .
كان خطاطاً مشهوراً في عصره يجيد الخطين العربي والسرياني كما تدل عليه آثاره
الخطية الرائعة . وقد خلف منها الشيء الوافر في كنائس حصرون وفي بعض
كنائس شمال لبنان وفي خزانة سليم طريه من بسبعل (٥) .

وأنشط من عرفناه من نساخ القرن العشرين الحور فسقفوس اسحق ارملة
السرياني الذي جمع الى سرعة النسخ اتقان الخط وامانة النقل . وهو يجيد الكتابة
باليد اليسرى اجادته باليد اليمنى . ونشاهد آثاره الخطية في اغلب خزائن الشرق
وبعض خزائن أوروبا وأميركا . ولسنا نبالغ اذا قلنا انه لو حُصرت تلك الآثار
القلبية في مكان واحد لتألفت منها خزانة مخطوطات معتبرة . وفي شتاء السنة ١٩٠٩

(١) خطوط مشاهير الشرق : جمع فيليب دي طرازوي : جزء ١

(٢) تاريخ الصحافة العربية : جزء ١ صفحة ٨٨

(٣) بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : بقلم الحوري اسحق ارملة : صفحة ٤٧

(٤) مرآة العصر في تاريخ ورسوم اكابر رجال مصر : بقلم الياس زخورا

(٥) المشرق : مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥ صفحة ٩٣-٩٤

سافر الحوري اسحق الى القسطنطينية بخدمة البطريرك العلامة اغناطيوس افرام رحماني فنسخ له بعض مخطوطات ثمينة ونادرة من خزائن سراي «طوب قبو» . وكان ذلك من اصعب الامور لان الدخول الى تلك الخزائن لم يكن مباحاً الا بارادة سلطانية . وكان فيها من المخطوطات ما لم تنظره عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر (١) .

ومن اشهر بحسن الخط في العصر الحاسي واجاده ارتفوق فيه على خطاطي العصور الغابرة نذكر ثلاثة خطاطين هم : علام علام الذي ذاعت دفاتر خطه في جميع مدارس الشرق . وابراهيم بن فارس يزبك نشر بخطه قانون الايمان مكتوباً باربعة عشر شكلاً من المخطوط العربية البديعة في طبعها الخط الكوفي . وثالثهم نجيب بك هواويني خطاط ملك مصر وله آثار رائعة في هذه الصناعة (٢) .

٩ - شهرات الخطاطات النصرانيات

مثلما سجلنا اسماء فريق من الخطاطين اشتهروا بجودة خطوطهم يجمل بنا ان نسجل ايضاً اسماء فئة من السيدات احكمن صناعة الخط العربية . وقد شاهدنا هن آثاراً حجة تدعو الى الاعجاب ببراعتهم في هذا الفن . نذكر منهن اربع كاتبات عشن بحلب في اواخر القرن الثامن عشر وهن : مادلينا بنت البان ومريم الثابتة وسوسان بدوانية ومادلينا جروة شقيقة البطريرك اغناطيوس ميخائيل الثالث (٣) . وأنجب خطاطة عرفناها في عصرنا السيدة ليبة هاشم اللبنانية وقد تلقنت الخط عن الشيخ ابراهيم اليازجي ونجيب بك هواويني . وهي المنشئة والمريية والصحافية . وعندما عقد معرض المخطوط الدولي عام ١٩١٢ في لندن لفت خطها الرائع ابصار الزائرين من جميع الطبقات .

(١) تايين احمد زكي باشا المصري للبطريرك رحماني (مجلة الآثار الشرقية : مجلد ٤ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧١-٧٢)

(٢) المشرق : مجلد ٢٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٩٤٠-٩٤٢

(٣) محفوظات دير الشرفة : جزء ١٧ و ٢٣

الفصل الثامن

الضبط والاتقان في نسابة الكتب

١ - مزايا اهل الضبط والاتقان في النسخة

من القواعد الاساسية التي يعتمد عليها في الكتابة والنسخة حسن الخط وامانة النقل واتقان التقييد . فيطلب من كل كاتب وناسخ ان يكون ضابطاً ثقة وحريصاً على اللغة لبأني عمله صحيحاً كاملاً . وقد كان لكل خزانة كتب في سالف الزمان جماعة من النحويين واللغويين المشهورين بالضبط والتدقيق لا يتعاطون الا مراجعة المخطوطات وشكلها وتصحيحها وتنقيحها . وكانت مهمتهم تناول خصوصاً مقابلة تلك الكتب على نسخ كتبها المؤلف بيده او وافق على صحتها بخطه او اجازها احد كبار العلماء بجأته ازالة لكل شبهة والتباس .

والحكمة في ما سبق بيانه ان تكون جميع النسخ من الكتاب الواحد متشابهة متوافقة على حدٍ واحد طبقاً للنص الاصيل الذي وضعه المؤلف نفسه . لان النسخ اذا لم يكونوا من اهل الضبط والامانة في النقل أساؤا الى العلم فسخوا الكتب وشوهوها وحطوا من قدر مصنفها .

٢ - مشاهير اهل الضبط والاتقان في النسخة

في تواريخ العرب اسما طائفة معتبرة من اهل الاتقان والضبط نقصر على ذكر بعضهم في ما يلي :

فمن ضباط القرن الرابع للهجرة ابو الحسن الجنديسابوري المتوفى سنة ٣٠٤ للهجرة . روى عنه الدارقطني انه كان ثقة مأموناً ما رأى اصح من كتبه (١) .
وابو بكر العطار (٢٦٥ - ٣٥٥ هـ) كان ثقة اعرف الناس بالقراآت واحفظهم لنحو الكوفيين . قال عنه الداني الاصبهاني « عالم بالعربية حافظ للغة حسن التصنيف مشهور بالضبط والاتقان » . ومحمد ابو بكر اللوذري المتوفى سنة ٣٦٠ للهجرة . قال الداني ايضاً : « سكن اللوذري مصر وكان ضابطاً مشهوراً وثقة مأموناً » .

ومن اهل الضبط في القرن السادس ابو بكر الاموي المستوفي الاشيلي (٥٠٢ - ٥٧٥ هـ) وصفه ابن الزبير بقوله : هو احد المقرئين المحدثين المشهورين بحسن الضبط واتقان التقييد مع معرفته بالعربية واللغة والادب والغريب . واسماعيل الجواليقي (٥١٢ - ٥٧٥ هـ) ذكره ياقوت بقوله : كان امام اهل الادب بعد ابيه منصور بالعراق واختص بتأديب اولاد الخلفاء . وكان له معرفة حسنة باللغة ملىح الحظ جيد الضبط (٢) .

واذا انتقلنا الى القرن السابع رأينا ابا الحسن اللازدي القرناطي (٥٥٩ - ٦٣٩ هـ) لا يقل براعة ودقة عن تقدمه . قال ابن عبد الملك : كان ابو الحسن من اعيان مصره وافاض عصره تفنناً في العلوم وبراعة في المنثور والمنظوم . وكان ضابطاً عدلاً ثقة ثباتاً (٣) . وورد عن ابي بكر بن ابي الدودس انه كان من ابداع الناس خطاً واصحهم نقلاً وضبطاً . اشتهر بالاقراء واقتصر بذلك على الامراء ولم يحظ لسواهم (٤) . اما ابو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي البلسني (٥٦٥ - ٦٣٤ هـ) فكان يتكلم عن الملوك في زمانه بالجلال ويعبر عنهم بما يريدون في المحافل على المنابر . وكان خطه لا نظير له في الاتقان والضبط (٥) .

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ ، صفحة ٤٤

(٢) بغية الوعاة : صفحة ١٩٩

(٣) بغية الوعاة : صفحة ٢٦٤

(٤) نفع العليبي : جزء ٢ ، صفحة ٣٥٩

(٥) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ ، صفحة ٢٠٢-٢٠٣

ولا يقل شهرة عن سبق ذكرهم عبد الرحمن بن محمد الجزائري . فقد امتاز
ببراعة الخط وحسن الضبط امتيازاً أهله ان يُنظّم في سلك جهابذة الخطاطين في
القرن السابع . وحلت وفاته سنة ٦٢٩ للهجرة (١) .

وُعرف في القرن الثامن للهجرة بين اهل الضبط في النسخة ابو عبدالله المذحجي
الملثماسي (٦٨٨ - ٧٣٤ هـ) قال عنه صاحب تاريخ غرناطة : « كان كاتباً بليغاً عارفاً
بالقرآت بصيراً بالعربية ثقة ضابطاً حريصاً على العلم ... كثير العناية بالكتب » .
ومثله محمد ابو الغنائم اللغوي الذي وصفه ياقوت بقوله : « جيد الضبط صحيح الخط
معتمد عليه معتبر » (٢) .

ومن اهل الضبط في القرن الحادي عشر للهجرة محمد الاحساني المكي الشاعر
المشهور . ذكر علي بن معصوم وقال في وصفه : « هو من ابداع الناس خطاً واتقنهم
للكتب نقلاً وضبطاً كتب ما ينوف على الالف (٣) » . وكتب عبد اللطيف
المحبي (٩٦٦ - ١٠٢٣ هـ) كتباً كثيرة بخطه واعنى بضبطها . وأحصى بين ممتلكاته
التي وقفها في آخر حياته ما يقارب مائة وخمسين مجلداً معظمها بخطه وجميعها مصحح
بقلمه (٤) . وكان ابن الكيال الدهشقي احد الافراد في جودة الخط وحسن الضبط
وكان خطه في عهده اغلى من الجوهر . كتب انواع الاقلام على اختلافها وهو في كل
منها محسن مجيد واستاذ وحيد . ونسخ كتباً كثيرة تغالى الناس في ثمنها وانتهى
اليه الظرف في حسن التناسق . وجمع من خطوط اساندة الكتاب من العجم والروم
ما لم يجمعه غيره وحلت وفاته عام ١٠٢٧ للهجرة (٥) .

(١) تعريف الخلف برجال السلف : جزء ٢ صفحة ١٩٨

(٢) بغية الوعاة : صفحة ١٥

(٣) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٦٠ ؛

(٤) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ١٩

(٥) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٤٠٢

الفصل التاسع

التنافس في تأليف الكتب والاستكثار من نسخها

١ - تشويق الخلفاء والملوك الى التبسط في العلوم

لما اشتد ساعد العرب وقويت شوكتهم بعد احتلالهم اخصب الامصار الخاضعة لصولجان القياصرة وعرش الاكامرة انصرفوا الى العلم ونشروا الويتسه في طول البلاد وعرضها . واذا ألقينا نظرة عامة على سير المعارف بعد الفتح الاسلامي لمحنا حركة فكرية لم يألّفها العرب قبل ذلك التاريخ . فانهم بغد ما كانوا في حال الجمول والجمود والشقاء ايام بداوتهم اصبحوا متوغلين في الترف ورغد العيش وانشأوا حضارة خاصة بهم . وقد ساعدتهم على ذلك اندماجهم في شعوب عريقة في العمران والثقافة كالروم والفرس والسريان والاقباط . فأخذوا عن هؤلاء جميع ما كانوا محتاجين اليه من العلوم والفنون والصنائع وتلقنوها منهم واتقنوها وصنفوا الكتب الوافرة فيها .

ويعود الفضل في هذه النهضة الفكرية الى الخلفاء والملوك الذين مهّدوا للعرب سبل تحصيل المعارف . فانشأوا بيوت الحكمة وخزائن الكتب ودواوين الترجمة ودور الصناعة والمراصد الفلكية والمدارس والبيمارستانات الخ . وقد اسهبننا الكلام في الفصول السابقة عن جهود اولئك الملوك والخلفاء في تثقيف العرب وتهديبهم ورفع مستواهم الاجتماعي . وكانوا يقرّبون التراجمة مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وينتقونهم من العلماء والشعراء والاطباء والفلاسفة . وينشطونهم ويجزلون لهم الأعطيات ويرقّونهم الى اعلى المناصب .

ذلك كله كان اكبر مشوق للعرب الى التبسط في العلوم والتنافس في تصنيف الكتب على تنوع موادها واختلاف مواضعها . فكانوا يبنارون في مضار التأليف حتى انهم ما تركوا باباً من ابواب المعارف العقلية والنقلية الا طرّفوه ووضعوا فيه مصنفات مفيدة دلّت على نبوغهم وعبقريتهم .

٢ - استكثار المسلمين نسخ الكتب

وكانت تلك المؤلفات تُنسخ وتُستنسخ بكثرة عظيمة سداً لحاجة اهل العلم وإشباعاً لشهوة الاغنياء في جمع الكتب (١) . وانفق الخلفاء اموالاً طائلة في الاستكثار من الكتب وتعدّد نسخها . فكان سرورهم يزداد بازدياد عدد النسخ من الكتاب الواحد . بل كان يتضاعف ارتياحهم الى اقتناء غيرها وغيرها ولئن اجتمع لديهم منها اكثر من مائة نسخة وان شئت فقل اكثر من الف نسخة .

وابتائاً لذلك فان الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) حوى في خزائنه ثلاثين نسخة ونيفاً من كتاب «العين» للخليل بن احمد منها نسخة بخط الخليل نفسه . وذكر يوماً امام هذا الخليفة «كتاب الجهرة» لابن دُرَيْدٍ فاخرج منه مائة نسخة كانت محفوظة في خزائنه (٢) . وحمل اليه رجلٌ نسخة من تاريخ الطبري فاشترها بمائة دينار . ثم أمرُ خزّانه فاخرجوا من خزائنه ما يُنيف على عشرين نسخة من ذلك التاريخ احداها منسوخة بخط الطبري نفسه .

واستمر عدد النسخ المكررة يزيد بتوالي الازمنة في خزائنة كتب الفاطميين الى حين انقراض دولتهم سنة ٥٦٧ للهجرة . وكانت تشتمل حين ذلك على الف ومائتي نسخة من تاريخ الطبري وعلى الفين واربعمئة ختمة قرآن في ربعات بخطوط

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٥

(٢) خطط المقرئزي : جزء ٢ صفحة ٢٥٣-٢٥٤

منسوبة رائعة الحسن محلاة بذهب وفضة (١). ذلك ما عدا نسخاً مكررة من سائر الكتب التي كانت تتداولها ايدي المطالعين في مختلف مواضع العلوم.

ولم يكن العباسيون في بغداد والامويون في الاندلس والموحدون وبنو مرين في مراكش وبنو حمدان في حلب وبنو عمّار في طرابلس وغيرهم اقل عناية بالاستكثار من النسخ لكتاب واحد. لان التهاوت على التقاف العلم من كل صوب وناحية حملهم على الاستزادة من عدد النسخ تحقيقاً لاماني الطلاب وخدمة لاهل البحث. وبما يجدر بالذكر ان خزائن كتب جامع اصفهان احتوت على خمسمائة مصحف من المصاحف البديعة الخطوط المدبجة بالفضة والذهب. وروى سبط ابن الجوزي في تاريخه «مرآة الزمان» ان تلك المصاحف الثمينة التهننها النيران حين احتراق الجامع المشار اليه سنة ٥١٥ للهجرة. واحتوت مكتبة ابي نصر سابور بن اردشير في بغداد على مائة مصحف بخط ابن مقلة (٢).

وكان ابو عمرو الشيباني راوية واسع العلم باللغة ثقة بالحديث وقد جمع دواوين اشعار القبائل العربية وعنه أخذت. وذكر احد اولاده ان اياه جمع اشعاراً اكثر من ثمانين قبيلة. وكان كلما جمع اشعار قبيلة وخرجها للناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة. وحلت وفاته سنة ٢٠٦ للهجرة متجاوزاً المائة سنة (٣).

ومن امتاز بجودة الخط وكثرة النسخ والضبط والانتقان ابو الحسن علي بن عبدالله بن ابي هاشم المعري. فانه لزم الشيخ ابا العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) ونسخ له كتبه بأسرها. وكتب من كل منها نسخاً عديدة (٤).

ويروى عن الامير ابي علي حسام الدين المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة انه وقف

(١) خطط المقرئ: جزء ٢، صفحة ٢٥٤-٢٥٥

(٢) المجلة الزيتونية في تونس: مجلد ١، سنة ١٩٣٦، صفحة ٧٢

(٣) ابن خلدان: جزء ١، صفحة ٦٥

(٤) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: جزء ٤، صفحة ١١١

كتباً نفيسة من كل فن على المدرسة الشرفية الشافعية بجلب . وكانت بينها من كتاب « التنبية » وحده اربعون نسخة (١) .

ومن البراهين الصادقة على تعدد النسخ انه كان يجتمع في مجلس واحد من مجالس الحفاظ ازيد من عشرة الاف محبرة يكتبون الآثار النبوية ويعتنون بتنسيقها . بينهم نحو من مائتي إمام برزوا وتأهلوا للفتيا (٢) .

وكان غلاة الكتب ينهبون هذا النهج في تجهيز خزائهم الخاصة بنسخ مكررة للكتاب الواحد . ولنا على ذلك أدلة جمة رواها فريق من المؤرخين في الازمنة الغابرة . منها ان ابا العيث المعروف بالقشاش المغربي التونسي (٩٨١ - ١٠٣١ هـ) كان يميل الى اقتناء نسخ متعددة من كتاب « الجامع الصحيح » للإمام البخاري . واعتاد ان لا يقبل من احد هدية الا اذا كانت الهدية نسخة من الكتاب المذكور . فكان يتقبلها بترحاب ويقابل مهديا بضروب الاحسان . وقد جمع ابو العيث من نفائس الكتب ولا سيما المكررة منها ما لا يعد ولا يحصى . وحسبنا القول ان خزائنه اشتملت بعد وفاته على الف نسخة من كتاب البخاري المذكور . وفس على ذلك كتباً اخرى (٣) .

واحتوت خزانة شرف الدين زكريا الانصاري السنيكي (١٠٣٠ - ١٠٩٢ هـ) ثمانية وعشرين شرحاً على « البخاري » وثمانية عشرة نسخة من « طبقات السبكي الكبرى » واربعين تفسيراً (٤) وغير ذلك .

٣ - استكثار النصارى نسخ الكتب

وكان النصارى كالمسلمين يكثر من كتابة نسخ مكررة للكتاب الواحد

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ : صفحة ٤٦٠

(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٢ : صفحة ١٠١

(٣) خلاصة الاثر : مجلد ١ : صفحة ١٤٠-١٤٢

(٤) خلاصة الاثر : جزء ٢ : صفحة ٢٢٢-٢٢٣

ويحفظونها في خزائهم . ويحكى عن ثئودور يسط اسقف قورش (٤٢٠ - ٤٥٨ م) انه احرق مائتي نسخة بتيف من كتاب «العهد الجديد» المسمى «ذباطسرون» واحتذى به رولا اسقف الرها (+ ٤٣٥ م) (١) .

وفي اواخر القرن العاشر للميلاد اشتهر في دير قرتمين بطور عبدين راهب اسمه عمانوئيل تفرّد باتقان الحظ وزخرفة حروفه . فكتب على رق الغزال سبعين مجلداً من كتاب «العهد الجديد» وغيرها ثم وقفها للدير المذكور (٢) .

واستملت مكتبة دير الزعفران المجاور لماردن على نسخ متعددة من اسفار «العهد الجديد» مكتوبة بيد اشهر الخطاطين . وروى السمعاني ان يوحنا اسقف ماردن (+ ١١٦٦ م) كتب اربع نسخ كاملة من كتاب «العهد الجديد» بحروف ذهبية وفضية وحبسها على مكتبة دير الزعفران المذكور (٣) .

وفي مكتبة دير الشرفة بلبنان لهذا العهد مخطوطات شتى متعددة النسخ اتي على وصفها البجاعة الحورفسقفوس اسحق اوملة في كتابه «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» نذكر منها على سبيل المثال : تسعة وثلاثين مخطوطاً من كتاب «العهد القديم» وستة وثلاثين مخطوطاً من كتاب «العهد الجديد» واحدى وعشرين نسخة من كتاب «العلم اللاهوتي» للمعلم يوحنا كلودبوس واثنتي عشرة نسخة من «الصحيفة العبرية في الاصول المنطقية» وخمس نسخ من «الايساغوجي» للتولاوي الى غير ذلك من مخطوطات في المعاني والبيان والاصول النحوية .

والخلاصة ان المكتبات العربية شرقاً وغرباً حوت نسخاً متعددة من المخطوط الواحد تراحم رواد البحث على اقتنائها لاجل درسها ومقابلتها والمقارنة بين غشها وسميتها . فاقصرنا من ذلك كله على ما روينا به الكفاية .

(١) Rubens Duval : Littérature Syriaque, P. 41

(٢) المؤرخ الهاوي ٥٢ : ١١٣

(٣) المكتبة الشرقية : للسمعاني : مجلد ٢ صفحة ٢١٦-٢٢٦

الفصل العاشر

صناعة التجليد عند العرب

١ - اتقان العرب تجليد الكتب وتذهيبها وصنع قاطرها

لم يكن المجلدون اقل اتقاناً وتفناً في صناعتهم من الحطاطين والوراقين واهل الضبط . بل كانوا يتفخرون بحسن تجليد المخطوطات وتلوينها وتذهيبها باساليب مدهشة . ومن مشاهير المذهبين : البيهقي وابراهيم الصغير وابو موسى بن عمار وابن السفطي ومحمد وابن محمد ابو عبد الله الحزيمي وابنه (١) . وقد اصطنع هؤلاء لكل كتاب قمطراً خاصاً من جلد نفيس بجود الديبغ مزين بالتقوش . وكان بعضهم يصطنع قماطر المخطوطات من حرير موشى او خشب ثمين مرصع بالدرر (٢) وقاية لها من الغبار والعت والتلف لانها نادرة قليلة وفيها ثمرات العقول . والنادر تشد عليه يد الضنانه كي لا يناله سوء من عوادي الايام . وبهذه الوسيلة كانت تصان المخطوطات كنها بعض المقدسات . او كأن الناس كانوا يتعبّدونها بحفظها وتجليدها وخدمتها واماطة الاذى عنها .

وكانت الكتب قبل اختراع القماطر تلف في مناديل . واول من استعمل القمطر لحفظ المخطوطات محمد بن مسروق قاضي مصر . فكان اذا جلس للقضاء أحضر القمطر معه (٣) .

(١) الفهرست لابن النديم : المطبعة الرحمانية بمصر : صفحة ١٤
(٢) تحيل القاريء الى وصف مجموعة المخطوطات المرصعة بالدرر والجواهر في ترجمة سنان باشا وقد اثبتاها في باب « غلاة الكتب وهواة المكاتب » .
(٣) خزانة كتب جامعة ليدن في هولندا : المخطوط العربي : رقم ١٣٦٦ صفحة ١٢١-١٢٢

وكان القوم يتنافسون في تجويد صناعة تجليد الكتب تنافس غيرهم من سائر الامم في فن التصوير واتقانه . ذلك ان العرب قلّ ما انصرفوا الى فن التصوير لان الشرع الاسلامي حرّمه ونهى عنه . فأصبح لديهم مكروهاً او على الاقل غير مستحب . وقد اعتاضوا عن التصوير برسم اشكال طريفة وعلامات ظريفة ينسّقون بها كتبهم ويوشّون قماطرها . ولم يشذّ عن هذه القاعدة الا الخلفاء الفاطميون (٣٥٧ - ٥٦٧ هـ) في مصر .

٢ - مشاهير المجلدين

اول من اشتهر بصناعة التجليد في «بيت الحكمة» ببغداد كان ابن ابي الحريش في عهدي هرون الرشيد وابنه المأمون (١) . ويروى عن موفق الدين ابي طاهر انه كان يملك في «ساوة» مكتبة عامرة نادرة . وكان يتفاخر باتقان كتبها واجادة تجليدها والتفنن بالوانها . فكان كل صف من الكتب يختلف لونه عن لون الصف الاخر . فصّف احمر وصف اخضر وصف اصفر وصف اسود وهلمّ جرّاً .

وقرأنا في كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي اسماً بعض من اشتهروا بتجليد الكتب في سالف الازمنة . نذكر منهم ابا بكر محمد الزاغوني الذي كان استاذاً حاذقاً ولاقي منيّه عام ٥٥١ للهجرة (٢) .

ومن ضربت الامثال بهم في حسن تجليد الكتب محمد بن ابراهيم الكتبي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة . وقد بلغ الاسى اشده عند اهالي حلب يوم فقدوه لانه لم يقم بينهم مثله في اتقانه تلك الصناعة وتجويدها (٣) .

(١) الفهرست : صفحة ١٠

(٢) معجم البلدان : جزء ٤ : صفحة ٣٦٨

(٣) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ : صفحة ٢٤٨

وفي السنة ٩٣٦ للهجرة توفي في حلب ايضاً مظفر الكتي وكان من عادته ان يلف رأسه بمنزلة . وقيل له الكتي لانه كان يجلد الكتب عند باب الجامع الكبير . وكانت له خبرة تامة خصوصاً بتروميم المصاحف الرثة (١) .

ومن مشاهير المجلدين في القرون المتأخرة عبدالله الاهدل وكان سيداً كامل المعرفة بالعلوم . ذكره ابو بكر بن ابي القاسم في « نفحة المنديل » فقال : له همة عليّة في تحصيل فنون العلم وخطه في نهاية الحسن وكذا تجليده الكتب . ويحسن غير ذلك من الصناعات كالصباغة لجودة فيه وحدة ذكائه . وكانت وفاته في العشر الاربعين بعد الالف للهجرة (٢) .

وكان يحيى بن بعث من ارباب الظرف واللباقة يتعاطى صناعة الحبر الجيد وتجليد الكتب ومات سنة ١١٠٧ للهجرة (١٦٩٥ م) (٣) . ومنهم الشيخ عبد القادر التغلبيّ الدمشقيّ الذي كان يرتقى من عمل يده في تجليد الكتب ومات سنة ١١١٥ للهجرة (١٧٢٢ م) (٤) .

وفي السنة ١٢٠٢ للهجرة (١٧٨٧ م) توفي بالقاهرة الشيخ مصطفى بن جاد الذي اشتهر بتجليد الكتب وتذهيبها . ومارس هذه الصناعة عند استاذه احمد الدسوقيّ ثم فاقه ورجح عليه . ومهر بالتذهيبات ولا سيما النقوش بالذهب المحارل والفضة والأصباغ الملونة والجداول والطوايع والرسم وغير ذلك . وقد تفرّد الشيخ مصطفى بهذه المهنة الدقيقة بعد وفاة كبار المجلدين كأحمد الدسوقيّ استاذه وعثمان بن عبدالله عتيق ومحمد الشناويّ الخ (٥) .

وقد وقفنا على اسماء فريق من النصارى اعتنوا بتجليد الكتب في العصور

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٥ صفحة ٤٧٨

(٢) خلاصة الاثر : جزء ٣ صفحة ٣٦-٣٧

(٣) سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر للمراي : جزء ٤ صفحة ٢٣١

(٤) سلك الدرر للمراي : جزء ٣ صفحة ٥٩

(٥) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : الجبرتي : جزء ٢ صفحة ١٨٠

الغابرة نذكرهم تمة للموضوع وهم : الحوري بختا بن جرجس ويُعرف بابن الطبقة سنة ١٥٥١ للميلاد (١) . والراهب ملائوس سنة ١٦٦٣ (٢) . وتوما المارديني احد رهبان دير السيدة في وادي النظرون بمصر سنة ١٦٦٤ (٣) . ويوحنا بن الحوري كسّاب خادم كنيسة دمشق سنة ١٦٧٣ والحوري ابراهيم سموروا سنة ١٧٠٥ وميخائيل مراد سنة ١٧١٠ وجبرائيل ابن الحوري شلش والقسيس سمعان ابن الحوري موسى من دير مباس سنة ١٧٤٥ (٤) .

وورد عن فريق من احبار النصارى انهم جلدوا كتباً اثبتوا فيها اسماءهم . نذكر منهم ميخائيل السادس بطريرك الملكيين (١٥٣٤ - ١٥٤٣) المعروف بابن الصباغ . فقد قرأنا في مخطوط المتحف البريطاني بلندن ما نصه : « عرم هذا الكتاب ... ميخائيل البطريرك الانطاكي في ١٠ تشرين الثاني (٥) » .

٣ - اسواق المجلدين

عَدَد ابن المبرد الدمشقي المتوفى سنة ٩٠٩ للهجرة « ١٥٠٣ م » صنّاع دمشق وباعثها في عصره (٦) . ولما اتى على ذكر الوراقين ومجلدي الكتب المنع الى الحسبة عليهم في التقوى والجودة والاتقان وعدم الغش وعدم السفينة (٧) . وقد حصر

-
- (١) خبايا الزوايا من تاريخ ميدانيا : تأليف حبيب زيات : صفحة ٢٤٩-٢٥٠
 - (٢) خبايا الزوايا : صفحة ٢٦٤
 - (٣) بحث تاريخي عن السريان في القطر المصري : تأليف الحوري اسحق ارملة : صفحة ٥٠
 - (٤) خبايا الزوايا : صفحة ٢٥٤-٢٦٦
 - (٥) فهرس مخطوطات لندن : رقم ١٨٤
 - (٦) كتاب « الحسبة » لجمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الصالح الدمشقي المشهور بابن المبرد كما ذكرنا في المتن . وهو في سبع ورفات ضمت الى مخطوط بقلم المؤلف محفوظ في الخزائنة الظاهرية بدمشق .
 - (٧) المراد بالسفينة حشو التجليد بالسفاتج والاوراق .

ابن البرد اصحاب مهنة تجليد الكتب في سوق خاص بهم سماه « سوق المجلدين للكتب » عند باب البريد بدمشق (١) .

ومما يجدر بالذكر ان كبار المجلدين اعتادوا منذ العصور الغابرة ان ينقشوا اسماءهم على اغشية المخطوطات او السنة جلودها . وكانوا يفعلون ذلك تباهياً باتقان حرفتهم وتخليداً لذكورهم . وفي دار الكتب المصرية طائفة ثينة من جلود الكتب يُستنتج منها كيف تدرج فنّ التجليد في مختلف العصور السالفة (٢) .

وخلّف مؤلفو العرب كتباً في صناعة التجليد من اهمها مخطوط عنوانه « نظم تدبير التسفير » اقتناه احمد تيمور وضمه الى خزائنه التيمورية بالقاهرة (٣) .

٤ - نقل صناعة التجليد العربية الى اوروبا

لا ريب ان الحروب الصليبية كانت مثل ما كانت الاندلس وجزيرة صقلية وسيلة الى خلق علاقات بين المسيحيين والمسلمين او العرب والافرنج . وكان من النتائج العملية انتشار التجارة وتبادل المنافع بين شعوب الشرق وجمهوريات البندقية وجنوا وبيزا . هكذا تيسر نقل بعض الفنون والصناعات العربية الى اوروبا مما نضرب صفحاً عن ذكره اذ هو خارج عن موضوع بحثنا . انما نحصر الكلام في صناعة التجليد التي شاعت هناك على يد بعض المجلدين العرب الذين انتزحوا الى مدينة البندقية في القرون الوسطى . وعلموا البنادقة «اي سكان البندقية» اختراعات المسلمين وفنونهم . ومعروف ان البنادقة قد قلدوا صناعة التجليد الاسلامية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ثم نقلوا بعض اساليبها فنقلها

(١) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨

(٢) نبذة وجيزة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٧

(٣) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٦

عنهم غيرهم من صنّاع الغرب . فلا عجب ان وجدنا حتى الآن في بعض صناعات
التجليد الاوروبية اثرآ من الصناعة العربية وزخارفها (١) .

٥ - تأثير الفن القبطي في فن التجليد الاسلامي

ونختتم هذا الفصل بما دونه الدكتور محمد حسن امين دار الآثار العربية بالقاهرة
عن بعض التأثيرات القبطية في الفنون الاسلامية قال (٢) :

« ان صناعة تجليد المخطوطات بالجلود ذات الزخارف المضغوطة او البارزة
فن مصري الاصل . وقد نسب الجاحظ الفضل في تعريف العرب بالمصاحف او
الكتب المجلدة الى الحبش . ونحن نعرف العلاقة بين الحبش والقبط في الديانة ، وكل
ما يتعلق بالانجيل والفنون المسيحية الشرقية .

« وقد كانت زخرفة الجلد واستخدامه في تغليف المخطوطات صناعة زاهرة في
الفن القبطي . وعني بها الرهبان في الاديرة عنايتهم بنسخ الانجيل والكتب
الدينية .

« ونقل المسلمون عن المسيحيين العناية بتجليد القرآن بالجلود الفاخرة على نسق
الانجيل والكتب الدينية المسيحية . وكانت صناعة التجليد القبطية النواة التي
تطورت منها صناعة التجليد في الاسلام وازدهرت ، حتى بلغت في العصور
الوسطى غاية الجمال والانقان ، وقلدها الغربيون فيما أخذوه عن الفنون
الاسلامية

« وما ورثته صناعة التجليد الاسلامية عن الفن القبطي اللسان الذي عرفه

(١) اثر الفن الاسلامي في فنون الغرب بقلم الدكتور زكي محمد حسن امين دار الآثار العربية
في القاهرة (مجلة الرسالة : سنة ٣ صفحة ٦١٥-٦١٩) .

(٢) مجلة جمعة عي الفن القبطي : المجلد الثالث : سنة ١٩٣٧ صفحة ١٧-١٨

المجلدون في الاديرة القبطية ونقله عنهم المسلمون ثم الغربيون بعد ذلك . كما لا يزال
ظاهراً في كتب المصارف المعروفة باسم Pass Books

«ومهما يكن من شيء فان جلود بعض المصاحف القديمة المحفوظة في دار الكتب
المصرية تدل على تأثير قبطي . وهناك زخرفة نباتية قبطية الطراز محفورة على
احدى هذه الجلود وأخرى صليبية الشكل على جلدة أخرى تذكر بزخارف
موجودة على قطعة من النسيج القبطي محفوظة في فينّا

«ومما يؤسف له اننا لا نستطيع ان نتبّع تماماً تطوّر الفن في صناعة التجليد
حتى أصبحت صناعة اسلامية بحثة في القرن الرابع عشر . لان اكثر ما وصلنا من
جلود الكتب الاسلامية يرجع الى عصر المماليك . بينما لا نكاد نعرف شيئاً عن
هذه الصناعة في العصر الفاطمي على الرغم من ان كل شيء يحمل على القول بانها
كانت زاهرة متقدمة .»

الفصل الحادي عشر

اسواق الكتب

١ - اقبال العظماء على استنساخ المخطوطات وادخارها

ما كادت تنشأ خزائن المكتب في الاقطار العربية و'يقبل الملوك والامراء والاغنياء والادباء على احراز المخطوطات او استنساخها حتى مسّت الحاجة الى تأسيس اسواق لمشتراها وبيعها . وراجت تلك الاسواق خصوصاً في عواصم البلدان وفي اهم المدن . فاصبح اهل الادب يتنافسون في اذخار المخطوطات والكفّ عن بيعها عملاً بقول الشاعر :

هذا كتابٌ لو يباع بوزنه ذهباً لكان البائعُ المغبوناً
او ما من الحسرات انك آخذٌ ذهباً وتتركُ جوهرأً مكنوناً

ولم يكتفِ القوم بتهاقثهم على اكتناز الكتب بل راح فريق منهم يعتزون بما احرزوا من العلم في صدورهم . وبهذا المعنى أنشد الامام ابو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي قال (١) :

علمي معي حينما يمتّ يتبعني قلبي وعاءٌ له لا بطنٌ صندوق
ان كنتُ في البيت كان العلم فيه معي او كنتُ في السوق كان العلم في السوق

(١) الحضارة الاسلامية : تأليف احمد زكي باشا المصري : صفحة ٨١

٢ - اسواق كتب الاندلس

اشتملت الاندلس على اسواق شتى لبيع الكتب في سالف الزمان اشهرها سوق قرطبة . يؤيد ذلك ما اثبتته ابو الفضل التيفاشي بقوله (١) : جرت مناظرة امام المنصور يعقوب ملك المغرب بين الفقيه ابي الوليد بن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر . فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة . ما ادري ما تقول . غير انه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة لتباع فيها . وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية . ثم قال : قرطبة اكثر بلاد الله كتباً .

وحدثنا الحضرمي عن سوق الكتب في قرطبة قال (٢) : اُمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة اترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعثناء الى ان وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح . ففرحت به اشد الفرح وجعلت ازيد في ثمنه . فيرجع الي المنادي بالزيادة علي الى ان بلغ الثمن فوق حدّه . فقلت له : يا هذا ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغت الى ما لا يساوي . فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة قدّوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ! ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه . فقال لي : لست بفقيه ولا ادري ما فيه . ولكنني اُمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين اعيان البلاد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيت حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما ازيد فيه . والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرَجني وحملني على ان قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك . يُعطي الجوز من لا اسنان له . وانا الذي اعلم ما في الكتاب واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ونحول قلة ما بيدي بيني وبينه .

(١) نفع الطيب : جزء ١٠٠ صفحة ٧٥

(٢) نفع الطيب : مجلد ١ صفحة ٢١٥-٢١٦

٣ - اسواق كتب القاهرة

في اواخر القرن السادس للهجرة اشتهرت سوق الكتب في القاهرة بمصر . وكان سمسارها ابو الفتح ناصر بن ابي الحسن علي بن خلف الانصاري الوجيه المعروف بابن صورة واحرز في مهنته حظاً كبيراً . فكان يجلس في دهليز داره فيجتمع عنده يومي الاحد والاربعاء من كل اسبوع اعيان الرؤساء والافاضل ويعرض عليهم الكتب للبيع . ويظنون كذلك الى انقضاء وقت السوق . وحلت وفاة ابن صورة عام ٦٠٧ للهجرة (١٢١١ م) (١) .

وكانت سوق الكتب ايضاً بمدينة القاهرة تجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في اول سوق القناديل بجوار دار عمرو . وكان فيه بقية بعد السنة الثمانين والسبعائة للهجرة . ثم دثر فلا يُعرف موضعه . وروى ياقوت الحموي ان زقاق القناديل محلة بمصر مشهورة فيها سوق الكتب والدفاتر والظرائف كلابنوس والزجاج وغيره (٢) . وفي الزقاق المشار اليه كان مارستان الفسطاط الذي يُعد من اقدم المارستانات الاسلامية . وقد بُني في عهد بني امية قبالة دار عمرو بن العاص فاتح مصر (٣) . ولا يُعرف عنه اكثر من ذلك .

وكان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه بالقاهرة الى قيسارية كانت في ما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الاقمر وبين سوق الحصريين المجاور للركن المخلق . وكان يعلو هذه القيسارية ربيع فيه عدة مساكن فنضرت الكتب من نداوة اقبية البيوت وفسد بعضها . فعادوا الى سوق الكتب وما برح هذا السوق بجمعاً لاهل العلم يتوردون اليه . وقد اُنشِدَت فيه هذه الابيات (٤) .

-
- (١) الفاطميون في مصر : للدكتور حسن ابراهيم حسن : صفحة ١٤٠ وشرح مجالي الادب : للاب لويس شيخو : جزء ٤ صفحة ٦٢٠-٦٢١
(٢) معجم البلدان : لياقوت الحموي : جزء ٤ صفحة ٣٩٦
(٣) الانتصار لواسطة عقد الامصار : لابن دقاق الحنفي : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ
(٤) المخطوط القرظية : جزء ٣ صفحة ١٦٥-١٦٦

بجالة السوق مذمومة" ومنها مجالس قد 'تحتسب'
فلا تقرُّبن" غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتب
فهايك آله اهل الوعى وهاتيك آله اهل الأدب

وكان في القاهرة حتى القرن الثاني عشر للهجرة سوقٌ يقال لها سوق الكتبيين .
روى الجبرتي عن احمد السنبلاوي انه كان صالحاً عالماً عظيم اللجة درس الفقه في
الازهر وانتفع به الطلبة . وكان في الوقت نفسه يجتري بيع الكتب وله حانوت
بسوق الكتبيين . وقد توفي سنة ١١٨٠ للهجرة (١) .

٤ - اسواق كتب بغداد والبصرة وسائر مدن الشرق

اشتملت بغداد وسائر مدن العراق كالنجف وكربلاء والكوفة والبصرة
والموصل منذ ايام العباسيين على اسواق للكتب . لان اهل تلك الامصار كلفوا
بجمع المخطوطات ولم يزل حفتهم حرصاً عليها حرصاً غريباً .

وكانت البصرة في عهد الخلفاء العباسيين من اعظم حواضر الثقافة بل اكبرها
بعد بغداد عاصمتهم . وكان فيها للكتب ايضاً سوق يجتمع فيها العلماء والشعراء ولا
سيما النحاة واللغويين . واورد ياقوت الحموي ان الجاحظ بلغ من رغبته في
الاكتساب والمطالعة انه كان يكتب دكاكين الوراقين بالبصرة ويبيت فيها
للنظر (٢) . و اراد ياقوت بالوراقين تجار الكتب كما هو واضح .

٥ - اسواق كتب الشام ومراكش والقسطنطينية وغيرها

ان ما اثبتناه آنفاً عن اسواق الكتب في البلدان المتقدم ذكرها يصدق
بجذافيره في سائر الاقطار العربية . فان مدن الشام وتهامة واليمن وتونس والمغرب
الاقصى وغيرها كان لها اسواق للكتب رائجة ومعتبرة يؤمها رواد العلم من كل ناحية .
ومن اقوى الادلة على انتشار الكتب وازدهارها بين العرب ما دونه المهلب

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : لعبد الرحمن الجبرتي : جزء ١ صفة ٢٨٧

(٢) ارشاد الاربيب : لياقوت الحموي : جزء ٦ صفة ٥٦

لبنيه في وصيته قال : « يا بني لا تقوموا في الاسواق الا على زرّاد او ورقاق »
وقد عني المهلب بالزرّاد صانع الدرّوع المزرودة او بائعها ليدرّب بنيه على سماع
اخبار الحرب. وعنى بالورّاق تاجر الكتب ليتمرّنهم على تحصيل العلم في اسواق الكتب.
وروى ابن طولون الصالحيّ مؤرخ دمشق في كتاب له مخطوط عنوانه « المعزّة
في ما قيل في المزة » ما نصه : « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شبّاك
المدرسة الفاضلية بالكلاسة » (١) . وانتقل هذا المخطوط من خزانة الشيخ
عبد الرزاق البيطار بدمشق الى خزانة عيسى المعلوف بزحلة .

وكان بجوار محلّ مسجد او جامع كبير في اهمّ المدن العربية سوقاً تكثّر
فيها حوانيت باعة الكتب . ففي جوار الجامع الامويّ بدمشق مثلاً « سوق
الكتيبة » ويقال لها ايضاً « سوق المسكيتية » اذ يغلب فيها بيع الكتب والمسك .
وفي حاضرة مراکش بالمغرب الاقصى « جامع الكتبيين » وهو جامع اثري
عظيم يمثّل في هندسته حسن الذوق المغربي وبراعة الصنّاع المغاربة في اتقان الفن
العربي الجميل (٢) . وقد أطلق عليه هذا الاسم لان موقعه كان في سوق الكتبيين .
وفي هذا الجامع عينه ببيع بالملك سنة ١١٣٩ للهجرة مولاي محمد ابو عبد الله ابن
السلطان الشير ابي نصر اسمعيل سلطان المغرب الاقصى (٣) .

ووردت تحت الرقم العاشر من كتاب « نزهة الرفاق عن شرح حال الاسواق »
لابن المبرّد اسم « سوق الكتبيين » في باب البريد بمدينة دمشق (٤) .

وكان عبد اللطيف الكيلاني الحلبي المتوفى سنة ١١٩١ للهجرة يتعاطى في
قسنطينية بيع الكتب وصناعة الصحافة (٥) . وظلّ الى زماننا الحاضر في تلك
العاصمة سوقاً اسمه « دسّت » تباع فيه الكتب المخطوطة والمطبوعة . وقد اختلفنا نحن
اليه مراراً يوم يمتنا استنبول عام ١٩٠٠ وعام ١٩١٣ واشترينا منه مخطوطات نفيسة .

-
- (١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٣٠٧
(٢) الدور الفاخرة بجائر الملوك العلويين بفاس الزاهرة : لعبد الرحمن بن زيدان : صفحة ١٩٨
(٣) انحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس : لعبد الرحمن بن زيدان : جزء ٣ صفحة ١٥٤
(٤) المشرق : مجلد ٣٧ سنة ١٩٣٩ صفحة ١٨-٢٨ (٥) سلك الدرر : جزء ٣ صفحة ١٣٣

الفصل الثاني عشر

تجارة الكتب

١ - مشاهير تجار الكتب وسماسرتها

تمن أثرى من تجارة الكتب وأثرى معه كثيرون من الوراقين أحمد بن عباس الأنصاري في الأندلس في عهد مجدها. ويقال أنه جمع من الأدوات السلطانية والكتب ودواوين الشعر ما لم يجتمع عند ملك. وقد توفي قتيلاً بامر باديس أمير غرناطة عشية ٢١ من ذي الحجة سنة ٤٢٧ بالغاً الثلاثين من عمره (١).

وذكر السلفي في «معجم السفر» عن أحمد بن سرور بن سليمان السمسطاري قال: «رأيت بمكة سنة ٤٩٧ للهجرة قد كُفَّ في آخر عمره وكان عارفاً بالكتب وأقنانها. وحلت وفاة السمسطاري سنة ٥١٧ للهجرة في صعيد مصر (٢).

ومن كبار تجار الكتب في بغداد علي بن أحمد بن يوسف الشيخ زين الدين الأمدى. كان شيخاً مهيباً ذكياً صدوقاً فقد بصره في أوائل عمره. وتعمق في السن عديدة كالعربي والتركي والفارسي والمغولي والرومي. واشتهر خصوصاً بتجارة الكتب فاقنى منها ما لا يحصى ولا يوصف. وإذا طُلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض إلى خزائن كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته. وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطُلب منه المجلد الثاني مثلاً أو الثالث

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين الخطيب: جزء ١، صفحة ١٢٩-١٣١.
(٢) معجم البلدان: لياقوت الحموي: جزء ٥، صفحة ١٢٦ ونسكات الهجان: صفحة ٩٨

او الثامن عشر أخرجه بعينه واتى به . وكان لدى مسّه الكتاب يعرف ما اشتمل عليه من الكراريس . واذا أمرّ يده على صحيفة من الكتاب قال : عددُ اسطر هذه الصحيفة كذا . وفيها بالقلم الغليظ كذا . وهذا الموضع كُتِبَ بالحبر الاحمر او الاخضر او الاصفر وهلمّ جرأً . واذا اتفق ان الصحيفة الواحدة كُتِبَت بقلمين او بثلاثة اقلام مختلفة قال : « اختلف الخط من هنا الى هنا » من غير إخلال بشيء مما يمتحن به . وكان عارفاً بآثار جميع ما لديه من الكتب واحداً فواحداً . وتوفي في السنة ٧١٢ للهجرة (١) .

ونضيف الى من تقدم ذكرهم تاجراً رابعاً هو ابو عبدالله محمد بن بليش العبديّ الغرناطي . فانه تميّز في اول حياته بالتجارة في الكتب واثري بها (٢) لكنه أغنى جهة وأفقر جهة أخرى (٣) . وقد برع بالطب ومات سنة ٧٥٣ للهجرة .

وكان ياقوت الروميّ الحمويّ (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ و ١١٧٨ - ١٢٢٨ م) صاحب معجم البلدان ذا خبرة واسعة بتجارة الكتب . لانه تعاطاها بنفسه تعاطيه نساخة الكتب ايضاً (٤) .

ومن اكبر تجار الكتب عبد المؤمن بن العجميّ عز الدين توفي سنة ٧٤١ للهجرة . كان من بيوتات وجهاء حلب وأحرز من تجارته بالكتب مالا جماً . ولما اعتزل تلك الحرفة في اواخر عمره كان لا يخرج من منزله الا للصلاة او لعبادة مريض او لسوق الكتب (٥) .

واشتهر في القاهرة بتجارة الكتب الشيخ حسين المحليّ المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة . وضع مصنفات جمّة وكان يكتب نأليفه بخط يده ويبيعه لمن يرغب فيها .

(١) نكات الهيان : صفحة ٢٠٦

(٢) تعريف الخلف برجال السلف : لاني القاسم محمد الحفناوي : جزء ١ صفحة ١٠٢

(٣) نفع الطيب : جزء : صفحة ٦٤

(٤) معجم الادباء : جزء ١٦٠ صفحة ٢٢٥ واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٣٦٩

(٥) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ صفحة ٥٧٣

وكان له حانوتٌ بجوار باب الازهر لبيع الكتب . وكانت بعثني بتسفيرها الى المتعاملين معه في شتى الانحاء (١) .

٢ - تجار الكتب الجوالون

اشهر في جميع العصور ادياء جوالون يتنقلون من بلد الى بلد يشترون المخطوطات او يبيعونها . وقام فريقٌ منهم بطوي الصحاري ويجوب الاقطار حاملاً المخطوطات على ظهره كأنه سوق كتب طوافة . فكانوا كيفما ذهبوا او حينما حلوا يروجون سوق الادب بترويج سلعهم الكتابية . وقد اورد المؤرخون طرفاً مستلحة من نوادر اولئك التجار الجوالين في الازمنة الغابرة . نذكر منهم محمد العبدلي الذي عاش في مصر ونواحيها في القرن الثاني عشر للهجرة . وكان ينقل منها الكتب الى الاطراف فيحصل له كل يوم نادرة ويظفر كل يوم بفائدة (٢) .

وعرفنا في العصر الحاضر رجلاً دمشقياً اسمه نور الدين المسويّ ارتحل مشياً على قدميه الى العراق وبلاد فارس وما بين النهرين . ثم عاد منها الى سوريا يجمع المخطوطات ويتاجر بها . وقد تعاملنا معه تعاملنا مع كثيرين من تجار الكتب وكبار سماسرتها ومروجيها في الامصار العربية . فاحرزنا منهم مخطوطات ثمينة زيننا بها مكتبتنا الخاصة . وبتنم نخطر ببالنا من اولئك التجار الجوالين نذكر : يوسف البان سر كيس وامين الخانجي في القاهرة . وحدي السفرجلاني في دمشق . والشيخ مصطفى النعسان في حماة وغيرهم .

٣ - دلالو الكتب

مثلما اشهر في اسواق الكتب تجار وسماسرة اشهر فيها كذلك دلالون اصابوا

(١) عجائب الآثار في التراجم والاخبار : لعبد الرحمن الجبري : جزء ١ صفة ٢٢٤

(٢) سلك الدرر : جزء ١ : صفة ١٢٥

من مهنتهم حظاً وافراً . وفي جملة من اطلعنا على اخبارهم من اولئك الدلائل اسمعيل بن احمد بن ابى الاشعث السمرقندي (٤٥٤ - ٥٣٦ هـ) . وُلِدَ في دمشق الشام ثم خرج عنها الى بغداد واستوطنها الى ان مات . وكان مع اتقانه الاصول وصناعة النسخ ماهراً متوفقاً في دلالة الكتب . ويروى عنه انه عثر يوماً على «صحيح البخاري» وعلى «مسلم» في مجلدة لطيفة كتبها السوري بخطه فاشتراها الدلال اسمعيل السمرقندي ثم باعها بعشرين ديناراً . قال السمرقندي : « وقعت علي هذه المجلدة بغير اخط لاني اشتريتها وكتابا آخر معها بدينار وقيراط . فبعت ذلك الكتاب بدينار وبقيت لدي هذه المجلدة بغير اخط . فتوفقت في بيعها بعشرين ديناراً (١) . وعرف بعد السمرقندي بوقت قصير دلال آخر لا يقل عنه شهرة ومهارة وحظاً . وهو ابو المعالي سعد بن علي الخزرجي الوراق الحظيري الذي توفي بتاريخ ٢٥ صفر سنة ٥٦٨ للهجرة في مدينة بغداد (٢) .

٤ - كساد تجارة الكتب

على اشتهار اسواق الكتب بالرواج في سالف الاحقاب لم تخل من عهد اصاب تجارتها فيه الكساد والجمود . وقد عم هذا الكساد جميع البلاد العربية بعد انحلال دولها واستفحال امر المتغلبين عليها كالترك والاكراذ والاتراك وغيرهم . ومن البلية ان اولئك المتغلبين كانوا على جانب عظيم من الجهالة والغباوة . فسرى داؤم هذا الويل الى اصحاب البلاد الذين غلبوا على امرهم وظنلوا احقاباً يتسكعون في دياجير الجهل . والى هذا الجهل وذلك الكساد يشير احد الشعراء بقوله (٣) .

الدهر دهرُ الجاهلين وأمرُ اهل العلم فاترُ
لا سوق أكسد فيه من سوق المحابر والدفاترُ

(١) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣٠ صفحة ١٠

(٢) خزانة الادب : بغدادية : جزء ٣ صفحة ١١٨

(٣) نفع الطيب : المغربي : جزء ١ صفحة ٣٩

الفصل الثالث عشر

عباد المخطوطات وعناقرها

١ - صرعى المخطوطات

سبق لنا في فصول شتى من مؤلفنا هذا ان روينا اخباراً وطرفاً عن حرص العظماء والعلماء على خزائن كتبهم وعلى ما حوثه من صنوف الذخائر. وبلغ ذلك الحرص منهم مبلغاً يقصر عن وصفه يراع كاتب ولسان خطيب. لان الضئالة بالكتب ملكت عقولهم وجعلتهم يتعبدون لها ولا يستأثرون من الدنيا بسواها ولا يهجنس في ضمائرهم هاجس غير ما ليلهم ونهارهم.

زد عليه ان بعض اولئك الصرعى التهبوا بمخطوطاتهم عن كل عزيز فنقتلوا لها وصرفوا اوقاتهم بينها لا يفارقونها الا لتناول الطعام او الرقاد او لقضاء حاجة ضرورية. بل حدا الشغف فريقاً منهم على ان يضعوا كتبهم حولهم او فوق صدورهم عندما يرقدون كأنها حرز يتعوذون بها. ولا غرابة اذا عدّم القوم «صرعى الكتب» لفرط المشابهة بينهم وبين صرعى الغرام كقيس بن الملوّح العامري الملقب بمجنون ليلي وغيره.

٢ - مناحة الوزير القفطي على مخطوط ينقصه

طالعنا حكايات غريبة عن صرعى الكتب تقتصر منها على حادثة جرت بحلب للوزير جمال الدين القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة. ومؤداه ان الوزير عثر يوماً على نسخة مليحة من كتاب «الانساب» لابن السمعاني ينقصها مجلد من اصل خمسة مجلدات فاشتراها. وظلّ يبحث عن المجلد الناقص ويطلبه من مظاته فلم يتوفق

الى الحصول عليه . واتفق ان بعض معارفه اجازوا بعد ايام بسوق القلانسيين فصادفوا اوراقاً من المجلد المفقود احضروها اليه . فاستدعى جمال الدين صانع القلانس واستطلعه طلع المجلد المذكور فقال له القلانسي : « اشتريته في جملة اوراق وعملته قوالب للقلانس » فحزرت القفطي حزناً مفرطاً وتخلت عن الذهاب الى مركز وزارته في قلعة حلب . واقام في داره مناحة استدعى اليها ندايين وندابات فساحوا على المخطوط المفقود وندبوه كما يُندب ميت عزيز . وتوافد الاعيان والاصدقاء والادباء يعزّون الوزير عن مصابه ويسرّون الغم عن قلبه (١) .
ومن هذا القبيل قول الشريف ابن طباطبا :

إذا أفجع الدهر امرءاً بخليبه تسلى ولا يسلى بفتح الدفاتر

٣ - الشيخ الصفار يدعو في المسجد على حابس كتبه

روى البيهقي نقلاً عن ابي عبدالله الحافظ قوله : « رأيت الصفار في مسجده واقفاً في المنبر ورافعاً كفيه الى السماء . وسمعتُه يصرخ مبتهلاً الى الله سبحانه بهذه العبارة . اللهم انك تعلم ان ابا العباس المصري ظلمني وخانني وجلس عني اكثر من خمسمائة جزء من اصولي . اللهم لا تنفعه بتلك ولا بسائر ما جمعه من كتب الحديث ولا تبارك له فيها ! »

ويُعدّ الشيخ الصفار من كبار صرعى الكتب لفرط ضنائه بها وحرصه عليها . فكان لا يغشى مجلساً الا ندب مخطوطاته المساوية وناح عليها نوح الشكلى . وكان لا ينفك ليله ونهاره بدعو على ابي العباس الذي سلبه اياها عنوةً وظلماً . وقد استجاب البارئ تعالى دعاء عبده الشيخ الصفار لتقاوة سريره وصلاح سيرته فانقم له من ابي العباس المصري غريمه فرثت احواله بعد اليسر وساءت عاقبته (٢) .

(١) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ : صفحة ٢١٤

(٢) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣ : صفحة ٧٢

الفصل الرابع عشر

سخط الرهبان واصهار النصارى على سراق مخطوطاتهم

حرص ائمة النصارى كل الحرص على مخطوطات مكنتاتهم في الاديار والكنائس . فكانوا يعتبرونها من اثن ما خلفه لهم اسلافهم ومن اثن ما سطرته افلامهم او ملكته يمينهم . فسخطوا السخط كله على سارقها واستنزلوا العنة الله وغضبه على من تجاسر فسلبها او باعها او قطع منها ورقة واحدة . وكل من طالع ما كتبوه او علقوه بيدهم في خاتمة المخطوطات من عبارات اللعنة والحرم وغضب الله وما شاكل ذلك اعتونه الرعدة واستولت على فرائصه القشعريرة . والى القراء تنفأ من تلك العبارات نقلناها عن مخطوطات الملل النصرانية كالنساطرة والملكيين والموارنة والسريان والاقباط وسردناها كما يلي :

١ - الراهب سيسين النسطوري يستنزل على سارق كتابه جميع

لعنات السماء والارض

عاش الراهب سيسين في القرن التاسع للميلاد كما يستفاد من مخطوط ثمين في المتحف البريطاني بلندن موسوم بالرقم ١٣٨، ١٢٠ وقد نسخه سيسين في نيسان السنة ٨٩٨ للميلاد وذلك في عهد اوينيس الثالث جاثليق وبطريك النساطرة (٨٩٢ - ٨٩٨ م) ويعقوب اسقف حران والرقعة . ويشتمل هذا المخطوط على شرح كتاب العهد القديم شرحاً لغويّاً طبقاً لطريقة علماء اليهود المعروفة عندهم وعند الفرنج

بلفظة **Massore** ويراد بها ضبط قراءة الكتاب المقدس ونقد عباراته وإحكام حركاته وسكناته .

ففي المخطوط الموما إليه يُقرأ ما يلي : « نسخ هذا الكتاب الشماس سيسين بن دودون . كل من يأخذ هذا الكتاب ليقرأه أو ينقل عنه أو يقابله ولا يرده الى صاحبه يكون محروماً من الثالوث الاقدس المجيد . ويكون وارثاً برص حجري ومشتقة يهوذا الدافع . وفضيحة سيمون الساحر . وتكون السماء فوقه نحاساً والارض تحته رصاصاً . وتنصب عليه جميع اللعنات المكتوبة في سفر تثنية الاشرع » .

اما اللعنات الهائلة التي اشار اليها الشماس سيسين فقد اثبتها موسى الكليم في سفر تثنية الاشرع (٢٨ : ١٥ - ٦٨) وتتلخص (١) بما يلي : ان لم تطع كلام الرب الهك فتكون ملعوناً في المدينة وملعوناً في الصحراء . ويكون ملعوناً سلكاً ومعجناً . وملعوناً ثمر بطنك وثر ارضك ونتاج بقرك وقطعان غنمك . وتكون ملعوناً انت في دخولك وملعوناً في خروجك . يضربك الرب بالسلّ والتمى والبوداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . وتكون سماًؤك التي فوق رأسك نحاساً والارض التي تحتك حديداً . وتصير جنتك مأكلاً لظير السماء ووحش الارض . يضربك الرب بقروح مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع مداواتها . ويضربك الرب بالجنون والعمى . وبقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين من اخمص قدمك الى قمة رأسك . تلد بنين وبنات فلا يكونون لك بل يذهبون سبياً »

وختم سيسين كلمته بقوله : « ارتعش ايها الشقي من كلمة الله الهائلة واياك ان تحتقرها (٢) » .

(١) راجع النص الكامل لهذه اللعنات في «تثنية الاشرع» وهو السفر الخامس من توراة موسى

(٢) مخطوط لندن : رقم ١٢٠١٣٨

٢ - مرقص اسقف صيدنايا يفرز سارق مخطوطاته من الله ومن

الرسل والمجامع السبعة

تولى مرقص اسقفية صيدنايا في السنة ١٤٤٦ ثم ارتقى الى الرتبة البطريركية عام ١٤٥١ باسم ميخائيل الثالث (١٤٥١ - ١٤٥٦). وقد علق بيده على مخطوطة محفوظة في المكتبة الوانكانية (١) ما نصه : «هذا التبرودي المبارك (المنسوخ في السنة ١٢١٥ م). قد استعاره الاب المتنيح الى رحمة الله تعالى السيد المطران كبير يوحنا مطران حمص . وهو من كتب دير القديس خريستوفوروس بصيدنايا . ثم بعد ذلك توجه الحقيير في رؤساء الكهنة مرقص اسقف صيدنايا بعد نباح المذكور بسنين مقدار خمسة عشر سنة الى مدينة قارا المعمورة ... وألزمهم باحضاره وخلّصه بعد جهد لصيدنايا . وهو وقف مؤبّد وحبس محرّم على الدير المذكور . فما لاحد سلطان من الله تعالى يخرجّه عن الوقفية بوجه من الوجوه ولا يبيعه ولا يوهبه ولا يقايض فيه . ومن تجاسر وفعل غير ذلك كان محروم مفروز من مجد الله تعالى ومن سبع المجامع المقدسة ومن الرسل الاطهار . ومن تجاسر وقطع الورقة كان له نظير ذلك . وكتبه مرقص الاسقف الحقيير بتاريخ ثامن شهر اذار المبارك سنة ٦٩٥٤ لكون العالم (١٤٤٦ م) والسبح لله دائماً .»

٣ - حبيس لبناني يدعو على سارق دير مار شيقون محظ

يوضاس اللعين

قرأنا في مخطوط ماروني نسخ سنة ١٥٢٢ ما حكايته : «وكان الفراغ من هذا الكتاب في حبيس قزحيا مار بيشاي الى يوفان من قرية مترت . وهو برسم القديس مار شيقون . . ومن غيرهم يكون تحت الحرم . ومن اخذهم يكون القديس

(١) المكتبة الوانكانية : رقم ٧٤ ورقة ١٢٤

خصمهم يوم القيامة . ويصكون حظه مع يوحنا اللعين الذي قال اصلبه اصلبه
آمين آمين (١) .

٤ - مطران ملكي يدعو على - ارق كتبه بلعنة لا تفارقه

اول من عرف من اساقفة حلب بعد القرن العاشر غريغوريوس ابن فضيل .
تولى الاسقفية على الروم الملكيين عام ١٥٤٠ وتوفي في حماة سنة ١٥٨٢ وقرأنا له
في كتاب «قنداق» ما نصه : لجد الله دائماً . الحقيير في رؤساء الكهنة غريغوريوس
خادم كرسي حلب واعمالها . هذا القنداق المبارك برسم الاخ القسيس عبد المسيح
ابن المرحوم فضل . ابن نجار من معمورة كفر بهم . وهو ساكن يومئذ بمجروسة
حلب . وهو يسأل كل من قرأ هذه الاسطر الحقيرة يدعو له بغفران الخطايا يكون
له نظير ذلك من الواعد الصادق في مواعيده والسيح لله دائماً . لعن الله سارقه .
لعنة لا تفارقه . ابن مراح ترافقه . ساكنة في خوانقه . وهي والله توافقه (٢) .

٥ - بطريرك ملكي يهدد بالحرم واللعنة من يحرق كتبه او يسرقها

كان البطريرك افيموس الثاني (١٦٣٤ - ١٦٣٥) المعروف بابن كرمة من
أكتب احبار زمانه ومن افضل تراجمه عصره . انصرف خصوصاً عندما كان مطراناً
في حلب على الروم الملكيين الى الترجمة والتأليف . فخلّف آثاراً كتابية تشهد له
بطول الباع (٣) . وكان ضئيلاً بمخطوطاته ومؤلفاته الى درجة متناهية حتى انه
تهدد كل من يحرقها او يسرقها بالحرم واللعنة وغضب الله عزّ وجلّ . وقد قرأنا له

(١) فهرس مخطوطات دير الشرفة : صفحة ١١٩-١٢٠

(٢) الشرق ٣٦ سنة ١٩٣٨ صفحة ٤٦٧

(٣) الملكيون : بقلم الحوري اسحق ارملة : صفحة ٦٨ و ٦٩

في مقدمة مخطوطة من مؤلفاته ما يلي (١): «كل من مسخها بعد وفاتي وغير منها حرفاً واحداً فليعلم انه جماعة الارثوذكسين ناكر وجاحد . ويكون محروماً مفروزاً من مجد الله . وعلى من يطابقه اللعنة والغضب من الله !» .

وعلق البطريرك اتييموس نفسه على انجيل حبسه على دير القديسة كاترينا بالقدس الشريف ما نصه (٢): «... . فما لأحد سلطات من الله تعالى ان يغيره من الوقفية المذكورة بوجه من الوجوه او بجيلة من الجيل . او يبيعه او يشتريه او يقايض فيه او يخلسه لنفسه . او يخرج عن الوقفية المذكورة . الى ان يرث الله تعالى الارض وما عليها وهو خير الوارثين . وكل من تعدى ما حددناه وخالف ما سطرناه كائناً من كان يكون ذلك الانسان غضب الله ورجزه عليه وعلى هامته وجسده وساير تصرفاته . ويكون محروم مفروز من السبعة مجامع المقدسة . ومن ثم رئيساء كهنة الدنيا . ومن في انا الحقيق اتييموس البطريرك الانطاكي وساير المشرق تحريراً في اوائل شهر اذار سنة ٧١٤٣ لآدم (١٦٣٥ م) ولربنا الحمد دائماً» .

٦ - مطران ماروني يرشق بالحرم الصارم من يسرق مكتبته

كان المطران جرمانس فرحات (١٦٧٠ - ١٧٣٢) الماروني ضيقاً كل الضيقة بمخطوطات مكتبته التي جمعها في حلب وانفق عليها مالاً وافراً . وبذل في اقتنائها وتنظيمها جهوداً جبارة . واعتبر كل من اختلس كتاباً منها خارجاً على عهد الصدق والامانة . وبرهاناً على ذلك فقد صدر لائحة مخطوطاته بهذا التهديد الديني المرعب قال : «والذي يسرق كتاباً من المكتبة يكون بيته مثل صادم

(١) مخطوطة مكتبة بكركي في لبنان : رقم ١٢٨

(٢) خزانة مخطوطات القبر المقدس بالقدس الشريف : رقم ٢٧

وعامورا (١) وبذهب رزقه وينهدم بيته وتشهد اولاده من ابواب الخلائق .
والويل له ان رضي لنفسه ذلك (٢) .

٧ - مطران سرياني يهدد من يختلس كتب ديره بجبل بوضاس في عنقه

قام بين احبار السريان في القرن الثامن عشر السيد ديونوسوس بشاردة جزرجي
مطران حلب (١٧٢٥-١٧٥٩) وحضر المجمع اللبناني عام ١٧٣٦ في دير لوزبة (٣) .
وخلف آثاراً علمية ونسخ بخط يده كتباً جمّة اطلعنا على بعضها . وكان المطران
بشاردة مولعاً بكل الولع بمخطوطاته وبما جمعه من التأليف في خزانة ديره . ويتضح
لقارئنا فرط اهتمام هذا المطران للتحاظر الكتابية . ومن بقايا آثار قلمه كتاب
«فصول الاناجيل» في ٢٤٦ صفحة كبيرة قرأنا في آخره : «تمّ في ٢٥ كانون
الاول سنة ١٧٣٧ مسيحية على يد احقر الرؤساء وارذلهم ديونوسوس برحمة الله
تعالى مطران حلب . وقد كتبه له ولذاته . ويرجو من كل اخ ينظر فيه ام يقرأ
معانية ان يطلب له الرحمة والغفران من الخالق الرحمان لانه يجد مثل ذلك (٤) .
وقف دير مار افرام في جبل لبنان لطائفة السريان . كل من يخرجه عن الوقفية
غضب الله وحبل بوضاس في رقبته . وكل من اختلس كتاباً من هذا الدير وما
رده ... تكون اللعنة عليه مثلثة مع حبل بوضاس (٥) ...»

٨ - مطران قبطي يدعو على من يبيع او يرهن او يسرق كتبه بنصيب سيمون الساحر ويهوذا الاسخريوطي

حوت المكتبة الشرقية ببيروت مخطوطاً نفيساً اشتمل على كتاب «ابصمودية»

-
- (١) سفر التكوين : اصحاح ١٩ عدد ٢٤ (٢) المشرق : مجلد ١٧ سنة ١٩١٤ صفحة ٢٤
(٣) المجمع اللبناني : طبعة جونية سنة ١٩٠٠ صفحة ٢٩ و ٥٥٧
(٤) السلاسل التاريخية في اساقفة الابرشيات السريانية : صفحة ٢١١
(٥) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة : صفحة ٣٧ و ٣٨

يتضمن تسابيح وانشيد وفقاً للطقس القبطي. وقد اضيفت اليه ترجمة عربية. وفي
دائره اطار ذو ثلاثة خطوط ملوثة. نسخه مرقص بن تادرس ودخل بملك
كنيسة الاسكندرية سنة ١٥٥٠ للشهداء (١٨٣٣ م). وقد وقعه صرابامون اسقف
الاسكندرية اليعقوبي بخطه وكتب عليه ما نصه بحروفه: «بسم الله الرؤوف
الرحيم. المجد لله في العلو. وفقاً مؤبداً وجبساً مخلداً على القديس ماري مرقص
الانجيلي بنغر الاسكندرية لا يُباع ولا يُرهق ولا يُخرج من البيعة المذكورة.
وكل من خترجه يكون محروماً ويكون نصيبه مع سيون الساحر ويهوذا
الاسخريوطي و... الكافر. وكل من قطع هذه الورقة الله يقطع يمينه بسيف من
نار. والذي يحفظه على وقفيته يكون محالاً مباركاً. والله الشكر دائماً ابداً
سرمدياً (١).

الفصل الخامس عشر

الكتب المنعارة

١ - اقوال الشعراء في اعارة الكتب واستعارتها

افرط فربق من جماعي الكتب كل الافراط في شدة تشبثهم بها ومحافظتهم عليها . فطفقوا يجربونها عن الابصار لا يرخصون لكائن من كان ان يطلع عليها او يسخ شيئاً من مضامينها . وقد ضرب بعضهم الامثال في استنكاف جماعي الكتب من اعارة كتبهم واستنكارها على طلابها . وخالفهم قوم فحبذوا اعارة الكتب ليعم الانتفاع بها . فقال محمد بن خليفة الشاعر التونسي في هذا المعنى :

ألا يامستعير الكتب دعني فان إعارتي للكتب عارُ
فمحبوبي من الدنيا كتابٌ وهل بإصاح محبوبٍ يعارُ (١)
وعارضه شاعر آخر بهذين البيتين :

ألا يا مالكا للكتب عرّها فما باعارة للكتب عارُ
لئن احببت في الدنيا كتاباً فمحبوب الأجرة قد يزارُ
وقد شطر احدهم البيتين الاولين بقوله :

«ألا يامستعير الكتب دعني» فلي في الكتب يا صاح افتخارُ
إذا سلواي كانت في كتابي «فان اعارتي للكتب عارُ»

(١) اغاف اعلام الناس : جزء ٤ ، صفحة ٢٧١

«محبوبي من الدنيا كتاب» ومجدي الكتب لا مجدي انجار
فهل شاهدت مجداً بيع بخساً وهل ابصرت محبوباً بعار»
وقال غيره :

لا تعين كتاباً واجعل العذر جواباً
واقبض الرهن عليه ان في الرهن صواباً (١)

فقابله شاعر ثان بهذه الابيات :

عز الى الخل كتاباً لا يك العذر جواباً
واترك الرهن عليه لا ترى في ذا صواباً
فاذا خالفت قولي انت ضيعت الصحاباً

وانشد احدهم هذين البيتين في استعارة الكتب ووجوب ردها الى صاحبها
قال :

اذا استعرت كتابي وانتفعت به فاحذر وقيت الردى من ان تغيره
واردده لي سالماً اني شغفت به لولا مخافة كتم العلم لم توره

وكان احد علماء دمشق يملك نسخة من شرح ابن ابي صادق لكتاب «منافع الاعضاء» تأليف جالينوس منقولة عن خط المؤلف . فكتب اليه الطبيب عز الدين بن السويدي قصيدة يلتمس ان يعيره المخطوط المذكور وقد اورد فيها هذين البيتين :

وامن فانت ابو المكارم والعلی بكتاب شرح منافع الاعضاء
فاعارة الكتب الغربية لم تول من عادة العلماء والفضلاء

(١) عن مخطوط بدار الكتب الثمانية في بيروت عنوانه «شرح الترتيب» دون ناسخه في اوله البيتين الواردين في المتن

ونضيف الى ذلك ابياتاً بعث بها الحاج حسين بيهم البيروتي الى صديقه الشيخ مصطفى الدجاني مفتي بافا. وقد عرض الناظم فيها بحاجته الى استقراض مخطوطة كتاب «العقد الفريد» كانت في الخزانة الدجانية قال :

المعي في زوايا فكره كم خبايا لمعت للمستفيد
 قد جمعت كل علم مثلها جمع الاشياء قرآن مجيد
 فلماذا ارتجى من فضلكم ان اردتم قرصة العقد الفريد
 ثم من بيروت بسعى مسرعاً فيوافيكم قريباً في البريد
 واجعلوا عهدي كصك عندكم وحسين شكره دوماً يزيد

وراح بعضهم يستنكر بيع الكتب او هبتها . ومن هذا القبيل طالعنا بيتين في مخطوطة عنوانها «البردة الشريفة» نسخت عام ١٢٧٢ للهجرة . وقد اهديناها الى دار الكتب اللبنانية . واليك نص البيتين (١) :

تم بجهد وتعب بعد عناء ونصب
 فلا تسع ولا تهب ولو بوادٍ من ذهب

٢ - استعارة المخطوطات والكتب بين الدول

اعتادت الدول اعارة المخطوطات النادرة والمطبوعات الثمينة واستعارتها تسهلاً لأبحاث العلماء ودروسهم . فاتفقت الدوائر الرسمية والمكتبات الكبرى والمعاهد العلمية في تلك الدول على اتباع خطة منتظمة في مبادلة الكتب المخطوطة او المطبوعة . ونعني بتلك الكتب كما قلنا ما كان منها نادراً غالباً لا يوجد منه الا نسخة او نسختان في جميع انحاء الدنيا .

وغير خاف ان الهدف من استعارة تلك الكتب واعارتها لنا هو القيام بأبحاث ثقافية خطيرة يحتاج المشتغلون بها الى المراجعة والتدقيق فهي تثل بذلك شكلاً من الثقافة لا يتسنى للدول الوصول اليه الا عن طريق الاعارة والاستعارة.

(١) البردة الشريفة : بخط مجد الدين مؤلف القاموس : مخطوطة دار الكتب اللبنانية بيروت

وتزداد نسبة استعارة الكتب واعارتها ازدياداً مطرداً حولاً بعد حول ولنا
 بالمتحف البريطاني الشهير أكبر مثال على ما اعاره واستعاره من الكتب خلال
 السنتين ١٩٣٧ و١٩٣٨ للميلاد . فقد بلغ عدد الكتب التي اعارها المتحف سنة ١٩٣٧
 للدول الاجنبية ثلاثمائة وثمانية وسبعين كتاباً . وبلغ عدد الكتب التي اعارها
 لاحدى وعشرين دولة سنة ١٩٣٨ اربعمائة وستة وسبعين كتاباً . اما ما استعاره
 المتحف البريطاني من الدول عام ١٩٣٧ فقد بلغ مائة وسبعين كتاباً . واستعار
 عام ١٩٣٨ من خمس عشرة دولة اجنبية ثلاثمائة واثنى عشر كتاباً (١) .

٣ - الماطلة بالكتب المستعارة

كتبنا في غير هذا الفصل كلمة 'مرة' عمن يستعير الكتب ويماطل باعادتها الى
 اربابها او يتصرف فيها كأنها ماله وحلاله . ويُقاس هذا القياس على من يستعير
 الكتب ويسوف صاحبها مرجئاً اعادتها اليه حيناً بعد حين . والله احد الشعراء
 يطالب صديقاً له بردَ كتبه اليه :

ما بال كتي في يدك رهينة حُديت على مرّ الزمان الاطول
 ائذن لها في الانصراف فانها كنزٌ عليه اذا افتقرت معولي
 وكتب غيره الى صديق له :

غدرت بجزس دفتونا وعهدي بالاديب ثقة
 ولست احب للادبا ان يرتكبوا سرقة

ومن 'نكت' الماطلة في ارجاع الكتب المستعارة ان الصدر تاج الدين احمد ابن
 الامير الكاتب استعار مجموع كتب من مجاهد الدين بن شقير وأطّال مَطْلَه به .
 واتفق يوماً ان حضر مجاهد الدين الى ديوان المكتبات حيث كان ابن الامير .
 فبادهه ابن الامير قائلاً : «كيف انت يا مجاهد الدين ؟ والله قلبي وخاطري
 عندك» فاجابه مجاهد الدين مملحاً الى مجموع كتبه : والله وانا مجموعي عندك !

(١) مجلة « الثقافة » بالقاهرة : مجلد ١ سنة ١٩٣٩ عدد ٢٦ صفحة ٤١-٤٢

الباب الخامس عشر

مخطوطات العرب المزوقة والمصورة

نظرة اجمالية في فن التصوير عند المسلمين

كان التصوير غير معروف عند عرب الجاهلية لاستغنائهم عنه في حياتهم البدوية وشؤونهم الاجتماعية ، وهو فن من الفنون الجميلة التي كان يسميها العرب «الآداب الرفيعة». ونظراً الى جهلهم هذا الفن ، اهملوه كما اهملوا غيره من الفنون والعلوم التي اشتهر بها غيرهم من الامم . ولا عبرة ببعض النقوش التي خلفها العرب في بلاد اليمن . وهي عارية عن الذوق والجمال والاتقان .

ولما انتشر الاسلام بين العرب نهىم الشرع عن التصوير (١) بدليل ما ورد في الحديث «ان من اشد الناس عذاباً المصورين» . وقد ورد في الحديث ايضاً ان «كل مصور في النار» فكسد لذلك فن التصوير بين المسلمين (٢) . وكان هذا التحريم داعياً الى ان ينشبت المسلمون بنص الحديث ويمقتوا التصوير ويصبحوا من الذا أعدائه . هكذا انصرف العرب عن الاستغفال بهذا الفن رغم وجودهم بين شعوب راقية عملت على تعزيزه كالروم والفرس والسريانات والهند والصين . وقد وقفنا على وصف دقيق لفن التصوير عند المسلمين بقلم السيد سلامه موسى احد مشاهير الكتاب في القرن العشرين قال :

(١) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٢٦٢ - المطبعة الادبية في بيروت : طبعة ثالثة سنة ١٩٠٠

(٢) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٩٥١

«ولما وجد رجال الفن المسلمون ان الدين يعارض النزعة الفنية في الرسم والنحت ، عمدوا الى تصوير الجمال عن طريق الذهن لا عن طريق البصيرة فجعلوا فنونهم ذهنية . ولذلك فانهم بالغوا في اتقان الصنعة مع اهمال الفن الا حيث يميل الفن بطبيعته لان يكون ذهنياً كما نرى مثلاً في البناء ، فانهم اقاموا عدداً كبيراً من المباني الفخمة . وكذلك في الشعر اتفوا القصائد الرائعة ولكنهم اتقنوا الصنعة هنا دون الفن . فان لهم القصائد ولكن ليست لهم الدراما او الملحمة .

«والفنون الاسلامية على وجه العموم هي فنون الذهن تنقصها البصيرة والرؤيا والخيال . وهي تميل الى اتقان الصنعة مع تناسي الغاية من الفن . ولذلك فان مقامها لم يكن عظيماً عند المسلمين حتى اننا قلنا نجد اسم الصانع مدوناً بجانب احد النقوش او احدى العمارات . واهمال اسمه يدل على الاحتقار الذي كان يضره له مستخدموه . . . ولما رأى المسلمون ضيق المبدان الذي يمكنهم ان يستخدموا فيه مواهبهم الفنية ، اضطروا الى ان يجعلوا من الحظ العربي فناً ، فزيّنوه وزخرفوه وزوّقوه حتى صار له جمال خاص (١) .»

على ان العرب المسلمين كانوا يتسمّحون في اقتناء الرياش المصنوع في غير بلادهم والمزين بالصور . وكانوا في بعض الاحيان يقلدون ما يقع بين ايديهم من مصورات الفرس والروم او ما جاء به السلاجقة بعد ذلك من صناعة المغول في اواسط التركستان (٢) . وقد ذكر المسعودي ان قصر العباسيين ببغداد على عهد المنتصر بن المتوكل (٢٤٧-٢٤٨ هـ) حوى بساطاً نقشت عليه صور ملوك في جملتهم صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وصورة شيرويه بن ابرويز . وروي عن ام الخليفة المستعين بالله (٢٤٨-٢٥٢ هـ) ان بلاطها الملكي كانت يزينه بساط نفيس مطرز بالصور المرصعة .

(١) سلامة موسى : تاريخ الفنون : صفحة ٢٨-٣٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي : لمرجعي زيدان : جزء ٥ صفحة ٣٢

١ - نشأة التصوير عند العرب

من المقرر ان العجم (١) سبقوا العرب وجميع المسلمين في اقتباس فن التصوير والاعتناء بتوقيته ، يؤيد ذلك ما اثبتته ابن خلدون في مقدمته قال :

« من ابهة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان ترسم اسمائهم او علامات تختص بهم في طراز اتواهم . . . وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او باشكال وصور معينة لذلك . ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى . . . » (٢) .

ولما سقطت الدولة العباسية سنة (٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م) وقامت على انقاضها دولة المغول او التتر اشتد ساعد الفرس واجتمعت كلمتهم على اعادة مجدهم القديم . فجددوا فن التصوير الذي كان شائعاً عندهم في سالف الاحقاب . ثم زادوا في اتقانه بما تلقوه عن اساتذة صينيين مشهورين بالهندسة والفنون الجميلة استقدمهم المغول ليتولوا هندسة حصار بغداد . ويرجع الفضل الى الفرس المسلمين بعد استقلال دولتهم الصفوية في نشر فن التصوير بين ظهرائهم وفي سائر الممالك الاسلامية . فازداد كلفهم به واحكموا صناعته واخذوا يزینون به كتبهم وحلیمهم وحلیتهم وطنافسهم وجدرات مجالسهم وقصور اغنيائهم . واعتاد نفر ممن حج البيت الحرام اذا عاد الى وطنه ان يدبج باب منزله برسوم ماوتة مستظرفة تذكراً لاتمامه هذا الفرض الديني .

لمّا رأى المسلمون ضيق الميدان الذي يمكنهم ان يستخدموا فيه مواهبهم الفنية اضطروا ان يجعلوا من الخط العربي فناً فزینوه وزوَّقوه حتى صار له جمال خاص (٣) .

(١) العجم : خلاف العرب

(٢) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٢٦٦-٢٦٧

(٣) تاريخ الفنون : لسلامة موسى : صفحة ٣٢

وإذا حصرنا القول في المخطوطات المصوّرة التي انتهت إلينا من الفرس في القرون الغابرة ، فإننا نجد أمثلة لا يستهان بها في أشهر مكتبات الشرق والغرب . وحسبنا منها مخطوطات الشاهنامه للفردوسي وتيمورنامه وظفرنامه اليزدي ودبوان حافظ ودبوان جامي والكلكستان للسعدي وتاريخ رشيد الدين وغيرها من الكتب الشعرية والروائية والتاريخية .

وفي دار الكتب اللبنانية بيروت مخطوطة بديعة من « الشاهنامه » مزينة بأنتين وستين صورة ملونة فريدة في بابها . وفيها أيضاً جلد كتاب نفيس بصوره الفاخرة ونقوشه الجميلة لا ينقص عمره عن ثلثمائة سنة وهو آية في الظرف والرونق . وفي خزائن مؤلف هذا الكتاب مخطوطات زينت بالصور المستبدعة والتراويق الرائعة نذكر منها « دبوان جامي » باللغة الفارسية يتقدم تاريخ كتابته الى سنة ٩٠٣ للهجرة .

ويرثي الباحثون ان التصوير في الكتب لم يُعرف عند العرب المسلمين الا على اثر احتكاكهم بالفرنج في عهد الصليبيين لانهم بعدما شاهدوا الكتب الدينية المسيحية مزدانة بصور اولياء الله راقتهم صناعة التصوير واستحسنوها . فاخذوا من ذلك الحين يوسون المصاحف بالذهب ويدبجونها بالالوان الظريفة ويتنافسون في تسميق عناوينها بما لا يوصف من الدقة وسلامة الذوق . ثم نبغوا تدريجاً في هذا الادب الرفيع الى ان بلغوا منتهى الاتقان في تصوير النبات فالحيوان فالانسان . يؤيد ذلك ما رواه المقرئ في عن الخلفاء الفاطميين في مصر انهم زينوا قصورهم بصور ذات ارواح مثل حوادث مختلفة . وعدد المقرئ أيضاً اسما المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منها بالمصور . وابن فرج البلسني سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب (١) . وبرع غيرهم من المسلمين في صناعة التصوير كالكتامي والنازوك والقصير وابن العزيز الذين ذكرهم

(١) محاضرات الجمع العلمي العربي : مجلد ١ صفحة ١٨٣

المقرئ في كتاب الخطط (٢ : ٣١٨) في وصف جامع القرافة وذكر شيئاً من أعمالهم (١). وتمن برز أيضاً بالاجادة في التصوير الرئيس ابن العميد (٢).

وعلى رغم ذلك فإن المخطوطات العربية المصورة نادرة وثمينة . وهي محفوظة بكل حرص في بعض مكتبات الشرق والغرب . وعلى قلة عددها قسمناها باعتبار مواضعها الى فصول كما يلي :

٢ - مخطوطات الطب المصورة والمزوقة

تشتمل هذه المخطوطات النفيسة على صور تمثل اعضاء الجسم وتركيبها وتشرحها وعلى صور الحشائش والعقاقير النباتية . وعلى آلات الجراحة كالمباضع والسكاكين والكلايب والمقصات وغيرها .

ومن اهم ما عرف من الصور التشريحية في المخطوطات : تشريح العين لحنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م) . شيخ تراجمة الاسلام وطبيب الخليفة المأمون والمتوكل على الله . وهذه الصور مرسومة في مخطوط لهذا المؤلف كتب سنة ٥٩٢ للهجرة (١١٩٥ م) عنوانه « تركيب العين وعللها وعلاجها على رأي ابقراط وجالينوس » . وتمثل تلك الصور الملونة اشكال العين وعضلاتها وطبقاتها وحرركاتها وكل ما يتعلق بها . وهذا المخطوط النفيس محفوظ في الخزانة التيمورية بمدينة القاهرة . وتحتوي الخزانة عينها مجموعة طبية مصورة بخط عبد الرحمن الانصاري كتبها سنة ٥٩٢ للهجرة (٣) .

ومن كتاب « تشريح العين » نسخة ثانية اقدم عمراً من النسخة المذكورة مكتوبة في السنة ٥٥١ للهجرة (١١٥٦ م) . ونرجح انها اعتقت مخطوطة طبية

(١) المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٩٥١

(٢) تجارب الامم : لابن مسكويه : صفحة ٢٧٨-٢٧٩

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جزء ٤ : صفحة ١٢٥

مصورة في اللسان العربي . وكانت هذه المخطوطة محفوظة في خزانة كتب البطريرك الانطاكي غريغوريوس حداد بدمشق . فاهداها سنة ١٩١٣ مع مخطوطات اخرى ثمينة حملها معه الى نقولا الثاني قيصر روسيا في فرصة الاحتفال باليوبيل القرني الثالث لارتقاء آل رومانوف الى العرش القيصري . ثم نقلت هذه المخطوطة الى المتحف الاسبوي التابع للمجمع العلمي الروسي في لينينغراد (١) . وقد اعنى الدكتور مايرهوف بطبع هذا الكتاب باللغة العربية مع ترجمة انكليزية معتمداً في ذلك على النسختين القديمتين المذكورتين (٢) .

ومن الكتب المصورة في طب العين «الكافي في الكحل» ألفه خليفة بن ابي المحاسن الحلبي في اطبائه القرن الثالث عشر للميلاد . وطبع هذا الكتاب عام ١٩٠٥ في ليبسيك . ولهذا الكتاب مخطوطة اخرى مصورة في الخزانة البارودية ببيروت (٣) .

ومن المخطوطات المصورة ايضاً كتاب «سحر العيون» للبديري . طبع على الحجر سنة ١٢٧٦ للهجرة (١٨٥٩) بمصر في عهد الخديوي سعيد باشا . ومنها كتاب «نور العيون وجامع الفنون» يتقادم تاريخ كتابته الى السنة ٩٩١ للهجرة (١٥٨٢ م) تأليف ابي زكريا يحيى بن ابي الرجاء . وهذا المخطوط الطبي المصور اقتناه الزعيم الهندي الدكتور محمد أجمل خان سنة ١٩٢٥ من مكتبة صديقنا الاستاذ عيسى المعلوف بزحلة .

واهدى السيد خورشيد الشركس الى المجمع العلمي العربي بدمشق نسخة من مخطوط في الجراحة عنوانه «التصريف لمن عجز عن التأليف» لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي الاندلسي المتوفى نحو سنة ٤١٠ للهجرة (١٠١٩ م) . وهي مزدانة بصور الآلات الجراحية على اختلاف اشكالها . اما الزهراوي فنسبة الى

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٤ صفحة ٢٨٥-٢٨٦ و ٣١٨-٣٢٠

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : للدكتور سامي حداد : صفحة ٦١

(٣) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي : لعيسى المعلوف : صفحة ٥٥

مدينة الزهراء بالاندلس وهو ثالث مشاهير اطباء العرب وصنواه ابن سينا والرازي .
وقد رسمت صور هؤلاء الاطباء الثلاثة بالوان على الزجاج في كاتدرائية ميلانو
بايطاليا (١) . ومن هذا المخطوط نسخة ثانية مصورة في مكتبة «بطناء» بالهند
مكتوبة في السنة ٥٨٤ للهجرة كما ذكرنا في فصل سابق .

واشتهر في القرون الفائرة هشام بن موسى بن يوسف المسيحي ففسخ بيده
كتاباً مستبدعاً اشتمل على ١٦٠ صورة من صور الحيوان والنبات ملونة . وقد
اطلعنا نحن على هذا المخطوط النفيس في مكتبة الامة في باريس .

واشتهر من آل بختيشوع اطباء الخلفاء العباسيين ابو سعيد عبيد الله بن
جبرائيل المتوفي سنة ١٠٣٢ للميلاد . فخلف كتاب «منافع الحيوان وزينه
بعده تصاوير (٢) .

ومن المخطوطات النباتية الطبية «مجموعة صور نباتات» احتوت على احدى
وثانين صورة في كل صفحة صورة . وفي اعلى الصفحة جداول كتب فيها طبع
النبات ومضرته وما يصلحه وترتبه وبدله . وفي جانبي الصفحة منافع وصور
استعماله وتطبيقاته الطبية وفي الاسفل منابته . ومن الصور المذكورة ٥٧ ملونة
و ٢٤ بجزر اسود . وهذه الاخيرة قد كتب عليها اسم النبات باللاتينية واليونانية
وبعضها بالفارسية او بالكرشونية ايضاً . وهذا المخطوط النادر يخص الدكتور
العلامة داؤد الحلبي الموصل (٣) . وفي مكتبة البعثة محمد فريد وجدي بالقاهرة
مخطوط من تأليف الزهاوي في الجراحة تاريخه سنة ٥٨٤ للهجرة . وفيه صور
الآلات الجراحية مرسومة بالانقان التام يستدل منها على ان بعضها يحاكي الآلات
الجراحية التي اخترعت منذ عهد قريب (٤) .

(١) تاريخ الطب عند العرب : بقلم عيسى الملووف : صفحة ٢٧-٢٩

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : صفحة ٥٦

(٣) كتاب مخطوطات الموصل : صفحة ٢٧٦

(٤) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٦

والدى الدكتور سامي الحداد في بيروت بعض الكتب الطبية المصورة في خزائنه الحافلة بالمخطوطات الطبية الثمينة . نذكر منها «المنجز» وهو شرح مبسوط الموجز، لرئيس الاطباء محمود بن احمد الامشاطي الحنفي المولود سنة ٨١٠ للهجرة . وهذا المخطوط مزين برسوم ظريفة كخارطة وادي النيل وشجرة القوى الحيوية (١) . ومن تلك المخطوطات «شرح قانون ابن سينا» مزين ايضاً بالرسوم والاشكال لمحمود الامشاطي المشار اليه .

وفي دار الكتب الاهلية بباريس مخطوطات قديمان في الطب تجلّى فيها فن التصوير الى درجة الابداع : أحدهما نسخه بيده هشام بن موسى بن يوسف المسيحي وانطوى على مائة وستين صورة ملونة للنبات والحيوان على اختلاف اشكالها . وثانيهما كتبه عبدالله بن الفضل سنة ١٢٢٢ للميلاد وزينه بالصور العديدة . ويترجح ان كاتب هذا المخطوط هو مؤلفه نفسه . وقد تصفحنا هذين المخطوطين في اثناء المعرض الذي انشأته تلك المكتبة عام ١٩٢٥ للمخطوطات الشرقية المصورة والمزوقة .

وفي مكتبة الجامعة الاميركية ببيروت مخطوطات طيبان زينت صفحاتها بالصور : اولها كتاب «غاية الامنيات في معرفة الخفيات» فيه جداول لمعرفة انواع الحمى وصور الدم بالوانه . ثانيها كتاب «المنجز على الموجز» لمحمود الامشاطي بديع الرسم والتلوين يتضمن رسوماً للآلات اهمها مشجر في القوى الحيوانية (٢) .

٣ - مخطوطات الكيمياء المصورة

قليلة هي المخطوطات العربية المصورة التي تبحث في علم الكيمياء ومن اهمها مخطوط يتناول موضوعه تحويل المعادن الحسيسة كالزئبق والنحاس والقصدير

(١) مآثر العرب في العلوم الطبية : صفحة ٥٩

(٢) مخطوطات الخزانة المملوكية في الجامعة الاميركية : صفحة ٧

وغيرها الى ذهب ابريز . وفي هذا المخطوط القديم صورة تمثل ستة رجال وجوهمهم كاملة الاستدارة . والى يمين هذه الرؤوس صورة الهلال والى يسارها صورة البدر . وتحت البدر والهلال وقف رجلان امسك كل منهما بسلسلة التفتت حول عنق هؤلاء الرجال الستة الذين وضع كل منهم يده اليسرى على صدره .

وفي اسفل هذه الصورة رموز واشكال ومخطوط شبيهة ببعض الحروف العربية واليونانية والهيرغليفية فكانت الى الطلائع اقرب منها الى الكلام المفهوم . ويرى المتأمل فيها بعض رسوم اشبه شيء برسم القلب والصليب والسيف والسنبل الخ . . . (١) .

٤ - المخطوطات اللغوية المصورة

هذا صنف من المخطوطات نادر ونادر جداً ، لاننا لسنا نعرف في خزائن الشرق والغرب كتاباً في اللغة قد زينته مؤلفه او ناسخه بصور ورسوم وتراويق سوى مخطوط واحد لا ثلث له . وهذا المخطوط هو شرح « القاموس المحيط والقاموس الوسيط » للفيروزابادي يحتفظ به كاتب هذه السطور في خزانة مخطوطاته الخاصة . وقد كتب الكتاب بخط فارسي دقيق تخللت سطوره خطوط حمراء وازيف الى هوامشه شروح كثيرة . ومن ميزاته التي تلفت الانظار ان ناسخه قد دججه بستة تصاوير انيقة ذات الوان زاهية ومواضيع مختلفة دلت على براعته وسلامة ذوقه . وقد ورد في آخر صفحاته انه « فرغ من تسويد شرحه في غرة ربيع الاول من شهر سنة تسعة عشر ومائة بعد الالف » .

٥ - المخطوطات الادبية المصورة والمزوقة

ان اقدم مخطوط عربي مصور من هذا النوع « مقامات الحريري » كتب

(١) التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية للدكتور احمد موسى (مجلة الرسالة لاجد حسن الزيات : سنة ٦ صفحة ١٣٢)

في السنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) . وهذه النسخة مشتملة على احدى وثمانين صورة
والمكتوبة بخط يحيى الواسطي مصونة بالمكتبة الاهلية بباريس (١) . وفي هذه
المكتبة ايضاً نسخة جميلة من «ديوان الصباية» للتمسافي تحتوي على رسوم بعض
امراء العرب . وقد وقفنا بذاتنا على هذين المخطوطين النفيسين في المعرض الذي
اقامته دار الكتب الاهلية المشار اليها في شهر نيسان ١٩٢٥ لنوادير المخطوطات
العربية والفارسية والتركية .

ولما تعهد المسيو دومرغ رئيس الجمهورية الفرنسية هذا المعرض انتدبنا امين تلك
المكتبة رسمياً لتشرح لهذا الرئيس معلوماتنا عن كل مخطوط وعن مؤلفه وعن
الرسوم المصورة فيه .

ومن الكتب الادبية نذكر كتاب «كليلة ودمنة» . فقد عثر الشيخ احمد حسن
طباره في دمشق على نسخة منه مصورة كتبت عام ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥ م) فنقل
عنها ٨٦ صورة تمثل وفائع الكتاب ونشرها بالطبع سنة ١٩٠٥ في بيروت . وروى
الاب لويس شيخو انه لقي بين مخطوطات المكتبات التي زارها في اسطنبول عام
١٩٠٤ نسخاً قديمة مصورة لكتاب «كليلة ودمنة» (٢) .

وتحتوي الحزاة التيبورية في القاهرة على مخطوطٍ عنوانه «المقامات الجلالية
الصفدية» وضعه الشيخ حسن بن ابي عماد العباس في القرن السابع للهجرة . وعدد
هذه المقامات ثلاثون تسمى التاسعة عشرة منها «المقامة الطيبورية» وهي تشتمل على
صور النسر والعقاب والمفلغ والاوز والجرج والكركي وغيرها .

ومن الكتب التي يصح ان نقدرها بين المخطوطات الادبية المصورة مخطوط

(١) نشرت المطبعة الكاثوليكية ببيروت في «تقوم البشير» لسنة ١٩٣٩ بعض رسوم ملونة
منقولة عن مخطوط «مقامات الحريري» وكلها يرمي الي وصف الحياة اليومية في القرن السابع للهجرة .
فأول تلك الرسوم يتل مسير القسافة في الصحراء وثانها وقفة القافة في احدى الواحات وثالثها صورة
جارية تقود الايل الى المرعى .

(٢) سباحة حديثة الى اوروبا بقلم الاب لويس شيخو (المشرق : مجلد ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٥)

كبير الحجم يقع في ٥١٦ صفحة مضبوط بالشكل الكامل عنوانه « غرائب الصناعات الشعرية » . وهو يشتمل على فنون شعرية نادرة المثال وعلى مقاطيع نثرية غريبة الوضع ، وفيه كذلك رسوم مربعات ودوائر ومجسومات ومشجرات مختلفة التركيب يستخلص منها اشعار جيدة بأساليب فنية . وزبدة القول ان هذا المخطوط فريد بديع حوى من فنون الشعر والنثر وروائع الرسوم ما يقصر القلم عن وصفه . وقد شاهدناه في الحزارة العلوية تحت الرقم ٢٣ وهاك ما ورد في مقدمته بالحرف الواحد :

« اما بعد فان انفع الكلام موقفاً ، واسماه موضعاً ، كلمة حكمة يقتنيها الاديب بسناها ، ويهتدي الاريب بهداها . وهذه مجموعة قد أحكمت مبانيها وتكافأت الفاظها ومعانيها ، اذا سمعت طمع فيها . واذا طلبت استصعبت على متبعيها ، ظريفة النظم والسبك متلائمة الاوصاف متناسبة الاطراف ، مقبولة العبارة واضحة الاشارة . قد اشتملت على استعارات رائعة وتسميات فائقة . الى غير ذلك من الاوصاف الفريدة فاستحقت وصف القصيدة :

إذا انشدت في القوم مرّت كأنها مسرّةٌ كبيرٍ أو تداخلها عجبٌ
مفصلةٌ باللؤلؤ المنتقى لها من الشعر إلا انه لؤلؤ رطبٌ

جمعت بحسن فنون يعز جمعها ، ولطائف بلاغات يحكم بإيدي البلغاء ربعا ، مستعذبة الموارد ، مختلفة الانحاء والمقاصد ، ما سبقني احد اليها ابدأ ، وبها مات حاسدي كمدأ

وروى عبد الرحمن الجبرتي عن والده الشيخ حسن الجبرتي قال : « اقتنى والدي كتباً نفيسة خلاف المتداولة . وارسل اليه السلطان مصطفى نسخاً من خزائنه . وكذلك اكابر الدولة بالروم ومصر وباشة تونس والجزائر ، واجتمع لديه من كتب الاعاجم مثل الكلكستان وديوان حافظ وشاهنامه وتواريخ العجم وكليلة ودمنة ويوسف زليخا وغير ذلك . وبها من التشابيه والتصاوير البديعة الصنعة والغريبة

الشكل ، وكذلك الآلات الفلكية من الكرات النحاسية ، (١) .

ومن المخطوطات الادبية المصورة كتاب « بولام ويواصف » وهي رواية نسبت الى القديس يوحنا الدمشقي . ومنها نسخ عديدة في مكتبة باريس (٢) ونسخة في المكتبة الشرقية ببيروت مع تصاوير (٣) .

٦ - المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند النصارى

عرفت الصور في الكتب الدينية عند النصارى منذ القرون الاولى للمسيح . فكانت اهل هذا الفن يبذلون العناية في تزويق المخطوطات الدينية بابدع الرسوم واروع الالوان تزييناً للمكاتب او للتميم بها في الكنائس . وكان الرهبان بنوع خاص يتنافسون بتسميق الاسفار المقدسة وتصويرها تعظيماً لها واجلالاً لقدرها . فكانوا مثلاً يدبجون فاتحة الكتاب بنقوش مزخرفة ورسوم مستظرفة . وكانوا يكتبون العناوين بحروف ممتازة مطعمة بالذهب والفضة . وكانوا يزينون اول حرف من كل فصل بصورة نسر او حمامة او حمل او ايل او سمكة ولكل منها رمزه في الكتاب المقدس . ذلك عندما كانوا يرسمون صور السيد المسيح او اولياء الله او الاسرار البيعية . ومن جملتها هيئة خبز القربان الذي كان يستعمله نصارى العرب في سالف الزمن . وكان الاقدمون يسطرون الانجيل بحروف ذهبية ويصفحونه بالجواهر الكريمة ويحماونه مكتوباً بحرف دقيق ومعلقاً في اعناقهم على صدورهم تيمناً وتبراً كآ (٤) .

(١) تاريخ الجبرتي : جزء ١ صفحة ٣٩٧

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة باريس رقم ٢٦٨-٢٧٤

(٣) المخطوطات العربية لكتبة النصارى : صفحة ٢١٧

(٤) المباحث الجلية في الترجمات الشرقية والغربية : تأليف البطريرك اغناطيوس افرام رحمانى :

صفحة ٦٩٧

ولنا ادلة كثيرة في الشعر الجاهلي على رقص النصارى لكتبهم الدينية وتسميقها
بالزخارف . نورد منها بيتاً للراجز رؤبة بن العجاج قال (١) :

انجيلُ اُخبارٍ وَحَى مُنْمَنِيهِ ما خَطَّ فِيهِ بِالْمَدَادِ قَلَمَهُ
وقرأنا في المفضليات ما يلي (٢) :

كتابٌ مَحْتَبَرٌ هاجٍ بِصَيْرٍ يُنَمِّقُهُ وَحاذِرٌ انَّ يُباعا
وقال المرقش الاكبر عوف بن سعد بن مالك . . . بن بكر بن وائل يصف
رسوم الدار مشبهاً اياها برقص القلم في ظهر الجلد (٣) :

الدار قَفْرٌ وَالرَّسومُ كما رَقَّشَ فِي ظَهْرِ الْاَدِيمِ قَلَمُ
ومن تلك الادلة ما ورد في قول حاتم الطائي (٤) :

أَتَعْرِفُ آثارَ الدِّيارِ تَوْهَمًا كَخَطِّكَ فِي رَقِّ كِتابِا مُنْمِنًا

واشار علقمة بن عبدة (٥) الى وشي الخط وتسميقه قال :

وذَكَرَنيها بَعْدَما قَد نَسيتُها ديارَ عِلاها وابلَ مَتَبَعِيقُ
باكتافِ شَعاتٍ كانَ رِسامُها قَصيمُ صِناعِ في اديمِ مُنْمَقُ

ولم تنحصر تلك المخطوطات في امة مسيحية دون سواها بل شاعت عند جميع
النصارى على توالي الاحقاب . وكان حظ الناطقين بالضاد لا يقل عن حظ غيرهم
من الشعوب في هذا المضمار . بيد ان الحروب والفتوحات والفتن الدينية

(١) ديوان رؤبة : صفحة ١٤٩ طبعة وليم بن الورد مع ترجمته الالمانية في برلين سنة ١٩٠٣

(٢) المفضليات للضي : صفحة ٦٩٨ (ED. LYALL)

(٣) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية : القسم الثاني صفحة ٣٥٥

(٤) الاغاني : ٧ : ١٣٢

(٥) معجم ما استعجم للبكري : صفحة ٧٠٥

والاضطرابات السياسية في البلاد الشرقية اتلفت القسم الاوفر من تلك النفاثس
المصورة . وسنبتين ذلك في فصل لاحق سميناه « رزايا الكتب والمكاتب » .

ولما كانت المخطوطات الدينية النصرانية المصورة التي عصت على الدهر اوفر
عدداً من المخطوطات الدينية الاسلامية المصورة فقد اقتصرنا منها على ذكر ما يلي :
في مكتبة دير طور سيناء مخطوط عنوانه « البشائر الاربعة » محفوظ فيها تحت
رقم ٦٨ ومنسوخ على رق فاعم بخط جميل . وقد ديج بالرسوم وفي كل رسم اربع
شجرات مزخرفة وبين كل شجرتين خط نسخ ، وفوق تلك الشجرات وتحتها سطر
بخط ثلث بديع كتب بليقة الذهب . وهذا المخطوط على قدامة عهدده لم يزل
بجالة جيدة (١) .

ومن اقدم المخطوطات الدينية النصرانية المصورة التي اطلعنا على اخبارها
كتاب « العهد العتيق » في مكتبة المتحف الاسيوي في ليننغراد ، وهو في مجلدين
نسخه بيده سابا السبقي المسمى بيمين الدمشقي سنة ١٢٣٦ للميلاد وديج به بعض
الصور (٢) .

واشتملت مكتبة المتحف الاسيوي ايضاً في ليننغراد تحت الرقم ١ بين
مخطوطاتها على نسخة من مزامير داؤد بديعة الانتقاف مزدانة بالصور العديدة .
وقد كتبها بخطه الانيق الحوري يوسف المصور سنة ٧١٥٨ للعالم (١٠٥٨ هـ
و١٦٤٨ م) برسم الحاج ميخائيل ابن الحوري يوسف الشهير بابن المبيض (٣) .

وفي الحزارة المعلوفية بزحلة مجموعة خطية باللغة العربية لعالم قبطي . وبما
ازدانت به تلك المجموعة صليب ملون يعاوه نسر ونقوش بديعة شتى . وفي مكتبة

(١) مكتبة دير سيناء : بقلم يسى عبد المسح (مجلة الراعي الصالح في الاسكندرية : مجلد ١
سنة ١٩٤٠ صفحة ٣٣)

(٢) المخطوطات العربية لكثبة النصرانية في المكاتب بطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس
كراتشوفسكي

(٣) المخطوطات العربية لكثبة النصرانية في المكاتب بطرسبرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس
كراتشوفسكي

الجامعة الاميركية ببيروت مخطوط مجوي «تفسير الانجيل» عربيه القس يوسف الباني في اربعة مجلدات وفي احد هذه المجلدات صورة تثلث الاقانيم مزدانة بالوان رائعة متقنة . اما تفسير الانجيل المشار اليه فهو تأليف كرنيلوس الحجري (+ ١٦١٧) (١) .

ومن ذخائر المكتبة الشرقية في بيروت مخطوط بديع باللغتين العربية والقبطية عنوانه «الناودوكيات» يقع في ٤٣٠ صفحة . وفي دائرة المخطوط اطار ذو ثلاثة خطوط ملونة احمرين فآزرق . والمتن مجبرين اسود فاحمر . وفي اول الفصول وآخرها نقوش بالوان مختلفة يكثر فيها الذهب . ومع هذه الحلى تصاوير متعددة : منها صلبان على هياث شتى ، ومنها حيوانات رمزية كالطاووس والسك واعراض القربان الاقدس وفي رأس الفصول القبطية نرى طائراً على شبه العقاب وهو يدل على حرف من الحروف القبطية استعاروه من اصطلاحات قدماء المصريين (٢) .

ولا يخفى ان النساطرة يعتبرون من اقدم الفرق النصرانية في الشرق . ويشهد على اعتقادهم في اكرام الصليب والصور ما نجده في كتب طقوسهم القديمة والحديثة من التصاوير . فان اناجيلهم مثلاً مرصعة بالصور الفضية ومن جملتها صورة المصابوب . وكذلك يزینون هذه الكتابة بنقوش بديعة تمثل اسرار حياة المسيح من مولده الى قيامته على حسب رتب الاعياد ومعاني الصلوات . ففي قوجانس مقر بطارككتهم منذ القرن السابع عشر الى سنة ١٩١٨ كان يصان انجيل مصور بعد من التحف البديعة . وبعد السنة المذكورة نشئت شملي النساطرة شرقاً وغرباً (٣) ولم يتيسر لبطريركهم حتى الان ان يتخذ مركزاً رسمياً

(١) فهرس مخطوطات دير الشرفة : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٣٢٠-٣٢٣

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٥٤٢-٥٤٣

(٣) كتاب «المرجانة» المطبوع في الموصل سنة ١٩٢٤ لناشره الارخبدياقون يوسف

النسطوري : المقدمة

لكرسى البطريركية . وقد حوت مكنتبات لندن وباريس اناجيل مصورة مثل الانجيل الموما اليه ابتاعها الانكليز والفرنسيس من النساطرة (١) .

ومن هذا القبيل ايضاً انجيل كتب منذ اوائل القرن السادس عشر ترينه صور الاربعة الانجيليين بالوان رائعة يحدق بها اطار محلى بذهب وزهور . وتبلغ صفحاته ٢٨٠ اطلع عليه الاب لويس شيخو سنة ١٨٩٥ في رحلته الى ماردين (٢) وعثر الاب المشار اليه على انجيل مصور ايضاً في مكتبة عين تراز بجبل لبنان يتضمن تنقيحات واصلاحات مأخوذة عن الترجمة القبطية والسريانية (٣) .

وفي مكتبة المرحوم بطرس منصور تيان في بيروت نسخة معتبرة من الانجيل تاريخها سنة ٦٢٤ هجرية (١٢٢٧ م) والكتاب يشتمل على ٤٨٦ صفحة مع نقوش جميلة بالالوان . وفي مكتبة الاقباط بالقدس نسخة من الانجيل تشبه النسخة الماردينية الموصوفة سابقاً كتبت في سنة ١٠٤٢ للشهداء (٤) .

على اننا نضيف الى ذلك وصف مخطوط مصور محفوظ في مكتبة مطرانية الروم الكاثوليك بمدينة صور يرتقي عهد نساخته الى القرن السابع عشر . وهو ينطوي على لبترجيات في الذهب وباسيلبوس وغريغوريوس مدونة في حقلين عربي ويوناني بخط جميل مشرق ملون بجبر اسود واحمر واخضر ومذهب . وفي مقدمة الفصول حروف يونانية ذات اقدار والوان مختلفة . فمنها حروف متوسطة ذهبية . ومنها حروف كبيرة على ربع الصفحة بالوان زاهية وتصاوير جميلة في تقاطيعها رموز من الحيوانات كالتمنين والحيات والعنقاء والحمام والطيور وبعض التصاوير التقوية كصور السيد المسيح والرسل والملائكة والاسرار . وفي الكتاب ما خلا ذلك صور اخرى اكبر من السابقة وهي ملونة مثلها بالوان بديعة ، بينها صور

(١) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفحة ٨٤٥

(٢) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ١٠٧

(٣) المشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ٢٠٨

(٤) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ٢٣٨-٢٣٩

اعمال المختص والعذراء الطاهرة وبعض اولياء الله من الرسل وغيرهم (١) .
وفي المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ببيروت نسخة جامعة لكل اسفار العهد
الجديد الا رؤيا مار يوحنا الانجيلي . وهي جميلة الخط دُبيجت بعشر صور بديعة
ملونة تاريخها سنة ١٦٥٣ ميلادية (٢) .

٧ - المخطوطات الدينية المصورة والمزوقة عند المسلمين

روى جرجي زيدان في بحثه عن الفنون الجميلة عند الاسلام ما نصه :
والصور الدينية ابعد ما يكون عن اذهان المسلمين . ولذلك لا نجد شيئاً منها في
كتبهم الدينية على اختلاف مواضعها . ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل ثنائي
صور خيالية منشورة في كتاب الميزان بالفقه الشافعي لعبد الوهاب الشعراي .
وهو مطبوع في بولاق سنة ١٢٧٥ للهجرة . وقد مثل فيه صوراً في ذهنه لعين
الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام في دار الدنيا ومن اعوج . . . ونحو ذلك
بما لا نعرف له مثيلاً في غير هذا الكتاب (٣) .

ومن الكتب الاسلامية الشائعة المحلاة بالرسوم كتاب «دلائل الخيرات»
وفي بعض نسخه صورة الكعبة ومكة والمدينة واضرحة الصحابة وغير ذلك من
النقوش مديجة بالالوان ومجدولة بالذهب . ومنها «كتب المناسك» المزدانة برسوم
مكة والمسجد الاعظم فيها . وروى المؤرخ البحاثه عيسى اسكندر المعلوف (٤) .
انه شاهد عند الاب انستاس الكرملي في اثناء مروره بدمشق مخطوطاً عنوانه :
«وصف مكة» كتب في القرن الثاني عشر للميلاد . وفي هذا المخطوط صورة

(١) المشرق : مجلد ١١ سنة ١٩٠٨ صفحة ٢٣٨-٢٣٩

(٢) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية : بقلم الاب لويس شيخو : صفحة ٢٤٤

(٣) تاريخ الآداب العربية : مجلد ٣ صفحة ٢٦٩

(٤) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤٢٠ و ٤٢١

مدينة مكة بحلاة بالالوان البديعة . وفي الحزارة التيمورية بالقاهرة كتاب عنوانه :
« نبذة في تاريخ الحجاز ومعالمه » ينطوي على رسم الحرم بمكة .

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق كتاب « النفحات العنبرية في وصف نعل
خير البرية » لآحمد بن محمد المقري مؤلف كتاب نفع الطيب كُتب سنة ١٠٩٦
للهجرة . وهذه النسخة نفيسة الخط جداً وفيها صورتان للنعل الشريف مذهبتان .
وهي من جملة المخطوطات التي اوصى بها الشيخ عبدالله الكزبري لدار الكتب
المشار اليها (١) .

ويروى ان شجاع الدين ضياء صاحب السلطان بيبرس وسفيره حمل الى
بركة امير المغول ثلاث صور من صنع يده تمثل هيئة الحج . واثبت المصور الشهير
فرنسيس كازانوف (١٧٣٠ - ١٨٠٥) البندقي الاصل ان احد سياح العرب في آخر
القرن التاسع للبلاد شاهد في رحلته الى الصين وغيرها صورة نبي المسلمين وصور
اعاظم رجال الاسلام (٢) .

وفي خزانتنا الحُصوية ثلاث مخطوطات اسلامية موشاة برسوم مستبدعة وهي :

١ - كتاب « انعام شريف المقدار » يتلوه «دلائل الحيرات » تزيينه فوانح
منسقة بالوان ظريفة واطارات ذهبية . وفيه صورتان لحرم مكة وقبر النبي العربي
في صفحتين متقابلتين .

٢ - مصحف القرآن يشتمل على ستائة واربع صفحات في كل صفحة اربعة
نقوش دُبيجت في زواياها الاربعة . فيكون مجموع الزوايا الفين واربعمائة وست
عشرة زاوية زُينت كل منها بنقشة تختلف عن سائر النقشات برسما وألوانها وهو
مصحف نادر وحيد من نوعه بين سائر المصاحف على الاطلاق .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ١٠ سنة ١٩٣٠ صفحة ٦٣-٦٤

(٢) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ١٧

٣ - « شجرة نبوية » تفنن فيها ناسخها بروائع الخطوط والاشكال وقد وُسِّيت
صفحتها الاولى بصورة جامع تتركز عليه ثلاث مآذن مستظرفة .

وفي خزانة السيدة جات دي طراز في باريس مخطوطات متنوعة ثمينة
دُبِّجَت بالصور الرائعة . منها جلد نفيس كان مصوناً في خزائن السلطان عبد الحميد
الثاني بقصر بلدز بالاستانة . وهو يتضمن صورتين للنعل النبوي 'وشحنا بالذهب
والزخارف الملوّنة والكتابات الجميلة . وقد نقش على احدى الصورتين هذان
البيتان :

قبّل نعالَ المصطفى خير البشرِ ومَتَعَ العَيْنينِ فيه بالنظرِ
واجعله فوق الرأسِ والجبينِ ومرَّعَ الحَدِّ بذلك الأثرِ

ونقش على الصورة الثانية بيتان آخران اليك نصها :

امرَّعَ في المثلِ بياضِ وجهي فقد جعل النبي له قبالا
وما حبَّ النعالِ شغفن قلبي ولكن حبَّ من لبس النعالا

٨ - المخطوطات المصورة والمزوقة في كتب التاريخ والرحلات

من هذا النوع مخطوط في المتحف البريطاني مزين برسوم بينها صورة حصار
بني النضير . وهو مكتوب في القرن الثامن للهجرة . وفي مكتبة شامبرجر
مخطوط عربي اقدم من المخطوط السابق كتب في القرن السابع للهجرة يحتوي على
رسوم شتى تاريخية . نذكر منها صورة في نهاية الابداع تمثل قافلة من الجند بجيها
ورجلها ونوقها واسلحتها وابواقها واعلامها .

ومن المخطوطات التاريخية المصورة كتاب « زبدة الخلب في تاريخ حلب »
لكمال الدين عمر العقيلي المشهور بابن العديم . ومن هذا المخطوط النفيس نسخة
مصورة في دار الكتب المصرية نقلت عن مخطوطة الاستانة . ولمؤلف الكتاب

كلام واسع عن جغرافية بلاد حلب وبحيراتها وجبالها وتربتها وهوائها ومائها
وخرابها وعادياتها . وقد ذكر المؤلف مدناً اتبعها بحلب وهي تُعد اليوم من بلاد
كيليكيا . وعقد فصلاً من اجمل فصول الكتاب عن نزل بحلب وضواحيها من
قبائل العرب ومن كان فيها قبلهم (١) .

ومن هذا القبيل كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » للرحالة
شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ
(١٣٢٧ م) وقد زينه مؤلفه بالخرائط الجغرافية وصور المشاهد الغريبة التي رآها
في رحلاته من حيوانات نادرة وقصور عظيمة وطواحين هواء وآلات فريدة من
نوعها للتقطير وغير ذلك . وقد طبع هذا الكتاب اولاً سنة ١٨٦٥ في بطرسبرج
وثانياً سنة ١٨٧٤ في كوبنهاغن عاصمة الدنمارك (٢) .

وللاب متى خيفالا القبرسي الاصل كتاب « الدرّ المنظوم في اخبار ملوك الروم »
ألفه في القرن السابع عشر باللغة اليونانية . ونظر فيه البطريرك الانطاكي
الارثوذكسي مكاريوس الثالث (١٦٤٧ - ١٦٧٢) المعروف بابن الزعيم . وقد عربّه
الحوري يوسف المصور ابن الحاج انطونيوس الحلبي وزينه بالصور (٣) . ومن هذا
الكتاب نسخة بديعة كتبها بيده الارخبدياقون بولس ابن الزعيم قرب سنة ١٦٦٠
وهي محفوظة في مكتبة المتحف الاسيوي رقم ١٩٠ في ليننغراد (٤) .

وفي مكتبة الاوقاف بدمشق نسخة مصورة من مخطوط عنوانه « منادمة
الاطلال » تأليف بدران . وبما احتواه هذا المخطوط تاريخ المدرسة الظاهرية التي
اصبحت مقراً لدار الكتب الاهلية في عاصمة الامويين (٥) .

(١) تأليف ابن العديم : محمد كرد علي « مجلة النجم العلمي العربي » : مجلد ١٦ سنة ١٩٤١
صفحة ١٤٩-١٥٠

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرجي زيدان : جلد ٣ صفحة ٢١٩

(٣) مجلة الآثار : مجلد ٣ صفحة ٤٢٣

(٤) المخطوطات العربية لكتبة النصرانية في المكاتب البطربرجية : بقلم المستعرب اغناطيوس
كرانشوفسكي

(٥) منادمة الاطلال : صفحة ١٦١ و ٢٤٢ ومجلة دمشق مجلد ١ صفحة ٤٣

٩ - المخطوطات المصورة في العلوم الجغرافية

يراد بالجغرافية الخرائط وتخطيط البلدان . ويرتقي عهد اقدمها الى زمان ظهور علم الجغرافيا عند العرب في القرن الرابع للهجرة . وقد نبغ كثير منهم في الموضوع فالتفوا الكتب وزينوها بخرائط ملونة كابي زيد البلخي وابي اسحق الاصطخري وابن حوقل . ولاي عبدالله المقدسي كتاب « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » الفه سنة ٣٧٥ للهجرة (٩٨٥ م) فصدره بتقدمة في علم الجغرافيا عند العرب حتى ايامه . ثم اضاف اليه خرائط كثيرة ملونة بدليل قوله بعد ذكر تقسيم الكتاب الى اقاليم ما نصه : « ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة . وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وابعارها الملحة بالحضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالعبرة ، ليقرب الوصف الى الافهام ويقف عليه الحاص والعام » .

واقدم المؤلفات الجغرافية العربية كتاب « صور الاقاليم الاسلامية » تأليف ابي زيد احمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ للهجرة . فانه زينته بالخرائط الملونة على قدر ما بلغ اليه اجتهاد بني قومه في تلك الحقبة . ومن هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة برلين تشتمل على خرائط الارض واشكالها والاقاليم الاسلامية مرسومة بالالوان (١) .

ولاي اسحق الاصطخري كتابان في الجغرافيا احدهما مسالك البلدان خال من الخرائط طبع سنة ١٨٧٠ في ليدن . وثانيهما « كتاب الاقاليم » مزين بنسع عشرة خريطة ملونة طبع على الحجر سنة ١٨٣٩ في غوطة . وكان نشره على يد الدكتور مولر من علماء الاستشراق في المانيا . وقد جاءت هذه الخرائط مطابقة بالوانها للاصل الذي أخذت عنه . ومن المصورات الجغرافية ايضاً نذكر كتاب « الجغرافيا

(١) محاضرات المستشرق اغناطيوس غويدي في الجامعة المصرية : صفحة ١٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٩ « ومعجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٦ صفحة ٢٢٥

الغربية ، مؤلفه ابي العباس احمد بن شهبون يحتوي على ثمانى عشرة صحيفة مكتوبة ومخططة بالالوان . ولهذا المخطوط النفيس نسخة معتبرة في « الخزانة الزيدانية » بمكناس (١) .

وطالعنا في الخزانة البارودية ببيروت مخطوطاً عنوانه « تحرير كتاب منالوس » في الاشكال الكردية نسخ سنة ٦٢٢ للهجرة . احتوى رسوماً كثيرة بغاية الضبط على ورق حريري .

ومن شاء الوقوف على مصورات الخرائط التي خلفها جغرافيو العرب باشكالها الغربية والوانها المختلفة احلناه الى انفس كتاب ابرزته مطابع القرن العشرين . وعنوان هذا السفر المنقطع النظير : « المجموعة الكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقية » مؤلفه الجواله الجوابه الامير يوسف كمال من اعظم علماء مصر وأحد افراد الاسرة المالكة فيها . وهي سلسلة مجلدات كبيرة الحجم بدبعة الطبع منقنة الرسوم صدر منها حتى الآن عشرة مجلدات . ولا يزال نشر باقي مجلداتها متتابعاً بعناية هذا الامير الحظير . وقد اهدى سموه مجموعته هذه الكمالية وسائر مؤلفاته النفيسة الى دار الكتب اللبنانية ببيروت . فلسنا نرمي في هذا المقام الا ان نسدي الى سموه عاطفة معرفة الجميل على هذه التحفة الثمينة داعين له بالعمر الطويل والتوفيق المستمر .

على ان للامير يوسف كمال المشار اليه فضلاً على النهضة الفنية في وادي النيل اذ بعثها من الموت بانشائه مدرسة الفنون الجميلة (٢) في عاصمة الديار المصرية .

١٠ - المخطوطات المصورة في العلوم الحربية والبحرية

من اشهر المخطوطات في هذه العلوم كتاب « تعبئة الجيوش » وهو ثلاثة

(١) كتاب « العز والصولة في نظام الدولة » مؤلفه العلامة مولاي عبد الرحمن بن زيدان تقيب الاسرة المالكة في المغرب الانصبي . وكتاب « الدرر الفاخرة » للمؤلف عينه : صفحة ٩٥-٩٦

(٢) تاريخ الفنون لسلامه موسى : المقدمة

فصول تقع في ٣٢ صفحة كبيرة . وتحتفظ بهذا المخطوط مكتبة غوطا عاصمة
دوقية سكس كوبرغ غوطا بالمانيا . والكتاب مزين برسوم متقنة تمثل الاشكال
الحربية من تنظيم صفوف العساكر الى امرائها وقوادها وفرسانها واتباعها مع منزلة
كل فريق في معسكره . وهذه الاشكال موضحة في مربعات او مثلثات او دوائر
او خطوط مستطيلة تدل على نظام محكم وذوق سليم . وقد طبع هذا الكتاب مع
ترجمته الى اللغة الالمانية سنة ١٨٨٠ في غوتنجن بعناية المستشرق وستفلد .

ومن المخطوطات المصورة في العلوم الحربية كتاب «الانيق في المجانيق» منه
نسخة في الحزاة الزكية بمدينة القاهرة تشتمل على ١٠٩ صفحات . وهي مزينة بعدد
لا يحصى من اشكال المجانيق ورسوم القلاع وصور مراكز المجانيق . وقد الفه
الزردكاش سنة (١٤٦٢٥٨٦٧ م) لشمس العلامنكي بغا الشسي .

وفي السنة ١٩٢٧ عرض علينا جماع الكتب المشهور جميل بك العظم ان
نشتري منه كتاباً مزيناً بالصور يبحث عن الفنون الحربية والالعب البدنية .
وعنوانه : «ميدان سياج الملوك وسراج الملوك صنف بخراسان» يترجح عندنا ان
تاريخ كتابته يتراوح بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . ويبلغ عدد
صوره ستاً واربعين صورة ملونة يضاف اليها ستة عشر رسماً لتعبئة الجيوش . غير
ان بعض تلك الصور قد عبثت بها الايدي بقصد اصلاحها فشوهت الاصل فنقصت
قيمتها الاثرية . ولسنا نعلم ماذا طرأ على هذا المخطوط النادر والى ابن انتهى مصيره
بعد وفاة صاحبه .

وفي خزانة مخطوطات الدكتور داؤد الجلي مخطوط بلا عنوان يحتوي بمجموعة
مهية جداً في الفنون البحرية والملاحة . وفي هذا المخطوط صور سفن شراعية
ملونة وكيفية نصب اشراعها وغير ذلك في ثمانين صفحات . وفيه ايضاً دائرة فلكية
ملونة تتفق مع ما يسمونه «وردة الرياح» في هذا الزمان (١) .

(١) كتاب مخطوطات الموصل : صفحة ٢٨٠ .

وفي خزانة كتب مدرسة جامع الباشا في الموصل مخطوط تحت الرقم ١٣٤
عنوانه « كتاب السياسة » ألفه ارسطوطاليس ونقله الى العربية بوحنان بن البطريق .
ففي الصفحة الثمانين منه دائرة ارسطوطاليس المشهورة القائلة « العالم بستان سياحه
الدولة . الدولة سلطات تحيا به السنة الخ » . وقد عني الناسخ برسم هذه الدائرة
وزينها بنقوش ملونة . وبين الصفحة ١١٣ و ١١٤ صفحة عليها صورة آلة ورد عنها
في متن الكتاب ما يلي : « ويجب ان يكون معك الآلة التي اقامها نامسطيوس
للانذار . وهي آلة مفزعة تنطرق في كثير من الامور ، لانك ربما احتجت الى
انذار جميع بلادك وتبني الاجناد فيها ليوم تحتاج اليهم فيه . وهي للعساكر الثقال
وصوتها يسمع من ستمين ميلاً وهذه صفتها (١) .

وفي مكتبة بتروغراد مسودة عربية قديمة فيها صورة رجلين عربيين يشتغلان
في صنع الاسلحة النارية . احدهما يحمل ما يشبه البندقية وفيها القنبلة والبارود
داخلها . وقد ادناها من هيب امامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة . والثانية
صورة فارس يحمل قناة ملفوفة بقماش ذي اهداب لتلف بالنفط وترمي على الاعداء
حين الاقتضاء . وبجانب الفارس رجلان ماشيان على يديهما ، وبدنه وبدن فرسه نسيج
ذو اهداب يستخدم للنفط حين الحاجة (٢) .

ومن المخطوطات المصورة في الفنون الحربية نذكر كتاب « التذكرة الهروبية »
في مكتبة « ايا صوفية » بالاستانة . وكتاب « العز والمنافع في الغزو والمدافع »
لمؤلفه ابراهيم بن احمد الاندلسي في المكتبة الكوبريلية في اسطنبول (٣) .

وفي مكتبة « طوب قبو » الشهيرة في اسطنبول مخطوط عنوانه « النموذج
القتال في نقل العوال » اي الرماح . تأليف ابن ابي حجلة التلمساني المتوفى سنة ٧٧٦

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٨ صفحة ٧٠٣

(٢) المجلة السورية : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٣-٣٢٤

(٣) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٣-٣٢٤

الهجرة (١٣٧٤ م) . وهو مجوي رسوم مناصب كثيرة لترتيب الجنود
في القتال .

١١ - المخطوطات المصورة في العلوم الصناعية والميكانيكية

وصفت مجلة المشرق (١) كتاباً عربياً في الصنائع الميكانيكية عنوانه :
« الحيل الرومانية ومخانيقا الماء » لفيلون البوزنطي احد تلامذة مدرسة
الاسكندرية القديمة . وقد نشره بالطبع احد كبار المستشرقين البارون كارا دي فو
في مجموع مقتطفاته عن مخطوطات مكتبة باريس ونقله الى الفرنسية وافتحه
بمقدمة شرح فيها تاريخ هذا الكتاب العجيب وكل ما يتعلق به . ثم اضاف اليه
ملحقات منها وصف آلة لاصعاد الماء . ولهذا الكتاب نسختان خطيتان احدهما في
مكتبة آجيا صوفيا بالقسطنطينية والاخرى في مكتبة او كسفورد . وهو منقول
الى اللسان العربي عن الاصل اليوناني في عهد الخليفة المأمون . وغلب على ظن
الناشر ان المعرب نصراني من النقلة المشهورين في ذلك العصر . ولاحظ في الترجمة
عدة الفاظ دخيلة منها سريانية ومنها فارسية .

وفي السنة ١٨٧٠ نشر العلامة فالنتين روز نبذة من هذا التأليف كانت ترجمت
الى اللاتينية . وبعد استقصاء البحث عن اصلها تحقق الخبراء انها مستخرجة من
العربية فطفقوا يجدون في البحث عن ذلك الاصل العربي فكتب التوفيق للبارون
كارا دي فو الموما اليه ان عثر على المخطوطين المذكورين . وقد وصف الكتاب
وصفاً مشبعاً وادى للعلم والعلماء خدمة يشكر عليها مدى الاجيال .

ويتضمن هذا الكتاب وصف ٦٥ آلة مصورة . اكثرها آلات غريبة عجيبة
تدهش الناظر صناعتها . وتمثل صوراً جمّة كالطيور الصافرة والميضأة السحرية

(١) المجلد السابع ١٩٠٤ صفحة ٢٦٥-٢٧٢

والتنين الصناعي الخ . وهي مبنية على مبدأ الممص (syphon) او السحارة في الطبيعيات الا قليلاً منها قال « المشرق » ما نضه : « وبعض الآلات يسمع لها غناء او صفير . وبعضها تحدع ناظرها لما في باطنها من القساطل الخفية او لتعدد طبقاتها . مثال ذلك آلة وصفها في العدد ٥٩ وهي تمثل حوضاً بجانبه انسان وييده حربة . وفوق الحوض صورة تنين كأنه يريد ان يشرب من الحوض . فاذا واجه الانسان التنين امتنع التنين عن الشرب كأنه يخافه . واذا ادبر رأيت التنين يمتص ماء الحوض . ويكون شربه قليلاً او كثيراً حسب قوة الماء . والصورة الثانية التي ترى في الصفحة ٢٧٠ تبين تركيب هذه الآلة وقساطلها الخفية » .

وفي الخزانة المملوكة مخطوط في دفع الاشياء الثقيلة تأليف ايرون او هيرون الفيلسوف اليوناني الاسكندردي . وقد انشأه مؤلفه في اليونانية مصوراً ونقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي الفيلسوف المتوفى سنة ٩٢٣ م . وهو مجموع اربعين رسالة في الآليات اهمها جرت الانتقال . وقد اطلعنا على هذا المخطوط البديع فوجدناه مزداناً بصور رائعة تلفت الانظار (١) .

١٢ - الصور في مخطوطات النجامة والعلوم السحرية

اننا عثرنا على بعض المخطوطات المصورة التي تبحث في النجامة والاسرار والسحر وعلم الحروف وما شاكلها . وعرفنا اسما مخطوطات غيرها تتناول هذه المواضيع وهي موجودة في خزائن اوروبا وبعغداد وفي دار الكتب المصرية . ولما كان هدفنا الايجاز في كل ما ندونه من الابحاث فقد اقتصرنا على مخطوطين نفيسين محفوظين في خزائنا الطرازية اليك وصفهما في ما يلي :

اولهما « الدر المنظم في السر الاعظم » مكتوب ببحرين اسود واحمر ومزين ببعض النقوش الجميلة ألفه الشيخ كمال الدين ابي سالم محمد بن طلحة . وهو يشتمل

(١) فهرس مخطوطات الخزانة المملوكة : رقم ١٨٦٣

على ثلاث وعشرين صورة ملونة يمثل كل منها موضوعاً مستقلاً عن الآخر مع شرح ذلك شعراً ونثراً .

ثانيهما عنوانه « كنز الاسرار وذخائر الابرار » او « الحقائق الاسرائيلية والدقائق الابراهيمية » في علم الحروف ألفه عبد الرحمن بن محمد بن علي بن احمد الحنفي البسطامي . صفحات هذا المخطوط النادر كلها مزدانة باطار مذهب وپرتقي عهد نساخته الى سنة ١٠٤٤ هجرية . وهو يجوي عدداً وافراً من الدوائر والمربعات والحيوانات والرموز والارقام والحروف وغيرها من المصوّرات الغريبة الاشكال التي لم نعتز على نظيرها في مخطوط سواء .

١٣ - المخطوطات المصورة في الهندسة

قال احد ارباب العلوم الهندسية : الرياضيات افخم بناء شيده عقل البشر . فالرياضيات رغماً عن علو مقامها اذا زاول فنونها رجال من ذوي الخبرة والحذق ربما اتت باعمال عجيبة تحلب العقول وتأخذ بجامع القلوب . وقد اجاد العرب في رسم المخطوط الهندسية وضعوها على صور شتى واشكال متعددة لا يتالك ناظرها الا ان يفتي بتقدمهم وبراعتهم في هذا الفن . وقد جمع بعض كبار المستشرقين ما وجدوه من هذه التصاوير الغربية والمخطوط العجيبة التي جرى عليها العرب في تركيب الفسيفساء والتطعيم والنقوش المختلفة . ولاحد هؤلاء العلماء المسيو بورغوان (J. Bourgoïn) كتاب بديع في باب اودعه ١٩٠٠ صورة هندسية نقلها عن نقوش عربية قديمة وطبعها في باريس سنة ١٨٧٩ ودعاها « اصول الفن العربي » (Les éléments de l'art arabe) . وكل هذه التصاوير مرجعها الى خطوط بسيطة اصطنعها العرب بالقاعدة والبيكار تروق العين مع اشتباكها وتداخل بعضها في بعض . وهي مبنية على خواص الاشكال المتعددة الزوايا من خمس الى ١٢ زاوية . ولكل صنف اقسام متعددة تنقسم اليها هياكل بديعة .

وكان العرب اذا رسموا هذه الخطوط يعمدون الى الاصداف او العاج او
الحجارة المتلونة يركبونها على الشكل الهندسي فتكون غاية في الحسن . وقد
الحق المسيو بورغوان كتابه بعشر صور ملونة تظهر فيها الاشكال الهندسية السابق
نقلها عن اعمال قديمة من الشبة والحديد والفسيفساء والحشب عثر عليها في الشرق
لا سيما في القاهرة ودمشق (١).

ومن كتب «الهندسة» المصورة التي وقفنا عليها متن مشروح قدمه
مؤلفه الى الغ بك بن تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) ملك التتر . وهي نسخة
نقيسة الخط في ٥٦ صفحة على مثال اقليدس الصوري . وهذا المخطوط من اصل
مخطوطات الخزانة البارودية في بيروت وقد بيعت بمخطوطات هذه الخزانة من
جامعة برنستون في الولايات المتحدة .

ومن ذلك «مجموعة في الحكمة والهندسة» في جزئين : يبحث الجزء الاول في
الحكمة العملية والحكمة النظرية والطبيعية والفلكيات والعنصریات والالهييات .
وهو موشى من الصفحة الاولى حتى الصفحة ٢٠٨ برسوم متقنة وحواش ملأت
الموامش . اما الجزء الثاني فيشتغل على ٤١٢ صفحة تبحث في الهندسة . وهو
مشحون ايضاً برسوم بديعة تدل على تضلع كاتبه من العلوم الرياضية (٢) .

١٤ - المخطوطات المصورة في علم النبات

حدثنا ابن ابي اصيبعة (٣) عن رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩ للهجرة
وعن كتابه «الادوية المفردة» المزين بالصور النباتية قال :

(١) المشرق : مجلد ٥ سنة ١٩٠٢ صفحة ٤٠٥-٤٠٦

(٢) فهرس المخطوطات المملوكية بزحلة : رقم ١٨١٤

(٣) طبقات الاطباء : جز ٢٠ صفحة ٢١٩ طبعة القاهرة عام ١٨٨٢

ولرشيد الدين بن الصوري من الكتب « كتاب الادوية المفردة » وهذا الكتاب بدأ بعمله في ايام الملك المعظم وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الادوية المفردة. وذكر ايضاً ادوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون. وكان يستصحب مصوراً ومعه الاصباغ والليق على اختلافها وتنوعها. فكان يتوجه رشيد الدين المذكور الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اخص كل منها بشيء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه واغصانه واصوله ويصور بحسبها ويجهد في محاكاتها . ثم انه سلك ايضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً وذلك انه كان يُري النبات للمصور في ايات نباته وطرأوته فيصوره . ثم يُريه اياه ايضاً وقت كاله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك . ثم يريه اياه ايضاً في وقت ذواه وييسه فيصوره . فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء ما يمكن ان يراه به في الارض فيكون تحقيقه له ومعرفته له ابين .

وروى لنا احد الادباء ان المكتبة الاحمدية في حلب كانت تشتمل بين مخطوطاتها على كتاب « النبات » لابي حنيفة الدينوري . وقد عني به مؤلفه عناية عظيمة فصور النباتات التي بحث عنها تصويراً مدققاً ولون اوراقها وازهارها وجذوعها بالوانها الطبيعية . وقد سُرق هذا الكتاب من المكتبة « الاحمدية » وبيع الى المتحف البريطاني ببلغ مائتي جنيه انكليزي . فكان الاسف عليه شديداً في جميع انحاء الشرق لان هذه النسخة الحلبية الباقية من تراث الآباء هي الوحيدة في العالم كله (١) . وتملك دار الكتب الاهلية في باريس مخطوطة في النبات كتبت بالاندلس في القرن الثاني عشر للميلاد وزينت برسوم نباتية نفيسة . وفي هذه المكتبة ايضاً مخطوطة اخرى نسخت في اواخر القرن الثالث عشر واحتوت على صور نباتات طبية مرسومة بدقة وبراعة تدعوان الى الدهش والاعجاب (٢) .

(١) كتب لنا عن سرقة هذا الكتاب عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد في حلب بتاريخ ٢٠ حزيران ١٩٣٨

(٢) Le siècle médical à Paris 1er Juillet 1938

وفي مكتبة «ابصونيا» في اسطنبول مخطوط مصور عنوانه «ترجمة كتاب الحشائش» لديسقوريدوس في ثلاثة اجزاء (١). ولعله نفس المخطوط الذي وصفه الاب لويس شيخو بقوله (٢) : «كتاب النبات لديسقوريدوس عربي» حين ابن اسحق مع تصاوير دقيقة ملونة لاشكال النبات .

وفي المكتبة البلدية بالاسكندرية جزء من كتاب «مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري خاص بالنبات ومصور بالالوان (٣).

١٥ - المخطوطات المصورة في علم الموسيقى

من المصاحف العربية النادرة مخطوطات الموسيقى والاندر فيها ما ازدان بالرسوم والصور . فقد عثرنا من هذا القبيل على مخطوط عنوانه «علم الموسيقى وعلم التأليف والخواص من علوم الفلسفة النظرية» . وهو يشتمل على ثمانين مقالات تقع في نحو ٢٦٠ صفحة تصفحناه في الحزنة البارودية ببيروت وقلبتنا من اوله الى آخره ، فاعجبنا ما احتواه من الصور والاشكال وعلامات الايقاع والنبوة والنغم . وقد ضبطها الناسخ على اكمل ما يكون من جودة القرطاس والمداد وجمال الخط واتقانه . اما مؤلفه فمجهول وينسبه بعضهم الى ابي نصر الفارابي .

وفي الحزنة المملوكية بزحلة «ازجوزة في الانغام» للشيخ جمال الدين ابي محمد عبدالله المارديني . يليها شرح النغمات ثم ذكر الانغام واصولها وفصول في الموسيقى ودائرتان للانغام بديعتان مصورتان . وفي الحزنة ذاتها مخطوط «كشف الهوم والكرب في شرح آلات الطرب» للمشهدى زين بنصاوير لطيفة .

ومن هذا القبيل نذكر مخطوطاً مصوراً موضوعه «الآلات المنغمة» كانت

(١) نوادر المخطوطات لاحد تيمور باشا - الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٨

(٢) سياحة حديثة الى جهات اوروبا : بقلم الاب لويس شيخو - المشرق : ٧ سنة ١٩٠٤ صفحة ١٠٦٥

(٣) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٣٠

تملكه الجمعية الخيرية الارثوذكسية في بيروت . وقد نشرت مجلة المشرق بعض رسومه الملوّنة (١) .

ونحوي مكتبة «طوب قبو» في اسطنبول مخطوطاً في الموسيقى عنوانه «الرسالة الشرقية في النسب التأليفية» لعبد المؤمن بن الصفي البغدادي . وهو بالقطع المتوسط فيه جداول ملوّنة وعلامات موسيقية بحروف عربية . وفي خزانة «طوب قبو» ايضاً مخطوط عنوانه «كشف الهوموم والكرب في شرح آلة الطرب» تأليف محمد بن علي المشهدي الانصاري . حوى ثلاثة عشر رسماً بالالوان تمثل اشخاصاً ينقرون آلات موسيقية . وقد ورد في هذا المخطوط ما نصه : «كتبت برسم الخزانة العالية المولوية المحترمة المخدوميه السيّفة سيف الدين ابو بكر ابن المقر المرحوم منكلي بغا الفخري» . وفي هذا المخطوط رسوم العود والقانون والربابة والقيثارة وسائر آلات الطرب والمعازف .

وحوت الخزانة المملوكية مخطوطاً عنوانه «سفينه موسيقية» انطوى على صور دوائر الانغماس في غاية الاتقان مع ارجوزة في الانغام . واشتمل ايضاً على ابواب في الموسيقى وبرهانها وتأثيرها ورأي اهل الطرب فيها (٢) .

١٦ - المخطوطات المصورة في علم الفلك

كان نصيب المخطوطات الفلكية ذات الصور اوفر من نصيب المخطوطات المصورة التي خلفها العرب في سائر المواضيع العلمية . فانهم توسعوا فيها لتوضيح النصوص وجلاء الغوامض للقراء والراغبين في العلم . وقد وقفنا على عدة مخطوطات من هذا القبيل تقتصر منها على وصف بعضها بالايجاز وهي :

(١) مجلة الآثار : لبس الملوّف في زحلة : مجلد ٣ : ١٩١٤ : صفحة ٤٢٣

(٢) مخطوطات الخزانة المملوكية بزحلة : رقم ١٨٤٢

كتاب « نهاية الادراك في دراية الافلاك » مؤلفه قطب الدين محمد بن مسعود الشيرازي. وهو ينطوي على صور فلكية اهمها صورة كسوف الشمس. فلما تكلم المؤلف عن هذا الكسوف زين المتن بصورة القمر والشمس في اعلاه ووضع الارض في اسفله. ثم رسم دائرة كبرى كتب على محيطها الفلك الممثل ومرّ محيطها بمركز الشمس. ونقش داخلها دائرتين متساويتي القطرين تقابل محيطاهما في مركز القمر. وكتب على محيط اليسرى منها منطقة تمثل القمر وعلى اتجاه مركز الشمس رسم الارض مبيّناً مركزها. اما على محيط الارض فاختار موضع الناظر واظهر مخروط القمر ومخروط الظل.

ووقفنا كذلك على مخطوط عنوانه « صور الكواكب » صنفه عبد الرحمن ابن عمر الطوسي يرجع تاريخه الى منتصف القرن السابع للميلاد. ففيه يجد القارىء صورة نسرين كتب المؤلف فوق صورة احدهما ما اوله : « المجرّة عند القدر الخامس بينهما مقدار شهر من رأس العين ... » وحلّى المؤلف كل نسرين منها بعدد الكواكب المشرقة في بدنه وجناحيه وذيله ومخالبه (١).

واطلعنا على مخطوطين بعنوان « صورة الكواكب » ايضاً انشاء احمد تيمور باشا المصري : احدهما في خزائنه التيمورية وثانيهما في الخزانة الاحمدية بحلب وهما في غاية الندرة (٢).

وفي مكتبة السيد هبة الدين الشهرستاني ببغداد مخطوط في « النجوم » لابي ربحان البيروني. وهو قديم العهد مزين ببعض الرسوم الملوّنة.

واطلعنا على بعض مخطوطات فلكية مصورة في المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ببيروت. نذكر منها (٣) : كتاب « شرح الجفيني في الهيئة » حوى

(١) التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية : للدكتور احمد موسى : مجلة الرسالة في القاهرة

لاحمد حسن الزيات : سنة ٦ صفحة ٨٣١-٨٣٣

(٢) الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٩

(٣) الشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ صفحة ١١٢٨-١١٣٠

اشكالاً فلكية محكمة. و «مجموع كبير» تضمن عدة كتب فلكية قد زين صدره بصورة الارض ملونة مع صور دوائر الفلك المحيط والكواكب وصورة فلك البروج وكسوف الشمس. وكتاب «توضيح التذكرة» وهو شرح كتاب «التذكرة في علم الهيئة» لنصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ للهجرة (١٢٧٣ م). وفي هذه المخطوطة اشكال عديدة حمر وسود.

ولا تخلو مكتبة الشرفة ببلبنان من مخطوطات فلكية بهذا الشكل، منها مجلد ضخم عنوانه «علم الفلك والاسطرلاب»، رقمه ١٨/١ حوى ابحاثاً ضافية عن الفلك والهيئة والحساب، ضمت اليها زهاء عشرين صورة بينها صورة الزوجة السبئية. وقس عليه مخطوطاً آخر عنوانه «كتاب اقليدس ونبدشتي» وهذا المخطوط عتيق مجلد بحشب تبلغ صفحاته ٤٨٠ صفحة (١).

واطلعنا في الحزارة البارودية ببيروت على مخطوط عنوانه «القرعة المأمونية» في الابراج واستخراج المصمرات. وهو مصور بجداول ودوائر جميلة الرسم والخط كتب منذ اكثر من خمسة قرون. وشاهدنا في الحزارة نفسها «شرح تذكرة نصير الدين الطوسي» في الفلك تأليف السيد الشريف الجرجاني. وهو موسى بصور متقنة على ورق حريري نسخ سنة ٨٩٥ للهجرة، في مدينة بروسة.

ومن هذا القبيل مخطوط عنوانه «شرح الملخص في الهيئة» لمحمود بن محمد بن عمر الجفيعيني الحوارزمي. وقد علق حواشيه الشيخ فصيح الدين. وهذا المخطوط الذي يجوي ثلاثين رسماً مكتوب في السنة ١١٥١ للهجرة (١٧٣٨ م) وهو محفوظ في الحزارة الطرازية ببيروت. ونرجح ان هذا المخطوط يشابه مخطوط الجفيعيني المحفوظ في المكتبة الشرقية كما سبق الكلام.

واحتوت الحزارة المعاوية في زحلة ببلبنان على بعض مخطوطات فلكية اولها: مقالات القديس يوحنا الدمشقي وبعض منطقه في مخطوط قديم جداً مخروم الاول

(١) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة: صفحة ٢٧١-٢٧٤

والآخر . ففي مقالة الافلاك صورة زيتية بديعة وصورة الشمس بشكل اسد ، فالزهرة بشكل امرأة الخ . وثانيها مخطوط عنوانه « صور الكواكب » لابي الحسين الصوفي ، يتضمن رسوماً بديعة تمثل الحيوانات التي سميت بها بعض النجوم والكواكب كالاسد والثور والحمل والجدي والسرطان والعقرب . وثالثها « شرح الجفميني » لقاضي زاده في علم الفلك . وهو متقن الرسوم والاشكال جميل الخط والحواشي .

١٧ - المخطوطات المصورة في الفروسية والصيد والبيطرة

كان لهذه الفنون عند العرب شأن خطير في سالف الزمان . وكان لملوكهم عناية بها يخرجون في مواكب يطلق على اميرها لقب امير شكار . وبياناً لكلف ملوك العرب وامرائهم بالحيل فان بعضهم التفت فيها رسائل مفيدة وكتباً مستجادة ، نذكر منهم علي بن داؤد من بني رسول ملوك اليمن (٦٢٦ - ٨٤٥ هـ) فانه خلف كتاباً عنوانه « الاقوال الشافية » منه نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية بالقاهرة . والتفت الامير محمد باشا ابن الامير عبد القادر الحسني الجزائري كتاب « نخبة عقد الاجياد في الصافنات الجياد » المطبوع في بيروت سنة ١٣٢٦ للهجرة .

اما المخطوطات المصورة في الموضوع المتقدم ذكره فاننا عرفنا منها بدار الكتب المصرية كتاب « نهاية السؤل والامنية في تعليم الفروسية » ، ومنها كتاب « الزردقة » في معرفة الحيل واجناسها وامراضها . وعرفنا في مكتبة خليل آغا بطنطا كتاباً في « البيطرة » ملون الصور (١) .

وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوط قديم عنوانه « الحيل وشباتها وصفاتها » يحتوي على صورة فرس مولود بالعيوب وعلى اسماء عيوبه (٢) .

(١) المخطوطات النادرة : بقلم احمد تيمور باشا - الهلال : مجلد ٢٨ صفحة ٣٢٤-٣٢٥

(٢) تاريخ الطب عند العرب : لمبى الملووف : صفحة ٦٤-٦٥

الباب السادس عشر

رزايا الكتب والمكتبات

توطئة

نظرة اجمالية في رزايا الكتب والمكتبات

لا يخلو عصر من العصور قديماً وحديثاً لم يسع فيه حلول نكبة بالكتب والمكتبات . ولا نعرف بلداً على وجه البسيطة شرقاً وغرباً خلا من مثل هذه الرزايا . فالكتب والمكتبات خاضعة كسائر المخلوقات لسنة الهناء والشقاء او قصر العمر وطول البقاء . وهي كسائر المخلوقات ايضاً يتنازعها الصديق الوفي الذي يعمل على منفعتها والعدو اللدود الذي يسعى في ابقاع الاذى بها .

مر بنا في الابحاث السابقة ان اسهينا الكلام عن العلماء وانصار العلوم من الملوك والوزراء والكبراء الذين انشأوا خزائن الكتب وشيدوا معالمها وجهزوها بكل نادر ونفيس . ثم وفيناهم حقهم من الثناء على ما بذلوه من الجهود وانفقوه من الاموال لتعزيز دور الحكمة التي اشتهر امرها في الخافقين . فامثال هؤلاء يجب ان نسيهم بكل صواب اصدقاء الكتب والمكتبات ونسجل مآثرهم بمداد الفخر على صفحات الدهر .

مثلاً قضى علينا العدل بتدوين فضل اولئك الاصدقاء الاوفياء كذلك يقضي علينا العدل ذاته ان لا نضرب صفحاً عن ذكر الرزايا التي اصابته الكتب والمكتبات

اقراراً بالحقيقة وخدمة للتاريخ . وتُعزى تلك الرزايا الى اعداء المكتب الذين حاربوها بوسائل الاتلاف المختلفة كالحريق والغرق والتدمير والنهب . يضاف الى ذلك كوارث اخرى لا تقل ضرراً في محاربة الكتب كالحوادث الجوية والزلازل الارضية والعتّ والسوس والرطوبة وغير ذلك من الآفات الناجمة عن عوامل طبيعية او عن اهمال تنظيم المكتبات وعدم العناية بها .

وكان احتراق الكتب شائعاً بنوع خاص في القرون الغابرة انتقاماً من عدو او نكابةٍ فيه . فكانت كل دولة تفتح بلداً تحرق ما فيه من الكتب او تعدمها بطرق شتى كي لا تبقي اثراً لحضارة من تقدمها من الدول . ولنا على ذلك شواهد راهنة لا تحصى في تواريخ الاقدمين والمتوسطين والمتأخرين . بل كان اهل كل شعبة او ملة يحرقون كتب من خالفهم في الدين او المذهب او الجنس او اللغة او السياسة .

الفصل الاول

طمر مكتبة هر كولانوم بالبركان

١ - مركز مدينة هر كولانوم وانطاسها بالحجم البركانية

كانت هر كولانوم ويقال لها اليوم «بياي» مدينة «عامرة» واقعة في سفح جبل الفازوف بإيطاليا . وفي السنة ٧٩ قبل الميلاد ظهر بركان هائل في الجبل المذكور . فاندلعت نيرانه ومدت على المدينة بمرمتها كفنّاً من الرماد والحجم بلغ سمكه عشرين متراً . هكذا انطمست تلك المدينة الزاهرة وامست بما فيها لثراً بعد عين .

٢ - اكتشاف بقايا مكتبة ارستيد الفيلسوف تحت رماد هر كولانوم

وفي السنة ١٧٥٢ شقت معاول العملة تلك الارض فبان للعيان مدينة رومانية جامعة لكل اسباب الحضارة والرفاهية . ومن جملة ما اكتشفوه في احد منازلها مكتبة واسعة لأرستيد الفيلسوف الذي اشتهر في القرن الخامس قبل المسيح . وقد بقي منها ١٨٠٦ مدارج من ورق البردي . فجمعها اولئك العملة بحرص واعتناء وأقبل الاثريون على قراءتها . فكفّوا منها ١٢٠٦ مدارج جعلوها على ٢٨٠٠ لوح حفظ منها تحت الزجاج ثمانمائة قطعة ولصق الباقي على مقوى (١) . اما تلك المدارج فتتضمن مقالات فلسفية ومقاطع ادبية ومواضيع تاريخية وعلمية . ذلك ما عثر عليه العملة من بقايا تلك المكتبة العظيمة القديمة العهد . لان جانباً كبيراً منها اندثر بالحجم البركانية او بلي بتوالي الاعصار .

(١) الاكتشافات البردية : بقلم لويس جلابرت (المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ صفة ١٤٦)

الفصل الثاني

إمبراطور البرابرة والملوك الفرما على المكتبات

١ - احراق نبوخذ نصر ملك بابل تواريخ الملوك الاقدمين

من أقدم الملوك الذين ناصبوا المكاتب روى التاريخ اسم نبوخذنصر الذي احرق في القرن السادس قبل الميلاد تواريخ من تقدمه من الملوك زاعماً انه يخلد بذلك ذكره وتاريخ ملكه (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م.).

٢ - احراق داريوش الفارسي مكتبة آثينا

وفي القرن الخامس قبل المسيح اجتاح داريوش الاول ملك الفرس (٥٢١ - ٤٨٥ ق. م.) بلاد اليونان وأخضعها لصولجانه . وقد أحرق حين ذاك المكتبة الشهيرة في اثينا . وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس (١) .

٣ - احراق الاسكندر الكبير كتب الفرس

لما دوتخ الاسكندر ذو القرنين (٣٥٦ - ٣٢٣ ق. م.) مدينة ااصطخر عاصمة الفرس قوض أبنيتها وشوه نقوشها . ثم استنسخ ما كان مجموعاً في الدواوين والحرائث هناك ونقله الى اللسانين اليوناني والقبطي . ولما فرغ من استنساخ ما انتقاه

(١) محاضرات الجمع العلمي العربي بدمشق (محاضرة ابيس سلوم في الكتب والمطالمة) : صفحة ٢٦٣

أحرق جميع الكتب الفارسية بعدما أخذ ما كانت يحتاج إليه من علوم النجوم والطب والطبائع . وبعث به وبساتر ما أصاب من العلوم والاموال والخزائن الى بلاد مصر (١) .

٤ - احراق عاهل الصين كتب مملكته

في السنة ٢١٣ قبل المسيح أصدر عاهل الصين (هي - هونك - تي) المشهور بكرهه للعلوم امراً باحراق جميع الكتب الموجودة في انحاء مملكته . انما استثنى منها توارينخ اسلافه وكتب الطب والتنجيم .

٥ - ابادة البرابرة مكاتب الرومان واليهود والنصارى

وأباد البرابرة جميع المكتبات التي أسسها قياصرة رومية ولاسيا اوغسطس قبصر . كالمكتبة الاوكتافية ومكتبة ابولون وغيرهما من المكتبات التي كلفت القناطير المنقطرة من الذهب (٢) . وكانت قياصرة رومة بدورهم يحرقون بلاشفقة خزائن كتب اليهود والمسيحيين . وكان هؤلاء يحرقون كتب الوثنيين كما ان المسلمين كانوا يتلفون مكاتب من لا يدين بدينهم وعلم جراً .

٦ - شهادة الكتاب المقدس على المسيحيين باحراقهم كتب السحر

سلك المسيحيون الاولون مسلك من سبقهم في احراق الكتب . يؤيد ذلك

(١) الفهرست لابن النديم : صفحة ٢٣٩ والآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني الخوارزمي :
طبعة ليبسيك : صفحة ١٢٩
(٢) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٦٠-٦١

ما اثبتته الكتاب المقدس (١) في عهد الرسل اذ قال : « وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون معترفين ومخبرين بأعمالهم . وكثيرون من الذين استعملوا السحر أتوا بكتبهم واحرقوها امام الجميع . وحسب ثمنها فوجد يبلغ خمسين الفاً من الفضة »

٧ - تأييد عمار البصري احراق النصارى كتب السحر

عاش عمار البصري احد ائمة النساطرة في القرن الحادي عشر للميلاد كما روى العلامة السمعاني (٢) . وخلف مصنفات جليلة اشهرها كتاب « المسائل والاجوبة » اورد فيه ما نصه قال (٣) :

« اما خيالات السحر فقد تضمنت كتب النصارى التحذير من اصحابها والاحراق لكتبها . ففي الانجيل قال : احذروا من الانبياء الكذبة ومن ثمارهم فاعرفوهم (٤) . وفي الابركسيس (اعمال الرسل) قال : ان الذين آمنوا في اول الدعوة احضروا الى الرسل كتب السحرة فأحرقوها وكانت قيمتها خمس ربوات فضة (٥) . والمراد بالربوة عشرة آلاف عند اهل الحساب .

(١) اعمال الرسل : فصل ١٩ عدد ١٨ و ١٩

(٢) المكتبة الشرقية : مجلد ٣ صفحة ٦٠٨

(٣) المسائل والاجوبة : مخطوطة دير الشرفة : ٤٠٥ - ٤٠٥ صفحة ١٢٥

(٤) انجيل متى الرسول : فصل ٧ عدد ١٥ و ١٦

(٥) كذا « خمس ربوات » طبقاً للنسخة السريانية المشهورة بالبيطة

الفصل الثالث

حريق مكتبات الاسكندرية والقسطنطينية وقبصرية فلسطين ورومن

١ - حريق مكتبة المتحف الاسكندري

في السنة ٤٨ قبل المسيح أنلفت بالحريق مكتبة المتحف الاسكندري التي أنشأها على ما هو مرجح سوتير (١) اول ملوك البطالسة . وكان عدد كتبها بالغاً سبعمائة الف مجلد تبعاً لرواية المؤرخ اولوجال الروماني . اما المؤرخ تيت ليف على ما روى سينكا الفيلسوف فذكر ان عدد الكتب لم يتجاوز اربعمائة الف مجلد (٢) .

٢ - حريق مكتبة السيراييوم في الاسكندرية

انشئت في الاسكندرية مكتبة السيراييوم وسُميت «المكتبة الفتاة» لانها كانت اصغر من مكتبة المتحف الاسكندري السابق ذكرها . وقد ذاع صيت مكتبة السيراييوم في الخافقين ولم يزل الاسف على احتراقها شديداً عند علماء الشرق والغرب . فمن قائل ان القيصر الروماني ثودوسيوس الاكبر (٣٧٩-٣٩٥م)

(١) سوتير او سوطير هو لقب بطلميوس الاول مؤسس دولة البطالسة في مصر وكان ملكه منذ السنة ٣٢٣ حتى السنة ٢٨٣ قبل الميلاد (التاريخ القديم : لهارفي بورتر : صفحة ٣١١)
(٢) الشرق : مجلد ١٤ سنة ١٩١١ صفحة ٣٩١

أمر باحراقها عام ٣٩٠ للميلاد باغراء ثيوفيلس البطريرك الاسكندري (١) ومن قائل انها أحرقت عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية كما اثبت عبد اللطيف البغدادي (٥٥٥ - ٦٢٩ هـ) وجمال الدين القفطي (٦٤٦ هـ) وابو الفرج ابن العبري (١٢٨٦ م). ومن قائل خلاف ما اوردها في الروايتين المذكورتين. ونفى غيرهم نسبة هذا الحريق الى العرب على يد عمرو بن العاص لأمر وردّه في ذلك. ولما كان يتعذر البتّ في هذه القضية التي حمي وطيس الجدل بسببها في الكتب وعلى صفحات المجلات فاننا نتردد فيها بين الايجاب والسلب. ولا نتسرع في الحكم ريثما تنكشف الحقيقة ويأتينا اهل البحث بمجيب راعنة تزيل كل الشبهات.

٣ - حريق المكتبتين الملكيتين في القسطنطينية

في السنة ٤٧٧ للميلاد التهمت النيران خزانة الكتب التي شادها قسطنس الثاني (٣٥١ - ٣٦١ م) ابن قسطنطين الكبير في عاصمة مملكته. وكانت تشتمل على مائة وعشرين الف مجلد من المخطوطات الثمينة فاحترقت برمتها. ثم أنشئ على انقاضها مكتبة ملكية ضمت ثلاثة وثلاثين الفاً وخمسمائة مخطوط. وكان خزانها الباع الاطول في المحاماة عن الديانة المسيحية.

ولما تولى لاون الثالث الايسوري (٧١٧ - ٧٤١ م) عرش القسطنطينية وكان عدواً للاقليس ومضطهداً للايقونات ووجد في عمّال المكتبة خصماً شديداً لدوداً. فانتقاماً منهم احرق المكتبة عام ٧٢٦ للميلاد بما فيها ومن فيها من الخزائن والنساج والحدام (٢).

٤ - حريق مكتبة بمفيل البيروتي في قيصريه فلسطين

وما حل بمكتبتي الاسكندرية ومكتبتي القسطنطينية من الرزايا حل بغيرها

(١) زبدة الصحائف في اصول المعارف: بقلم نوفل نوفل: صفحة ٣٨

(٢) مجلة الآثار: مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣٢-٣٣٣

من المكتبات القديمة التي ورد ذكرها في التاريخ ودخلت في خبر كان . ومن أشهرها المكتبة التي أنشأها بئيل البيروني (+ ٣٠٩ م) في قيصريه فلسطين . وكانت تشمل طبقاً لرواية ايسيدورس على ثلاثين الف مخطوط (١) في ثني الفروع العلمية والدينية . وفي طلبعتها «مجموعة الكتاب المقدس» في خمسين مجلداً للعلامة اوريجانيس (١٨٥ - ٢٥٤ م) معجزة الدهور (٢) .

٥ - حريق خزان كتب القيصر في رومة

اثبت جالينوس الفيلسوف في كتابه «نفي الغم» انه احترق له كتب كثيرة في خزان القيصر العظيم بمدينة رومة . وكان بعضها بخط ارسطوطاليس وبعضها بخط انكساغورس واندروماخوس . وصحح جالينوس قراءتها على معلميه الثقات وعلى من رواها عن افلاطون . ثم سافر الى مدن بعيدة حتى نصح اكثرها . وذكر من جملة ما ذهب له في هذا الحريق كمية وافرة من كتبه التي صنعها ولم يكن لديه نسخة سواها . وقد اتلف له هذا الحريق عينه اشياء كثيرة سردها في كتابه المشار اليه . وقال المبشر بن فانك ان جملة ما احترق جالينوس في هذه الكارثة «كتاب روفس» في الترياقات والسموم وعلاج المسمومين وتركيب الادوية بحسب العلة والزمان . ومن مميزات كتب جالينوس انها كانت موشاة بديباج ابيض وحرير اسود . وانفق عليها مالا كثيراً (٣) .

٦ - احراق كتب نيت ليف في رومة

وُلد نيت ليف المؤرخ الروماني سنة ٥٩ قبل المسيح وامتدت حياته الى السنة التاسعة عشرة للميلاد . وقد اشتهر بتاريخ وضعه عن مدينة رومة سماه «Décades» يستعذب الكتاب الافرنج قراءته لبلاغة عباراته وجزالة معانيه . ويقال ان البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠-٦٠٤ م) جمع طائفة كبيرة من تأليف نيت ليف فاحرقها احتقاراً لمؤلفها (٤)

(١) تاريخ سوريا : لطران يوسف الدبس : مجلد ٤ : صفحة ٦٥

(٢) مجلة «الصحرة» في القاهرة : مجلد ٣ سنة ١٩٤٠ : صفحة ٢٠٨

(٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اسيمية : جز ١ : صفحة ٨٤-٨٥

(٤) اعداء الكتب : بقلم جرجي سكك : صفحة ٣

الفصل الرابع

احراق كتب الاراميين والبرانيين والوثنيين والمجوس

١ - ابادة سلوقس كتب الاراميين في سليق (المدائن)

ورد عن سلوقس (٣١١ - ٢٨٠ ق م) انه لما ابنتى مدينة سليق على اطلال مدينة بابل ألغى كل التواريخ التي كان يستعملها الاراميون واحرق كتبهم بومتها .
واحدث تاريخاً جديداً عُرف بتاريخ السلوقيين او تاريخ الاسكندر الذي يتبدى سنة ٣١١ قبل المسيح (١) .

٢ - احراق انطيوخس كتب البرانيين

في مكتبتنا الخاصة مخطوط عربي قديم العهد مجلد بدقتين خشبيتين تنقصه بعض اوراق في آخره . وعنوانه «معاراة الكنوز» بالعين المهملة طبقاً لاصله السرياني . ويرتقي عهد نساخته الى القرن الخامس عشر للميلاد كما يتضح من شكل خطه وورقه وجلده . فقد ورد في آخر صفحة منه ما نصه : «لاجل ان الناموس والانبياء احرقوا منهم ثلاثة دفعوع : الدفعة الاولى الذي احرقوا فيها الكتب في ايام انطيوخس . . .»

اما الدفعتان الثانية والثالثة اللتان احرقتا فيها كتب البرانيين فلا اثر

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : مجلد ١ صفحة ٧ :

لذكرها في مخطوطتنا هذه اذ ينتهي آخرها بالعبارة السابقة الذكر . ونرجع ان انطيوخس الذي أحرق كتب العبرانيين هو انطيوخس الرابع ايفانت (١٧٤ - ١٦٤ ق. م) المشهور باضطهاده لليهود .

٣ - احراق هيروودس كتب القبائل العبرانية

كتب اوسابيوس القيصري المؤرخ (٢٦٧ - ٣٤٠ م) عن احراق اورشليم في عهد هيروودس قال : « كانت اخبار قبائل العبرانيين محفوظة في المكتبة (باورشليم) كما كانت كتب الغرياء مصونة ايضاً فيها الى ذلك العهد . منها كتاب احيور العموني وكتاب راعوت الموابية وكتاب حالوط الذي جاء معهم من مصر . ولما كان هيروودس لا ينتسب الى قبائل بني اسرائيل وكان ضميره يبكته لدناءة نسبه أحرق جميع كتب قبائل اليهود . وانما افترق هذه الجريمة كي يتسنى له الانتساب الى قبيلة شريفة بضياح الوثائق التي تثبت نسبه الحقيقي (١) .

٤ - ائتلاف الاراميين المسيحيين كتب اجدادهم الوثنية

بعد ما اعتنق الآراميون الدين المسيحي ساقهم غلوّم بهذا الدين الى ان يتلقوا من دون تمييز كل اثر ورثوه عن اجدادهم من المتروكات العلمية لانطوائها على التعاليم الوثنية . بل افضى الامر بالمسيحيين انفسهم الى احراق الكتب الدينية في عهد قسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧ م) كما ذكر اغابيوس المنبجي الملكي في تاريخه قال (٢) :

(١) اوسابيوس (١ : ٧ : صفحة ٤٦ و ٤٧) طبعة بيجان نقلاً عن مصحف مخطوط على الرق سنة ٧٧٣ للاسكندر (٤٦٢ م) وهذا المخطوط محفوظ في مكتبة بطرسبرج
(٢) تاريخ اغايوس بن قسطنطين المنبجي : مخطوطة دير الشرفة المنسوخة عام ١٦٦٢ رقم ١٦-١٦

« كثر المؤمنون جداً ونا المخالفون . وكان الملوك يقوون المخالفين »
اهل الايمان . ولم تزل بينهم المصائب والحقود الى ان احرقت كتب الكنيسة
المقدسة الالهية وزيد ونقص منها . وبطلت سنن الحواريين وتفرقوا الى امم كثيرة
تنيف عن سبعين ملة مذكورة كلها في الرسالة الثامنة التي في كتاب اكليندس . . .
الى ان ملك قسطنطين بن هيلانة المباركة الرهاوية .

وذكر اسطفان الدويهي البطريرك الماروني في « منارة الاقداس » قال (١) :
« امر قسطنطين الكبير بحرق جميع كتب آريوس . واعلن ان كل من وجد كتاباً
ولم يحضره ليحرق فليقتل . ومنى أمسيك فليقطع رأسه حالاً » .

٥ - احراق كتب الوثنيين ودفن احدهم دفنة حمار

عقد المؤرخ الرهاوي فصلاً عنوانه « الوثنيون في عاصمة المملكة » قال (٢) :
« في هذا الزمن امر يوسطينيانس الاول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ان يلقى القبض على
الوثنيين لانهم اخذوا يذيعون تعاليم ديانتهم . فقبض على كهننتهم الذين احرقوا
بالنار نحو الذي مجلد من كتبهم الدينية . . . على ان احد هؤلاء الوثنيين المسمي
(فوقاً) لما رأى شدة الامر هلع هلعاً عظيماً فتناول سمّاً في الليل ومات . فامر الملك
ان يدفن دفنة حمار » .

وروى ميخائيل الكبير ان الوثنية ذاعت في القسطنطينية عاصمة المملكة
وانتشرت معها كتبها السحرية . فألقي القبض عام (٥٦٢ م) على خمسة كهنة
وثنيين : اولهم من آثينا وثانيهم وثالثهم من انطاكية ورابعهم وخامسهم من
بعلبك . وقد احضروا ما عندهم من الاصنام والكتب الوثنية واحرقوها باجمعها .

(١) منارة الاقداس : للبطريرك الدويهي : جزء ٢٠ صفحة ١٦٨

(٢) تاريخ الرهاوي : فصل ٥٧ صفحة ١١٥ طبعة البطريرك افرام رحمانى

ونقل عن يوحنا اسقف اسيا المؤرخ المشهور في تلك الحقبة انه احرق بيده الفئ مجلد
من تلك الكتب (١) .

٦ - طرح الكتب المجوسية في الماء بأمر امير خراسان

وفي القرن الثالث للهجرة كان عبد الله بن طاهر بن الحسين الخراساني اميراً على
خراسان . فلما عرضت عليه كتب المجوسية أمر بالقائها في الماء ووجهه اوامره الى
الجهات باعدام جميع كتب المجوس (٢) .

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٣٢٤ طبعة باريس

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي : لجرجي زيدان : جزء ٣ صفحة ٥ :

الفصل الخامس

انحلال الكتب النصرانية في العصور الغابرة

١ - حرق الكتب الدينية في القرن الرابع للميلاد

روى اوسابيوس القيصري قال : « وفي عهدنا هذا تقوّضت كنائس شتى . وقد شاهدنا بعيننا عدداً وافراً من كتب الله المقدسة تحترق على قارعة الطريق » ثم استتلى قائلاً : « في السنة التاسعة عشرة لديوقلطيانس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) في شهر اذار وردت رسائل الملك بأمر فيها ان تقوّض الكنائس من أسسها وان تحرق الكتب بالنار (١) .

٢ - ابادة كتب «الذباطسرون» في الرها وقورش

ذكرنا في «خزائن كتب الرها» ان ربولا (+ ٤٣٥ م) العلامة الشهير ساقته الحماسة الدينية فجمع نسخ كتاب العهد الجديد المعروف بعنوان «ذباطسرون» واحرقها باسرها . ونهج منهاجه ثيودوريط اسقف قورش العلامة الكبير فانلف من هذا الكتاب عينه مائتي نسخة ونيّفاً (٢) .

(١) تاريخ اوسابيوس : سفر ٨ فصل ٢ و ٣

(٢) Rubens Duval : Littérature Syriacque P. 41

٣ - احراق الاريسيين والنساطرة كتب خصومهم

روى عبد يشوع الصوباوي في قصيدته التي أحصى فيها مشاهير الكتبة ومؤلفاتهم أن الأريوسيين أحرقوا ستين كتاباً من تصانيف ديودوروس الطرسوسي . وفعل مثل ذلك خصوم نسطور فأتلفوا مؤلفاته وجميع الكتب الحاوية شيئاً من تعاليم بدعته . وأحرق برصوما النسطوري (+ ٤٩٦ م) طائفة كبيرة من مخطوطات دير الشيخ متى في جبل الغاف قرب الموصل (١) لأنها كانت تحتوي على تعاليم مخالفة للبدعة النسطورية .

٤ - احراق السوفسطائين كتبهم في اخائية

يقرأ في اخبار آبا الكبير جاثليق النساطرة (٥٤٠ - ٥٥٢ م) انه انطلق الى بلاد اليونان فدرس لغتهم واحكمها . ثم جال في تلك الاصقاع حتى بلغ الى اخائية وهي ناحية من نواحي اليونان . فاجتمع هناك بقوم من السوفسطائين وجادلهم فأفحمهم ببراهينه الساطعة . وما ان اعملوا الروية في تعليم الجاثليق حتى انضحت لهم الحقيقة فانصاعوا لها وعمدوا الى ما عندهم من الكتب فاحرقوها باجمعها (٢) .

٥ - حرق مخطوطات السريان والارمن في قسطنطينية

في السنة ١٠٦١ م أمر قسطنطين العاشر دوقس قيصر الروم (١٠٥٩-١٠٦٧ م) ان ينفي من عاصمته كل من فيها من السريان والارمن او يخضعوا لتعليم المجمع الخلقيدوني المسكوني . فرفض هؤلاء أمر القيصر مصرين على البقاء في معتقدهم .

(١) Studia Syriaca بطريرك افرام رحالو : جزء ١ صفحة ٣٢

(٢) اخبار آبا الجاثليق : صفحة ٢٢١ طبعة ليميك

فأمر الملك باحضار مخطوطات السريان والارمن وآنية بيعتهم وأحرقها باجمعها في وقت واحد . ثم أحرق البيعتين المذكورتين ايضاً ورحل عن العاصمة قسوس السريان والارمن . وعلى اثر ذلك نزع اغلب ابناء هاتين الملتين الى عقيدة القيصر المشار اليه (١) .

٦ - نهب كتب فطير كية النساطرة في بغداد

حشد فطاركة النساطرة عدداً وافراً من المخطوطات عربية وسريانية ويونانية في خزائن فطير كيتهم المشهورة بدار الروم في بغداد . وظلت تلك المكتبة في ازدياد مطرد حتى القرن الثاني عشر للميلاد . ولما توفي الفطرك برصوما الاول (١١٣٣ - ١١٣٥ م) لم يدفن كأسلافه الفطاركة في بيعة دار الروم . بل دفن في بيعة سوق الثلاثاء لسبب أثبتته المؤرخ النسطوري ماري بن سليمان قال (٢) :
وسببه ما جرى على القلاية والبيعة في دار الروم من النهب الشنيع اذ أخذت الكتب السريانية والعربية واثاث البيعة جميعه وكل ما كان موجوداً بها .

٧ - نهب نور الدين الوفي الكتب من كنيسة نصيبين وغيرها

في شهر آب ١١٧٢ للميلاد حشد نور الدين بن زنكي صاحب حلب عسكراً جرّاراً وسار الى نصيبين مسرعاً وامتلكها صلحاً دون حرب . فسرق فقهاء المسلمين وكان نور الدين يجهم حباً مفرطاً ويتم نصحهم بانقطاعه عن شرب المسكر . ولذا شدّد على المسيحيين ترفقاً الى المسلمين . فأمر بتقويض كل بناء جديد أضيف الى الكنائس والديارات . فهدموا جداراً فغماً كان مبنياً في كنيسة مار يعقوب الكبرى

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٥٧٥-٥٧٦ و ٥٨٥

(٢) فطاركة كرسي الشرق من كتاب الجدل : لماري بن سليمان : صفحة ١٥٦ طبعة

جيسوندي في رومة سنة ١٨٩٩

بنصيبين وهي في حوزة النساطرة منذ عهد برصوما زعيمهم . ثم نهبوا جميع
امتعة الكنيسة وفي جملتها الوف من الكتب . واجتروا مثل تلك الجريمة في
امكنة كثيرة (١) .

٨ - نهب الروم للكتب والصلبان من كنائس الرها

في السنة اثنتين وثلاثين وستائة للهجرة (١٢٣٤ م) حصر السلطان علاء الدين
مدينة الرها وملكها عنوة . فدخلها الروميون ووضعوا السيف بها ثلاثة ايام
وقتلوا النصارى والمسلمين فتكا ونهباً . فأصبح الرهاويون فقراء لا يملكون شيئاً .
ونهب البيوع وأخذ ما فيها من الكتب والصلبان وآلات الذهب والتقرة (٢) .

٩ - ائتلاف النساطرة واليعاقبة بعضهم كتب البعض الاخر

كثيراً ما حملت الغيرة الدينية فئة من النساطرة واليعاقبة على ان يحرق الفريق
منهم كتب الفريق الآخر لانه يخالفه في المعتقد او المذهب او الراي . أضف اليهم
حقدتهم الكلدان والسريان الكاثوليك في العصور المتأخرة . فانهم بعد اتحادهم
مع كنيسة رومة ألقوا كتبهم القديمة للنار في بلاد العراق وسوريا وما بين النهرين
والملبار وغيرها لاحتوائها تعاليم مخالفة لتعاليم الكتلكة (٣) .

(١) تاريخ ميخائيل الكبير : صفحة ٦٩٦ طبعة باريس

(٢) تاريخ مختصر الدول : لابن العربي : صفحة ٤٣٥-٤٣٦

(٣) تاريخ كلدو واثور : صفحة ٤٠

الفصل السادس

محو كتب الفرس وغيرها وامراء مصانف القرآن

١ - رواية ابن خلدون عن محو الخليفة عمر علوم الفرس

إذا انتقلنا في الكلام الى المسلمين في بداءة امرهم رأينا ابن خلدون يكتب في مقدمته عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب ما نصه (١) : « وما لم يصل الينا من العلوم اكثر مما وصل . فابن علوم الفرس التي أمر عمر رضي الله عنه بمحوها عند الفتح ؟ »

٢ - محو عبدالله بن عباس كتاباً بالماء

يُذكر أن رجلاً جاء الى عبد الله بن عباس فقال له : « اني كتبت كتاباً أريد ان اعرضه عليك . فلما عرضه عليه اخذه منه ومجاه بالماء . فقيل لعبد الله لماذا فعلت ذلك ؟ قال : لانهم اذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » (٢) .

(١) مقدمة ابن خلدون : صفحة ٣٨ - طبعة المطبعة الادبية في بيروت

(٢) احمد زكي باشا : الحضارة الاسلامية : صفحة ٧٧-٧٨

٣ - احراق الخليفة عثمان بن عفان مصاحف القرآن

لما انتشر المسلمون في الآفاق اختلف الناس في قراءة القرآن على اختلاف لهجاتهم . فكان بعضهم يقرأ لفظة « التابوت » مثلاً بالتاء وبعضهم بالهاء . وما ان أخبر عثمان بذلك وكان اميراً للمؤمنين حتى استعار مصحف ابي بكر من حفصة وكتب منه اربع نسخ وضبطها بلغة قريش التي نزل بها القرآن . ثم بعث الى كل مصر بمصحف وأمر الناس ان ينسخوا مصاحفهم منه . وأوعز باحراق كل ما خالف تلك النسخ . وتم ذلك سنة ثلاثين للهجرة (١) .

تاريخ الخلفاء الراشدين
الصفحة ١٠٠

١٠٠

١٠٠

(١) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٧ صفحة ٦٦٧

الفصل السابع

احراق الفرق الاسلامية بعضها كتب البعض الاخر

١ - منازعات اهل السنة والشيعة وغيرهم

مثلا كانت الفرق المسيحية يحرق بعضها كتب البعض الآخر لمنازعات دينية كما سلف الكلام هكذا جرى في ميدان المنازعات المذهبية بين السنيين والشيعة في بغداد . وسار سيرهم من بعدهم الحنبليون وبقية المذاهب (١) . ولم تكن المحاصمات في بلاد الاندلس وشمال افريقيا اقل منها في عاصمة العباسيين حيث دارت الدوائر على الكتب فتلف منها الشيء الكثير .

٢ - ابتهاج الاندلسيين بحرق الكتب المخطوطة في اعيادهم

للعلمة هنري لامنس بحث دقيق في هذا الموضوع نوره بالحرف الواحد قال : « ليس بلد من البلاد حفظت له تواريخ العرب من احراق المكاتب ما حفظته للاندرلس . وها ان الاستاذ ريبيرا (٢) خص مكاتب الاندلس الاسلامية واصحابها بدرس مسهب . وبتين ما كان للكتب من المحل في شغف الناس وولعهم ثم قال : « في الاندلس سحابة قرون عدة كانت الوقوف على حريق المخطوطات العربية من الذم ما تتمتع به العامة في اعيادها وافراحها (٣) .

(١) المشرق : مجلد ٢٧ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧٤٠

(٢) Disertacions y opusculos, I 181 etc.

(٣) فيه : مجلد ١ صفحة ٢٢٠

٣ - فظائع المالكيين في الاندلس باتلاف كتب مناوئتهم

لما رسخت قدم المذهب المالكي في الاندلس وطرده المذهب الاوزاعي الذي كان قد دخل البلاد مع العرب السوريين استشم العلماء المالكيون رائحة البدع في كل مكان. فحرروا الشعب فصار بناويء كل مجدّد حقيقي او مزعوم ويحرق كتبه. ومن الذين ذهبوا ضحية تلك الحركة ابن مسرة الفيلسوف وبعده ابن كليب (١) المتهم بتعليم القدر أحرقت كتبه بعد موته في ساحة البلد. وكانت الحكومة تقبّح تلك الفظائع ولا تجرؤ على مقاومتها. احب الوزير المنصور المؤلفات الفلسفية وحرص كل الحرص على اخفائها. وكان للسلطان في عزه مكتبة بلغ عدد مجلداتها على ما يقال اربعمائة الف فلم ينجها من شرّ هذه الاعمال البربرية. لان المفتشين دخلوها واحرقوا منها عدداً وافراً في محضر من الوزير المنصور. وقد اضطرّوه الى مساعدتهم على اتلافها. ولم يبقوا الا على ما لم يجدوا فيه شبهة من كتب الطب والحساب والشريعة وغيرها.

٤ - احراق كتب المالكيين في فاس وفتاد المخطوطات في الغرب

لما استولت دولة المرابطين على الاندلس كثرت حركة التدمير فأحرقت مؤلفات الفلاسفة وفيها كتب الغزالي الذائع الصيت. وكذلك جرى في مكاتب عديدة (٢). ثم غلب الموحدون المرابطين فاخذوا باحراق كتبهم. ودارت الدائرة على كتب المذهب المالكي حملوها احمالاً على الرواحل ووجهوها الى فاس في مراكش واحرقوها في مجتمعات الناس.

وفي السنة ١٥٤٣ حلّ فاس رجل بلجكي اسمه نقولا كلينار وكان يحسن العربية

(١) راجع الفرضي : تاريخ علماء الاندلس : طبعة كوديرا : جزء ١٠ صفحة ١٢٠ عدد ١٧٤

(٢) ابن الأبار كتاب التكملة لكتاب الصلة : طبعة كوديرا : جزء ٢ : ٣٠٦٧

وهو مشغف بها . وبما لفت نظره في المدينة عدم وجود المكاتب وندورة المخطوطات وعددها اقل من القليل . فان المؤلف الشامل لبضع مجلدات كان وجوده بكامله مستحيلاً .

٥ - اتلاف كتب ابن رشد وغيره

وكانت دولة الموحدين قد رضيت على ابن رشد فانقلب الشعب الاندلسي عليه وعلى مؤلفاته . وهذا الانقلاب يدلنا على سبب قلة ما حفظ من مخطوطات ابن رشد . وأنفوا ما أنفوا من الكتب حتى نفذت خزائنها . ولذلك لما اراد سلاطين بني مرين تأسيس مكتبة في فاس قصدوا الى الملك سانشو الرابع (١) فارسل اليهم هذا الامير المسيحي من بلاده ثلاثة اجمال من المخطوطات العربية .

ذكرنا المؤرخ ابن الآبار وفاتنا القول ان كتبه قد أحرقت في ساحة تونس الغرب . فهل من سبيل بعد الى السؤال عن مؤلفات مسلمي الاندلس ؟ او ليس الاخرى بنا ان ندهش لبقاء جزء منها بعد تدمير المدرسين ؟ . . . وبما يأسف له العم كنيوا ان الكتب كانت تذهب ضحية تلك الايام . وسواء أكان المالكيون غالبين او مغلوبين فعلى الكتب كانت تحل نعمة الناقلين (٢) .

واثبت التاريخ ان السلطان ابا يعقوب بن عبد المؤمن ابعده ابن رشد عن مراکش الى الاندلس بعد أن أذاه . وأمر ايضاً بأبعاد كل من يتكلم بالعلوم الفلسفية ويحرق كتب الفلسفة . وبعد ان جنح السلطان الى تعلم الفلسفة اعاد ابن رشد الى مراکش ومات هو سنة ٥٩٤ للهجرة (٣) .

٦ - احراق كتب الركن عبد السلام في رحبة بغداد

وفي السنة ٦١١ للهجرة توفي الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر

(١) راجع روض القرطاس (éd. Tornberg) صفحة ١٨

(٢) المشرق : مجلد ٢٧ سنة ١٩٢٩ صفحة ٧٤١-٧٤٣

(٣) مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ صفحة ٢٧٧

الجبلي في بغداد . وكان يتهم بمذهب الفلاسفة فاعتقل قبل موته . واطهرت كتبه
وفيهما الكفريات مثل مخاطبة زحل وغيره بالالهية واحرق (١) .

وقد روى ابو الفرج ابن العبري حادثة احراق كتب الركن عبد السلام المشار
اليه بتفصيل اوفى قال :

« وكان في الايام الامامية الناصرية الحكيم عبد السلام بن جنكي دوست الجبلي
البغدادي قد قرأ علوم الاوائل واجادها . واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة وحصل له
بتقدمه حسد من ارباب الشر . فثلبه احداهم بانه معطل فاقعت الحفظة عليه وعلى
كتبه . فوجد فيها الكثير من علوم الفلاسفة وبرزت الاوامر الناصرية باخراجها
الى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وان يحرق الجمل منها بحضور الجمع ففعل ذلك .
واحضر لها عبيد الله التيمي المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر . وصعد عليه
وخطب خطبة لعن بها الفلاسفة ومن يقول بقولهم . وذكر الركن هذا بشراً وكان
يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً يتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من
يده لمن يلقيه في النار . قال القاضي الاكرم الوزير جمال الدين بن القفطي رحمه الله :
اخبرني الحكيم يوسف السبتي الاسرائيلي قال : كنت ببغداد يومئذ تاجراً وحضرت
المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو
يقول : وهذه الداهية الدهياء والنازلة الصاء والمصيبة العمياء . وبعد اتمام كلامه خرقها
والقاها في النار . فاستدملت على جهله وتعصبه اذ لم يكن في الهيئة كفر وانما هي
طريق الى الايمان ومعرفة قدر الله جلّ وعزّ فيما احكمه ودبره . واستمر الركن
عبد السلام في السجن معاقبة على ذلك الى ان افرج عنه سنة تسع وثمانين
وخمسة (٢) . وهي السنة ١١٩٣ م

(١) المختصر في تاريخ البشر لاني الغدا : جزء ٣ صفحة ١١٦

(٢) تاريخ مختصر الدول : صفحة ١٤ و١٥ و١٦ وكتاب اخبار الطغاة باخبار الحكماء : صفحة ١٥٤

الفصل الثامن

ذكر من غسل كتبه

١ - ابن ابي الحواري

أقدم رزيئة أوردتها التاريخ وُمنيت بها المكتبات العربية على ما نعهد ما رواه الحاج خليفة (١) عن ابن ابي الحواري قال : « نقل عن بعض المشايخ انهم احرقوا كتبهم . منهم العارف بالله سبحانه وتعالى ابن ابي الحواري . فانه كما ذكره ابو نعيم في الخلية انه لما فرغ من التعليم جلس للناس . فخطر بقلبه يوماً خاطراً من قبل الحق . فحمل كتبه الى شطّ الفرات فجلس يبكي ساعةً ثم قال : نعم الدليل كنت لي على ربّي . ولكن لما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال . فغسل كتبه . »

٢ - ابو غالب شجاع الشيباني

انتحى ابو غالب شجاع بن فارس الذهلي الشيباني (٤٣٠ - ٥٥٧ هـ) اثر ابن ابي الحواري المذكور آنفاً . فانه افنى عمره في طلب العلم ونساخته الكتب . وكان قد عمل مسوّدّة تاريخ بغداد ذيلًا لتاريخ الخطيب البغدادي فغسلها في مرض موته (٢) .

(١) كشف الظنون : للحاج خليفة : مجلد ١ صفحة ٤٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٤ صفحة ٣٦-٣٧ .

الفصل التاسع

ذكر من دفن كُتبه

١ - سفيان الثوري

روى الحاج خليفة في كتابه «كشف الظنون» ما نصه : «ذكر ابن الملقن في كتابه «طبقات الاولياء» عن سفيان الثوري قوله : وقد روي نحو هذا عن سفيان الثوري (٩٧ - ١٦١ هـ) انه اوصى بدفن كُتبه وكان ندم على اشياء كتبتها عن الضعفاء»

اما ياقوت الرومي صاحب «معجم الادباء» فقد حدث عن سفيان الثوري قال : «مزق سفيان الثوري الف جزء وطيرها في الريح وقال : ليت يدي قطعت من ههنا بل من ههنا ولم اكتب حرفاً!» (١).

٢ - الامام الشافعي

ذكر ابو الفداء عن الامام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) انه دفن من الكتب التي كانت عنده جميع ما كان منها يبحث عن علم النجوم (٢).

(١) معجم الادباء : ياقوت الرومي : جزء ١٥ صفحة ٢٢

(٢) تاريخ ابى الفداء : جزء ٢ صفحة ٢٦-٢٧

٣ - محمد بن العلاء

وحذا حذو سفيان الثوري والامام الشافعي المارة ذكرهما محمد بن العلاء بن كريب الهذلي الكوفي الذي كان من حفاظ الكوفة وثقةً بجمعاً عليه . ومات لثلاث بقين من جمادى الاولى سنة ٢٤٣ للهجرة (٨٥٧ م) . وأوصى ان تدفن كتبه فدُفنت (١) .

٤ - دفن يوسف بن اسباط كتبه في كهف

حدث ياقوت الرومي في «معجم الادباء» عن يوسف بن اسباط ما نصه : «وهذا يوسف بن اسباط حمل كتبه الى غار في جبل وطرحها فيه وسد بابها . فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم في الاول ثم كاد بطلنا في الثاني . فهجرتاه لوجه من وصلناه وكرهناه من اجل ما اردناه» (٢) .

(١) معجم البلدان : لياقوت الرومي : مجلد ٧ صفحة ٢٠٠ .

(٢) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ١٥ صفحة ٢١ .

الفضل العائز

اصراى بعض المسلمين مكتباتهم

١ - احراق ابي عمرو بن العلاء كتبه

قال ابن عساکر في الكنى من التاريخ أن ابا عمرو بن العلاء المتوفى في السنة ١٥٤ للهجرة (٧٧٠ م) كان اعلم الناس بالقرآن والعربية . وكانت دفاتره ملء بيت الى السقف . ثم نشتك واحرقها .

٢ - احراق كتب ابي حيان التوحيدى

لم يكن عليّ ابو حيان التوحيدى أشفق من ابي عمرو بن العلاء على كتبه . فانه احرقها في آخر عمره لقلّة جدواها ضناً بها على من لا يعرف قدرها . فعذله القاضي ابو سهل لانما اياه على ذلك . فاعتذر ابو حيان التوحيدى عمّا فعل وأرسل الى ابي سهل جواباً طويلاً . ولعلّ الكتب الباقية من تصانيفه الكثيرة كتبت في حياته وخرجت عنه قبل حرقها . وحلت وفاة ابي حيان في الري في حدود الثمانين والثلاثمائة للهجرة (٩٩٠ م) (١) . ومن بقايا تلك الكتب نذكر مخطوطاً محفوظاً الى يومنا هذا في مكتبة الفاتح بالاسنانة عنوانه « بصائر القدماء » وبشائر الحكماء » في مجلدين صغيرين .

(١) بنية الوعاة في طبقات الفويين والنحاة : للسيوطى : صفحة ٣٤٩

٣ - احراق مكتبة ابن لهيعة في مصر

وفي السنة ١٦٩ للهجرة (٧٨٥ م) احترقت دار عبدالله بن لهيعة قاضي الديار المصرية واحترقت معها كتبه . ومن الغد بعث اليه اللآيث بن الفضل البيوردي امير مصر بألف دينار تعويضاً عن تلك الحسارة (١) .

٤ - احراق مكتبة ابن الجعابي في بغداد

كان ابن الجعابي (٢٨٤ - ٣٥٥ هـ) يملك في بغداد مكتبة غنية بالأسفار النفيسة وفيها ما لا يقل عن مائتي الف حديث . فأوصى بأن تحرق كتبه فاحرقها بيده حتى ما بقي منها شيء ومات من ليلته . وقد اخبر الدارقطني انه كان حينذاك في بيت الجعابي وشهد الحريق بعينه . وكان لدى ابن الجعابي كتب للناس في جملتها مائة وخمسون جزءاً للحسين بن البواب فنهبت كلها في الحريق (٢) .

٥ - احراق الداراني كتبه في تنور

تم احرق كتبه في الزمان الغابر ابو سليمان الداراني . فانه جمعها في تنور وسجرها بالنار . ثم خاطبها قائلاً : « والله ما أحرقتك حتى كدت أحرق بك ! » (٣) .

٦ - وصية السيرافي لولده باحراق كتبه

لمّا دنا أجل ابي سعيد السيرافي سيّد العلماء استدعى ابنه بمجداً وبلغه هذه الوصية : « قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل . فإذا رأيتها تحوّنك فاجعلها طعمة للذار » (٤) .

(١) تذكرة الحفاظ : جزء ١ صفحة ٢٢٠ (٢) تذكرة الحفاظ : جزء ٣ صفحة ١٣٠-١٣٣

(٣) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢٢ (٤) معجم الادباء : جزء ١٥ صفحة ٢٢

الفصل الحادي عشر

اغراق مكتبات خاصة في اعمار مختلفة

١ - غرق كتب ابي الحسن السمساني ببغداد

كان ابو الحسن علي بن عبدالله بن عبد الغفار السمساني من اساطين علماء اللغة في عصره. ذكره الخطيب ابو زكريا يحيى التبريزي في تاريخه فثبت انه كتب كثيراً وخطه في غاية الاتقان والصحة. وتصدر السمساني في بغداد للرواية وأقرأ الادب ونسخ معظم كتبه بخط يده. ثم انتقلت تلك الكتب بعد وفاته سنة ٤١٥ للهجرة الى ابن دينار الواسطي وادر كها الغرق ففسد اكثرها (١).

٢ - اغراق كتب ابي العباس الانصاري وحرقتها في غرناطة

يروي عن ابي العباس الانصاري الحزرجي (٤٩٢ - ٥٦٩ هـ) انه جمع خزانة حافلة بالمخطوطات ضم اليها ما نسخه هو بخطه الجميل. وقد نالت الآفات على كتبه غرقاً ونهباً وحرقاً. ولا سيما في اثناء اقامته بالاندلس وحين تولته خزانة كتب السلطان ابي يعقوب عبد المؤمن في مراکش (٢).

(١) فوات الوفيات : جزء ١ صفحة ٢٣ ؛

(٢) طالع ترجمته بين خزانة دور الكتب : صفحة ٦٩١ و ٦٩٢ من هذا الكتاب

٣ - طرح كتب المبشر بن فاتك في حوض داره

كان للمبشر بن فاتك أحد امراء مصر كما سبق الكلام مكتبة خطيرة يقضي فيها اكثر اوقاته لشدة شغفه بالمطالعة . فلما توفي قصدت زوجته الى خزائن الكتب ترافقها بعض الجواربي وفي فؤادها لوعة من تلك المخطوطات التي كانت تشغله عنها مدة حياته . وطفقت تبكيه بكاءً شديداً وتطرح مخطوطاته هي وجواربها ساخطات في حوض ماء متسع . فأنلقن أغلبها غير مكترحات لقيمتها .

٤ - طرح كتب عبد الصمد التستري في نهر قارون

وكان للسيد عبد الصمد التستري خزانة كتب انتقلت اليه بالارث عن والده السيد احمد . كانت تشتمل على سبعة آلاف مجلد جلتها من المخطوطات المذهبة . وقد نهبت في اثناء النكبة التي حلقت بصاحبها من اهل تستر . وألقي بعضها في نهر قارون (١) .

٥ - طرح كتب عبد الله بن احمد في حوض ماء

أثبت الامام مسلم بن ابراهيم قاضي صنعاء اليمن ان عبد الله بن احمد صنف كتاباً في الحديث جمع فيه بين الكتب الخمسة الصحاح . وعندما حضرته الوفاة اوصى بطرح كتابه هذا في حوض ماء .

(١) مجلة العرفان : مجلد ٧ ، صفحة ٤٧١

الفصل الثاني عشر

رزابا مكتبات بغداد والبصرة

١ - احراق خزانة كتب ابي جعفر الطوسي في كرخ بغداد

لما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة في بغداد عام ٤٤٨ للهجرة لم يسلم فقيه الامامية محمد ابو جعفر الطوسي من غوائلها ورزاياها . فاحترقت كتبه وداره في باب الكرخ وعلى اثر ذلك انتقل من بغداد الى النجف الاشرف وسكنه . وبقي يدرس هناك الى ان توفي سنة ٤٦٠ للهجرة . وقد ورد في «الروضات» خبر احراق كرسية ايضاً وهو الذي اعطاه اياه الخلفاء العباسيون وكان يجلس فيه للكلام (١) .

٢ - احراق طغرل بك مكتبة سابور بن اردشير في بغداد

في السنة ٤٥١ للهجرة احترقت بغداد الكرخ واحترقت فيها خزانة الكتب التي سبق فوقفها سابور بن اردشير ونهب بعض كتبها . وجاء عميد الملك الكندري فاختر من تلك الكتب خيراها . وكان بها عشرة آلاف مجلد واربعمائة مجلد من اصناف العلوم منها مائة مصحف بخطوط بني مقله . وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق المذكور . فابعدهم عميد الملك وقعد يختار ما اعجبه منها فنسب ذلك الى سوء سيرته وفساد اختياره . وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمر المدارس ودون العلم في بلاد الاسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها (٢)

(١) مجلة «الرسالة» في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٨

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ صفحة ٣

٣ - احراق بني عامر داري كتب في البصرة

وفي السنة ٤٨٣ للهجرة حشد امير بني عامر ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل من العرب فهجموا على مدينة البصرة وملكوها . ثم نهبوا ما فيها نهباً شنيعاً واحرقوا مواضع شتى . وفي جملة ما احرقوا داران للكتب : احدهما وقفت قبل ايام عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ للهجرة . فقال عضد الدولة : « هذه مكرمة سبقنا اليها وهي اول دار وقفت في الاسلام » . اما الدار الثانية فقد وقفها ابو منصور بن شاه مردان وكان بها نقائس الكتب واعيانها (١) .

٤ - نهب العرب خزانة كتب القاضي ابي الفرج بالبصرة

وفي اواخر ذي القعدة سنة ٤٩٩ للهجرة اجتمع آل ربيعة والمنتفق ومن انضم اليهم من العرب وقصدوا الى البصرة في جمع كثير . فدخلوها بالسيف واحرقوا الاسواق والدور الحسان ونهبوا ما قدروا عليه . ولبثوا على هذه الحال ينهبون ويجرفون مدة اثنين وثلاثين يوماً . ومما نهبوه خزانة كتب كان وقفها القاضي ابو الفرج ابن ابي البقاء . وبلغ الخبر صدقة فارسل عسكرياً فوصلوا وقد فارقتها العرب . ثم ان السلطان محمد ارسل شحنة وعميداً الى البصرة واخذها من صدقة . وعاد اهلها وشرعوا في عمارتها (٢) .

(١) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ . صفحة ٧٥

(٢) التاريخ الكامل لابن الاثير : جزء ١٠ . صفحة ١٧٢

الفصل الثالث عشر

تقويض الحاكم بامر الله معابد النصارى واليهود

١ - ابعاد النصارى واليهود عن مصر والعيث في معابدهم
ومخطوطاتهم وكنوزهم وتدميره مكتباتهم

ولما اصيب الحاكم بامر الله بتغيير في عقله حمل سنة ٤٠٣ للهجرة (١٠١٢ م) على اليهود والنصارى واضطهدهم . والزهم ان يحملوا على ثيابهم علامة تميزهم من المسلمين (١) واخرجهم من مصر الى بلاد الروم . ثم امر بهدم الكنائس والادبار واخذ جميع ما فيها وما لها . وناهيك ما كانت تحويه تلك المعاهد الدينية الكثيرة من نفائس الذخائر ونوادير الرفوق والمخطوطات التي يعجز القلم عن وصفها فضلاً عن احصائها . وقد اندثرت عن بكرة ابيها ضحية الجنون . فبقيت مدفونة في جوف الارض وحرّم الباحثون الانتفاع بها الى ما شاء الله .

٢ - هدم ثلاثين الف بيعة والاستيلاء على اوقافها

قال المقرئ في هذا الصدد (٢) ما نصّه : وذكر من يوثق به ان الذي هدم الى آخر هذه السنة (٤٠٥ للهجرة ١٠١٤ للميلاد) بمصر والشام واعمالها من المياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون الف بيعة . ونهب ما فيها من آلات الذهب والفضة وقبض على اوقافها وكانت اوقافاً جليلة على مبان عجيبة (٣) .

(١) تاريخ مصر الحديث لزبدان : مجلد ١ صفحة ٢٥٩ و ٢٦٠ .

(٢) خبايا الزوايا من تاريخ سيدنايا : تأليف حبيب زيات : صفحة ٧ و ٨ .

(٣) خطط المقرئ مجلد ٢ صفحة ٩٦ .

الفصل الرابع عشر

اتلاف مكتبي المستنصر الفاطمي وقصر الفاطميين في القاهرة

١ - اتخاذا العربان رقوق كتب المستنصر احذية لارجلهم

في السنة ٤٦٠ للهجرة نار الاتراك على المستنصر بن الظاهر الفاطمي بمصر فنهبوا مكتبته وكان فيها نحو العشرين الف مجلد مخطوط . فاقسموها بينهم الا جانباً منها كانت خاصاً بابن المحترق حاكم الاسكندرية فأرسل اليه . فلما وصلت احوال هذه الكتب الى ابيار سطا عليها عربان قبيلة لوانة فاحرقوا قسماً منها واصطنعوا من جلودها احذية لهم . ثم تركوا القسم الآخر آكاماً على الرمال فغطتها الرمال حتى اصبحت تلاً عظيماً يعرف بتل الكتب (١) .

٢ - رواية الجبرتي عن احتراق تل الكتب في الخطابة

قرأنا مقالة عنوانها « تاريخ دور المكتب في الشرق » بقلم السيد محمد علي البيلاوي نقيب السادة الاشراف بالديار المصرية جاء فيها عن تل الكتب (٢) المشار اليه ما حكايته : « ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٥ للهجرة انه ظهر بالتل الكائن خارج راس الصوة المعروفة الآن بالخطابة قبالة الباب المعروف بباب الوزير في وهدة بين التلول ناراً كامنة بداخل الاتربة . واشتهر أمرها وشاع ذكرها وزاد

(١) تاريخ مصر الحديث : مجلد ١ صفحة ٢٧٤

(٢) مطبعة المعارف واسدقاؤها : صفحة ٢٨

ظهرها في اواخر هذه السنة سنة ١٢٢٥ و كثر تردّد الناس عليها افواجاً رجالاً ونساءً . وبلغ خبرها كتحدا بك فنزل اليها يجمع من الاكابر . وأمر والي الشرطة بصب الماء عليها وإهالة الاتربة من اعالي التلّ فوقها . ففعل ذلك . واستمر الناس يغدون ويروحون ينظرونها نحو شهرين . فلا يبعد ان يكون هذا من تلال الكتب التي ذكرها المقرئ في خطه .

٣ - بيع مخطوطات قيمتها مائة الف دينار لوفاء خمسة آلاف دينار

من الحسائر الفادحة التي لحقت بدور الكتب طمعاً او جشعاً ما رواه المقرئ عن مؤلف كتاب « الذخائر » الذي زار مكتبة قصر الفاطميين في القاهرة قال : « وكنت بمصر في الفسطاط في العشر الاول من المحرم سنة احدى وستين واربعمئة . فرأيت فيها خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً مرسلة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي . فسألت عنها فعرفت ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين عما يستحقانه وغلماهما . واستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فقال : ان الكتب التي نقلت الى دار الوزير ابي الفرج وفاة خمسة آلاف دينار بلغت قيمتها اكثر من مائة الف دينار » (١) .

٤ - عبث صلاح الدين بمكتبة الفاطميين وكنوزهم

مرّ بنا الكلام في الفصل الثاني والعشرين من الباب الثالث عن خزانة كتب الفاطميين في القاهرة . فانها كانت من عجائب الدنيا اذ لم يك في جميع بلاد الاسلام دار كتب اعظم منها . فصدر امر السلطان صلاح الدين الايوبي ببيعها مع جميع كنوز القصر . واستمرّ البيع مدة عشرة اعوام متوالية (٢) .

(١) الفاطميون في مصر : صفحة ١٣٩

(٢) البصائر : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٢٢٣



الفصل الخامس عشر

امراء مكتبة سيف الدولة وانهيار الخزانة الصوفية بحلب

روى بعض المؤرخين ان نيقفور الثاني فوكاس قيصر الروم (٩٦٣-٩٦٩ م) ما كاد يتسلم زمام السلطنة في بيزنطيا حتى أعلن حرباً عواناً على سيف الدولة الحمداني (٣٠٣-٣٥٦ هـ) لينتقم منه . فأغار بجيده ورجله على حلب عاصمته وذلك قصورها وأحرق جوامعها وكتبها (١) .

غير ان بني حمدان ما لبثوا ان جدّدوا مكتبة سليلهم سيف الدولة وعزّزوها حتى أربى عدد مجلداتها على عشرة آلاف مخطوط . وفي السنة ٤٦٠ للهجرة احترقت تلك الخزانة الجديدة . والسبب في ذلك ان خازنها ثابت بن أسلم ألف كتاباً في كشف عوار الاسماعيليّة وابتداء دعوتهم . فغضب عليه اهل هذه الشيعة وقالوا انه يفسد دعوتهم . فسعوا في ان يصلب فصلب واحرقوا خزانة الكتب كما سبق القول (٢) . وفي ايام ابو العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩ هـ) كانت «خزانة الصوفية» بحلب حافلة بالمخطوطات . فنهبت على اثر فتنة بين اهل السنة والشيعة في بعض ايام عاشورا (٣) . وعلى هذا المنوال دمرت مكتبة الري في بلاد فارس وقد ذكر ابن سنان الحفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ للهجرة تلك الخزانة الصوفية في قصيدته البائية التي كتبها من القسطنطينية يداعب احد اصدقائه فيها قال :

ابلق ابا حسن السلام وقل له - هذا الجفاء عداوة الشيعة
فلا طرّفنّ بما صنعت مكابراً - وابت ما لاقيت منك شكية
ولأجلستك للقضية بيننا - في يوم عاشوراء بالشرقية
حتى اثير عليك فيها فتنة - تنسيك يوم «خزانة الصوفية»

(١) كتاب «سيف الدولة وعصر الحمدانيين» بقلم سامي الكبالي : صفحة ١٥٦ طالع ايضاً ابن مسكويه

(٢) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ : صفحة ١٩٨

(٣) اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : جزء ٤ : صفحة ١٩٨ وخطط الشام لعماد كرم دعلي : مجلد ٦ : صفحة ١٩١

الفصل السادس عشر

نكبات مكتبة الجامع الاموي وبعض مطاب دستي

في السنة ٤٦١ للهجرة اصيب الجامع الاموي بدمشق بحريق هائل دثر محاسنه وماكانت به من الكتب والمصاحف . وربما أُحرق فيه المصحف العثماني القديم (١) وسبب ذلك فتنة وقعت بين المغاربة والمشاركة فُضربت دار مجاورة للجامع بالنار . فاتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها (٢)

وبعد ترميم الجامع واصلاحه احترق مرة ثانية سنة ١٣٣٩ مسيحية (٥٧٤٠) وأنهم النصارى بهذا الحريق . فنقضت مأذنة عيسى وُجدت من امواهم . وامتد الحريق حين ذلك الى الابنية المجاورة للجامع فأُتلف سوق اللبّادين وسوق الوراقين (٣) . ثم اتصل الحريق بالجامع مرة ثالثة سنة ١٣٩٣ مسيحية (٥٧٦٥) فأُتلف قسماً من شرق الجامع ثم رُمّم ما أُتلف . ثم أُحرق مرة رابعة سنة ١٤٠١ مسيحية (٥٨٠٣) عند قدوم تيمورلنك وتلفت خزانة الكتب والمصاحف . فاعيد سنة ١٤٠٣ مسيحية (٥٨٠٥) الى قريب مما كانت عليه . ثم احترق الجامع مرة خامسة سنة ١٤٧٩ مسيحية (٥٨٨٤) واعيد بنيانه (٤) .

وفي ١٤ تشرين الاول سنة ١٨٩٣ نكبت المكتبة سابقاً بحريق هائل

(١) خطط الشام محمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩٧

(٢) المختصر في اخبار البشر لاني الفدا : جزء ٢ صفحة ١٨٦

(٣) محاضرات التجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١٠ صفحة ٣٠٧

(٤) آثار النصارية في البلاد الشامية بقلم الخوري عيسى اسعد : جزء ١ صفحة ٩٢

التهم شيئاً كثيراً من نوادر الصكوك ونفائس المخطوطات . وكان أهمها مخزوناً في كنيسة يوحنا المعمدان التي حولها عبد الملك بن مروان الأموي إلى جامع ولم يمسها المسلمون عند فتحهم المدينة (١) . وبتوالي الاحقاب اضيف الى تلك المخطوطات النصرانية مخطوطات اسلامية مهمة حفظ بعضها عند خربج النبي يحيى . ولم يسلم من تلك البقايا الثمينة بعد الحريق الا قسم كان قد نُقل من بيت الخطابة الى قبة الملك الظاهر في عهد الوالي مدحت باشا . وقسم آخر كان مصوناً في قبة المال . وتشاهد هذه القبة عن يسار الداخل الى الجامع الأموي من باب البريد .

ويُروى عن عبد الله البصروي من علماء القرن الثاني عشر للهجرة انه صنف كتاباً في تاريخ البلاد الشامية فبلغ اعيان دمشق خبره . ولما مات المؤلف دخلوا داره وآلوا ان لا يأذنوا بدفنه الا بعد ان يأخذوا التاريخ الذي وضعه . فضبطوه واحرقوه على اعين القوم مخافة ان تنكشف سيئات بعضهم (٢) .

وفي اواخر القرن التاسع عشر احترقت في دمشق مكتبة العلامة الشيخ بدر الدين الحسيني والد الشيخ تاج الدين الحسيني رئيس الحكومة السورية سابقاً . ومن هذا القبيل ايضاً انه لما نشب الحريق في سوق الحميدية بدمشق اندلع لسان اللهب الى خزانة مخطوطات آل الاسطواني فانلفت قسماً منها (٣) .

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : جزء ١ صفحة ٢٦٤

(٢) خطط الشام : جزء ١ صفحة ٨

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

الفصل السابع عشر

انحرف بعض المكتبات في الغزوات الصليبية

١ - احراق المصاحف في محراب داود بالقدس

روى ابن ميسر في تاريخه ان الافرنج حاصروا بيت المقدس في رجب سنة ٤٩٢ وكانوا قد ملكوا الرملة . فخرج اليهم الافضل في عساكره . فلما بلغ الفرنج خروجه جدوا في حصار بيت المقدس حتى ملكوه فهدموا المساجد وقبر الخليل وقتلوا اهل البلد جميعهم الا اليسير . وانحازت طائفة الى محراب داود عليه السلام واحرقوا المصاحف واخذوا من الصخرة ما لا ينحصر من قناديل الفضة والذهب والآلات (١) .

٢ - نكبة مكتبة طرابلس

في السنة ٥٠٣ للهجرة (١١١٠ م) نكبت العلم بضياع مكتبة طرابلس الشهيرة على اثر استيلاء الصليبيين على هذه المدينة . وللمؤرخين مذاهب مختلفة في هذه القضية حلها العلامة احمد زكي باشا في احدى محاضراته بالجامعة المصرية قال (٢) :

(١) تاريخ ابن ميسر : صفحة ٤٦٣

(٢) كتاب الحضارة الاسلامية : صفحة ٥٣ و ٥٤

« روى مؤرخ من مؤرخي العرب انه حينما وقعت هذه المدينة في ايدي الصليبيين في سنة ٥٥٣ هـ دخل قسيس هذه الخزانة فصادف ان اول غرفة دخلها كانت تحتوي على المصاحف فوضع يده على ٢٠ نسخة منه بالتوالي . واذ وجدها جميعها مصاحف اعلن ان هذه الدار لا تحتوي الا على كتب مخالفة للحق . وبناء على هذا الحكم احرقها الفرنج فصارت رماداً ولم ينج من الحريق الا عدد قليل من الاجزاء تفرقت شذر مذر في كثير من البلاد . وقد رويت هذه الحادثة كما ذكرها المؤرخون الشرقيون . ولكن اذا لم نقل ان حادثة الحريق مخترعة فمن الجائز ان نفرض على الاقل انها محرقة او مبالغ فيها بسبب العصبية القومية . وذلك لان المسلمين قد اتهموا احياناً باحراق خزانة الاسكندرية . ولا شك ان ضماؤهم ترواح لابقاع تهمة من هذا النوع على عاتق النصارى كذلك .

« هذه هي عبارة المسبو كاترمير (١) برمتها وهو من الباحثين الدقيقين . ولا يمكن ان يدخل تحت وصف المعترض الذي ربما لا يقتنع كثيراً بما يرويه العرب المحققون . لان فيهم قوماً ألفوا المبالغة فرماهم جميعاً بجزيرة افراد منهم . وانت ترى ان كاترمير لم يخالجه ادنى شك في تقدير العدد وانما انتقد الخبر المتعلق باحراق الكتب . ولما كان هذا الخبر محلاً للشك فقد اهملته بالمرّة وان كان الاستاذ جرجي يني صاحب تاريخ سورية قد أشار اليه وتأسف عليه .

« وهذه الارقام ذكرها رجل من ثقات الانكليز واكبر بختائهم في امور المشرق . وهو العلامة جيون في تاريخ الدولة الرومانية (جزء ثان صفحة ٥٥٥) وقال ان الفرنج احرقوها . اما ابن خلكان فقال انهم اتهبوها في السنة ٥٥٢ هـ ومثله ابن الاثير . وكلاهما قرّرا بان عددها بما لا يعد ولا يحصى . »

(١) كان كاترمير Quatremère من علماء الاستشراق في فرنسا (١٧٨٢ - ١٨٥٧) ومن بعض تآليفه نبذة في مجموعته المطبوعة سنة ١٨٦٢ في باريس عنوانها « حجة الشرقيين للكتب »

٣ - احراق الصليبيين كتب الروم في قسطنطينية

لما قام الصليبيون بتجريدتهم الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤ م) واحتلوا القسطنطينية ارتكب جنودهم فظائع شتى من قتل ونهب واضطهاد . هذا عدا الكتب الكثيرة النادرة والمؤلفات القديمة والحديثة التي أُلقت في حرائق المدينة ولا يمكن ان تعوّض (١) . ونهب اولئك الجنود ايضاً صلبان الكنائس وامتنعها وجميع ما كان ملطوخاً على ظهر الاناجيل من الفضة والذهب (٢) .

(١) تاريخ الانشقاق : بقلم الطران جراسيموس مسرة : جزء ٢ صفحة ٢٣١

(٢) الحروب الصليبية في الآثار السريانية : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٢٠٤

الفصل الثامن عشر

اصراق مصاصف جامع اصبهان ومكتبات اردشير
وغزنة وخراسان ومغلا ونيسابور والحجف وغيرها

روى سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» ما نصه: «سنة ٥١٥ للهجرة
(١١٢١ م) احترق جامع اصبهان واحترق فيه خمسمائة مصحف عليها صفائح
الذهب والفضة. ومن جملتها مصحف بخط أبي بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي.
وكان ابي بن كعب قبل الاسلام حبراً من اخبار اليهود. وقد امره عثمان بجمع
القرآن فاشترك في جمعه» (١).

ولما احتل ابو سهل الحمدوني مدينة اصبهان نهب خزائن علاء الدولة ابي جعفر
بن كاكويه. فحملت كتبه الى غزنة ولم تلبث ان التهمت النيران كما سيأتي
الكلام (٢).

وفي السنة ٤٥١ للهجرة احترقت مكتبة اردشير ببلاد فارس. وكانت تحوي
يوم احتراقها عشرة آلاف واربعمائة مخطوط. وفي السنة ٥٤٧ للهجرة (١١٥٢ م)
خرب مسجد عقيل الذي كان مجعاً لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة. ونهب
عدة من خزائن الكتب في المدارس التي خربت.

وفي السنة ٥٤٨ للهجرة (١١٥٣ م) امر السلطان محمود الغزنوي باحراق «كل

(١) الاعلام: خير الدين الزركلي: صفحة ٢٨

(٢) تاريخ ابن خلدون: جزء ٤، صفحة ٤٨٥

ما كان في علم الكلام، (١). فضلاً عن كتب أعلنت الريبة في صحة تعليمها اعني بها كتب «الروافض واهل البدع». وبعد سنتين احرق جنود الامير حسين مكتبة غزنة في افغانستان عندما احرقوا هذه المدينة.

ومن أفضح فظائع المكتبات ما حلّ بخراسان ونيسابور اثناء فتنة المغول. فان تولي خان رابع ابناء جنكزخان الطاغية أغار على هاتين المدينتين وقوض ابنتهما وآثارهما الجميلة (٢).

وأحرق جنكزخان (١١٦٢ - ١٢٢٧ م) وابنه تولي المار ذكره من المكتبات في بخارا وغيرها من مدائن العلم في بلاد فارس ما لا يُستطاع احصاؤه (٣).

وفي السنة ٧٥٥ للهجرة احترق جامع النجف الاشرف وفيه قبر الامام علي بن ابي طالب. واحترقت معه كنوز الجامع الفاخرة ومكتبته العامرة التي كانت منهلاً لرواد العلم ومركزاً خطيراً من مراكز الثقافة الاسلامية (٤).

-
- (١) معجم الادباء : لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٣١٥
(٢) مجلة « لغة العرب » للاب انتاس الكرملي في بغداد : مجلد ٦ سنة ١٩٢٨ صفحة ٦٦٢
وراجع ايضاً ما سطرناه عن خزائن كتب نيسابور في الفصل الثامن عشر من الباب الثالث رقم ٤
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية : لجرمي زيدان : جلد ٣ صفحة ١١٣
(٤) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٦ صفحة ١٥٤٩

الفصل التاسع عشر

انقراض الصاعقة على مكتبة المسجد الحرام بمكة

في الثلث الاخير من ليلة ١٣ رمضان سنة ٨٨٦ للهجرة صعد رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب في المأذنة الشرقية اليانية القائمة على ركن المسجد النبوي . واخذ يذكر ويمجد كعادته وكانت السماء حين ذلك متلبدة بالغيوم متوارية النجوم . وفي اقل من لمح البصر قصف رعداً هائل وانقضت صاعقة تنأجج ناراً أصاب بعض شظاياها هلال المئذنة . فانشق رأسها وانهار باقيها على سطح الحرم فعلقت به النيران . ثم اندلع الحريق وامتد الى سائر نواحي الحرم والى القبة العليا فوق الحجرة النبوية فذاب رصاصها ولم تصل النار الى جوف الحجرة . وعند ذلك هب اهل المروءة ينادون بالحريق طالبين النجدة . فسارع امير المؤمنين السيد قسطل بن زهير الجمالي وشيخ الحرم والقضاة وخاصة القوم وعامتهم . وتسلق اهل القوة والفتوة الى سطح المسجد حاملين الميما في القرب وجعلوا يسكبونها على النار . لكنهم عجزوا عن اطفائها فلاذوا بالفرار بعد ان مات منهم اكثر من عشرة رجال تغلبت عليهم النيران واحاطت بالحرم من جميع اطرافه فالتهمت واحرقت ما فيه من المصاحف والربعات وخزائن الكتب . وكانت كتباً نفيسة ومصاحف عظيمة (١) .

(١) تاريخ مكة تأليف قطب الدين الحنفي : صفحة ١٠٥

الفصل العشرون

امراء اسمعيل شاه مصاحف اهل السنة وكتبهم

ما كاد يعتلي عرش الملك اسمعيل شاه الاول (١٤٨٥-١٥٢٣ م) مؤسس الدولة الصفوية في بلاد فارس حتى نشم يثر من قانلي ابيه وجده . فأخذ يجيش الجيوش ويدوخ البلدان ويتابع فتوحاته حتى ملك تبريز واذربيجان وخراسان والعراقين العربي والفارسي واوشك ان يدعي الربوبية . فقتل خلقاً ينوف على الف الف (مليون) نسمة . ولا يُعهد في الاسلام ولا في الجاهلية ولا في الامم الغابرة من اقرن مثل هذه الفظائع كاسمعيل شاه . ولم يكتف هذا الطاغية بذلك كله بل استاقه الجور والعتو ففتك باعظم علماء فارس ولم ينج احد منهم بعد تلك الكارثة . ثم احرق مصاحفهم وجميع كتبهم تشقياً لكونها مصاحف اهل السنة . وكان كلما مرت بقبور مشايخهم نبشها واخرج عظامهم واحرقها . وكان اذا قتل اميراً من الامراء استباح زوجته وامواله وجعلها حلالاً لشخص آخر (١) .

(١) الاعلام باعلام بيت الله الحرام : صفحة ١٢٦ وعنوان البعد في تاريخ نجد : تأليف عثمان

بن عبد الله بن بشر : صفحة ٢٥

الفصل الحادي والعشرون

اجتراف السبول عدة مكنت وانلافها

١ - اجتراف كتب ابن الدهان ببغداد

كان سعيد ابن الدهان النحوي البغدادي (٤٩٤ - ٥٦٩ هـ) سيبويه عصره. وانشأ في النحو تصانيف مفيدة نضرب صفحاً عن ذكرها لشهرتها ووفرتها. وانتقل ابن الدهان من بغداد مسقط رأسه الى الموصل قاصداً الوزير جمال الدين الاصبهاني المعروف بالجوّاد. فتلقاه الوزير بالترحاب واحسن اليه وعاش ابن الدهان مدة في كنفه.

وكان لابن الدهان خزائن كتب كثيرة افنى عمره في جمعها واقتنائها. وانفق انه على اثر وصوله الى الموصل فاضت مياه دجلة واغرقت بغداد. وكانت كتبه باقية فيها فسيّر من يحضرها اليه. وكانت وراء داره مدبغة غمرتها السبول وتسربت منها الى دار ابن الدهان فعانت فيها وفي خزائن كتبه معاً. فلما حملت اليه الكتب على تلك الصورة اشاروا عليه بان يطيبها بالبخور ويصلح منها ما يمكن اصلاحه. فبحرهما باللادن وبلغ ما انفق عليه من هذا البخور اكثر من ثلاثين رطلاً. فتصاعد بخار اللادن الى رأسه وعينيه وحدث له العمى (١). ولا غرو فان خزانة كتب ابن الدهان كانت من احفل الخزائن الخاصة في عصره

(١) ابن خلكان: جلد ١ صفحة ٢٦١-٢٦٢.

بدليل احتياجها الى تلك الكمية الوافرة من اللاذن لاجل تبخيرها . ومن شعر ابن
الدهان هذان البيتان (١) :

بالكتب لا تحسبن أن مثلنا ستصير
فللدجاجه ريش لكتبا لا تطير

٢ - اجتراف كتب المسجد الحرام بمكة

في السنة ١٠٥٥ للهجرة وقع في مكة سبل عرمرم لم يسبق له مثيل في تاريخ
هذه المدينة . فدمر ابنتها ودخل المسجد الحرام وأتلف ما في قبة الفرائدين من
المصاحف والرباع والكتب (٢) . فكانت الحسارة جسيمة على العلم في تلك النكبة
الفادحة .

٣ - اجتراف مكتبة دير الربان هرمزد بجوار الموصل

بالقرب من الموصل دير قديم للكلدان يُسمى دير الربان هرمزد كان يشتمل
على مكتبة ثمينة حوت مئات من المخطوطات القديمة المكتوبة على رق . فحلت بها
نكبات شتى ولا سيما عام ١٨٤٤ اذ خرب الاكراد الدير المذكور وأعملوا
السيف في رهبانه . فاستطاع الرهبان ان يهربوا نحو خمسمائه مخطوطة اودعوها
قبواً قديماً مجاوراً للدير . غير ان مطراً غزيراً سقط من اعالي الجبل فاجتاحت
سيوله القبو والكتب معاً ودفعتها الى قعر الوادي حيث تلفت على بكرة ايها .
ولم يُعثر لها بعد ذلك على اثر (٣) .

(١) نكات الهيات : صفحة ١٥٨

(٢) خلاصة الاثر : جزء ٢ صفحة ١٧٨

(٣) اثر قديم في العراق لمؤلفه كوركيس حنا عواد : صفحة ٥٠-٥٤

الفصل الثاني والعشرون

امراء ابن الآبار البلنسى وامراء كتبه مع

كان ابن الآبار (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ) من كبار الشعراء والمؤرخين في عصره. وكان حافظاً حسن الخط. رشحه سلطان تونس لكتابة علامته في صدر مراسلاته فنهض ابن الآبار بذلك مدة من الزمان. ثم عهد السلطان في هذه المهمة الى ابي العباس الغساني فاخذ يكتب له بالخط المشريقي وهو افضل لدى السلطان من الخط المغربي. فشق ذلك على ابن الآبار لا يثار غيره عليه فعوتب على ذلك. فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وانشد متمثلاً:

اطلب العز في لظى وذّر الذلّ ولو كلف في جنان الخلود

فلما نهي الخبر الى السلطان امره ان يلزم بيته. ثم ما لبث ابن الآبار ان استعجب السلطان بتأليف كتاب رفعه اليه سماه «اعتاب الكتاب» وضمنه اخبار من عوتب منهم واستشفع بابنه المستنصر. فغفر له السلطان واقال عثرته واعاده الى الكتابة. ولما مات السلطان دعاه امير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه. ثم حصل بينهما نزاع كانت عاقبته وخيبة على ابن الآبار. فان السلطان امر بالقاء القبض عليه وبعث الى داره من نقل اليه كتبه واوراقه باجمعها. فالتقى بينها فيما زعموا قرطاساً يشتل على ابيات افتتحها بقوله:

طغى بنون خلت سمه ظمناً خليفة

فاغتاظ السلطان علي ابن الآبار وامر بامتنعانه ثم بقتله . فقتل قعصاً بالرماح
في منتصف محرم سنة ٦٥٨ للهجرة ثم أحرق شلوه . وحملت مجلدات كتبه واوراق
سماعه ودواوينه فأحرقت معه (١) .

وكان ابن الآبار قد شعر بما سيؤول اليه حاله فجاثت نفسه ونطق بهذين البيتين:

إذا ما رأيت الرسوم انحت ولم يُرعَ حقّ لذي منصبٍ
فخذ في التحوّل عن تونس واترك معالمها واهرب

(١) نفع الطيب : جزء ١٠ صفحة ٦٢١-٦٢٢

الفصل الثالث والعشرون

اكتساح المغول مكتبات ما بين النهرين والعراق وسوريا
وزكستان والهند

١ - انقراض يساور التتري على مكتبات ملطية

أبى الدهر الا محاربة الكتب والمكاتب فسلط عليها في كل عصر اقواماً طغاة استباحوا محارمها وقوضوا معالمها . ولولا المغول او التتر الذين فاجأوا الدول العربية كالسيل العرم في القرن السابع للهجرة كسَلِمَت من كنوزها العلمية بقية تذكر . ومن أقدم الطغاة التتر الذين اورد التاريخ اخبار فظائعهم كانت فائدم « يساور » الذي انقضَّ في تموز السنة ١٢٥٢ م على ملطية وعلى ما جاورها من المدن والداكر . فابادها وشتت شمل سكانها ونهب كل ما فيها (١) . ثم حمل على اديارها ومساجدها فأحرقها واحرق معها خزائن الكتب . نذكر منها مكتبة الطيب اهرن والد المفريات ابى الفرج ابن العبري كما سلف القول في غير هذا الفصل .

٢ - اجهاز هولاء كو على مكتبات بغداد حرقاً وغرقاً

لما زحف التتر الى بغداد بقيادة هولاءكو عام ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م) لم

(١) تاريخ الدول السرياني : صفحة ٤٩٢-٤٩٣

يشفقوا على خزائن كتبها العامة والخاصة . فاحرقوا جانباً منها وطرحوا بعضها الآخر في نهر دجلة فسدت مجراه . وزعم بعض المؤرخين ان المغول او التتر فعلوا ذلك انتقاماً مما فعله المسلمون في اول الفتح العربي بكتب الفرس وعلومهم . وادعى آخرون ان هولاء كو ابنتى بتلك الكتب اسطبلات الخيول وطاولات المعالف عوضاً عن الطين . وكان هولاء كو يعيث سبعة ايام في مدينة بغداد فاستباحها ووطىء سكانها بالاقدام . ثم اباد خليفته المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٤ هـ) واستولى على قصور الخلافة وذخائرها (١) .

٣ - قسط مدينة دمشق من مظالم هولاء كو وغازان التتريين

ونالت مدينة دمشق قسطها الوافر من مظالم هولاء كو وفضائعه . فان هذا الطاغية لما دخلها عام ٦٥٨ للهجرة أحرق طائفة من مكنتاتها . ونقل منها جانباً غير يسير الى مكتبة انشأها في مراغة باذربيجان . وفي السنة ١٣٠٠ للميلاد اغار غازان ملك التتر على دمشق فاحرق الشيء الكثير من كتبها . وقد تفجع علاء الدين الاوتاريّ الدمشقي لتلك النكبة المائلة فنظم فيها قصيدة تقتطف منها ما يلي (٢) :

أحسن الله يا دمشق عزالك في مغانيك يا عماد البلاد...
 طرفقتهم حوادث الدهر بالقتل ونهب الاموال والاولاد
 وبنات محجبات عن الشمس تناءت بين ايدي الاعادي
 وقصور مشيدات تقضت في ذراها الايام كالاعباد
 وبيوت فيها التلاوة والذكر وعالي الحديث والاسناد
 حرقوها وخرّبوها وبادت بقضاء الله ربّ العباد

(١) مختصر تواريخ القرون المتوسطة : تأليف القس لويس رحالي : باب ٣ فصل ٨ صفحة ٣٠٣

(٢) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ٣٧٦

٤ - تحويل مكتبات سمرقند وبخارا والهند الى رماد

لمّا تولى ابا قاسم شؤن المملكة المغولية سنة ٦٦٤ للهجرة (١٢٦٥ م) خلفاً لابييه هولاء كوناى المغول في تخريب دور العلم في اغلب البلدان الاسلامية. فاحرقوا مدرسة سمرقند ومدرسة مسعود بك في بخارا سنة ٦٧١ للهجرة. وكانت كلتا المدرستين من اعظم مدارس ذلك العصر تشتمل كل منهما على مكتبة معتبرة. فالتهمت النيران مخطوطاتها الوافرة وحولتها الى رماد. ولم تسلم مكتبات الهند ايضاً من الكوارث اذ لم يبق منها اثر بعد الفتنة فاحترق بعضها ونهب البعض الآخر. والقليل الذي بقي من كتب الهند بيع بثمان بنجس (١).

٥ - حرق مكتبة ابي الفداء في حماة

من الرزايا الفادحة التي نزلت بالعلم احتراق مكتبة ابي الفداء صاحب مدينة حماة سنة ٦٨٧ للهجرة (١٢٨٨ م). وقد ذهبت فيها طعاماً للنار مخطوطات لا تحصى ولا تقدر بثمان.

(١) دائرة معارف القرن العشرين : مجلد ٨ صفحة ٧٥

الفصل الرابع والعشرون

بيع مكتبة المدرسة الفاضلية بلرغفة خبز في أثناء المجاعة بمصر

مما يثير الاشجان ويستنزل الدموع من العيون ما حل من النكبات بالخزانة العظيمة التي اشتراها القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبساني (٥٢٩-٥٩٦ هـ) في ايام صلاح الدين الايوبي وجلسها على المدرسة الفاضلية التي انشأها في القاهرة . وكانت هذه الخزانة خاصة بالمارستان العتيق قبل نقلها الى دار العلم التي امر السلطان المشار اليه باتلافها . فاختار منها القاضي الفاضل مائة الف مجلد وزاد عليها كثيراً حتى بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة مائة واربعة وعشرين الف مجلد . وكان يقتني المخطوطات من كل فن ويقتلها من كل جهة ولديه نسخ لا يفترقون ومجلدون لا يطلون من العمل . واحتوت تلك الخزانة مصحفاً اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين الف دينار على انه مصحف الخليفة عثمان . وكان هذا المصحف محفوظاً في خزانة مفردة له غربي المحراب . فلما وقع الغلاء بارض مصر في سنة ٦٩٤ للهجرة صار طلبية المدرسة الفاضلية يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز سداً لجوعهم . وبقيت من تلك الخزانة بقية تداولتها ابدي الفقهاء بالعارية ففرقت (١) .

(١) احمد زكي باشا : مقالته في المتنطف

الفصل الخامس والعشرون

مريق خزنة الكتب في القاهرة

ذكر المقرئ خبر هذا الحريق في خزنة الكتب فقال ما نصه : « وقع بها الحريق يوم الجمعة رابع صفر سنة احدى وتسعين وستائة فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان من ذخائر الملوك . فانتهبها العلمان وبيعت اوراقاً محرقة وظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها واخذوها باجنس الاثمان (١) . فكانت تلك النكبة وبالاً على العلم وذويه .

(١) المخطوط المقرئية : جزء ٣ صفحة ٣٤٥

الفصل السادس والعشرون

احراق كتب ابن حزم الاندلسي

اشتهر في القرن السابع للهجرة ابو محمد بن حزم الاندلسي الذي تقلب في المناصب العالية واحرز جاهاً ومالاً جزيلاً . ثم زهد في ذلك كله ومال الى العلم اذ رأى رتبته فوق كل رتبة . وكلف باقتناء الكتب كلفاً شديداً حتى انه حشد منها في منزله قسطاً وافراً .

وكان ابن حزم من أعلم علماء الاندلس واكثرهم تأليفاً . اخذ عليه الفقهاء بعض المأخذ وابلغوا المعتضد بن عباد امير اشبيلية ما ينقمون به عليه . فجمع المعتضد كتبه وأحرقها وفي ذلك يقول ابن حزم :

دعوني من احراق رقي وكاغدي وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي تضمنه القرطاس اذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركابي وينزل إن أنزل ويدفن في قبوري
ومات ابن حزم سنة ٤٥٦ للهجرة . ويقال انه ألف نحو اربعمائة مجلد لا نعرف
الآن منها سوى واحد او اثنين . وذهب الباقي طعمة للنار (١) .

(١) نفع الطيب : جزء ٢ صفحة ١٤١ وكتاب «حرية الفكر» لسلامه موسى :
صفحة ١٠٢ و ١٠٣

الفصل السابع والعشرون

فواضع مكتبات الاندلس والاسكورياال

١ - احراق ثمانين الف مخطوط في ساحة غرناطة

على اثر الحرب التي نشبت في الاندلس بين العرب والاسبان وكانت نتيجتها اضمحلال الدولة العربية في الغرب توالى الخزن على خزائن مخطوطاتها البسيطة التي كانت تحصى بمئات الالوف. فذهبت مأسوفاً عليها اما نهياً وسلباً واما ضحية التخريب واما فريسة للنيران كجاري عادة رجال الفتح في تلك الايام (١) وافضع نكبة منيت بها الاندلس حدثت عام ١٤٤٩م اذ جمعت المخطوطات من كل الانحاء واحرقت اكدياساً في اكبر ساحات غرناطة . ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة مجلد في الطب والرياضة اهديت الى جامعة « القلعة » التي انشأها الكردينال زينس . ويقال ان عدد المخطوطات العربية التي ابعدت في تلك الفاجعة بلغ نحو ثمانين الفا (٢).

٢ - انقراض صاعقة على الاسكورياال احرقت قسماً من مخطوطاته

من الارث العلمي العظيم الذي جمعه خلفاء الاندلس وعلماءها مدة خمسة قرون لم يسلم سوى بضعة آلاف مجلد حفظت في مكتبة الاسكورياال بجوار مدريد عاصمة اسبانيا . ثم اضيف اليها سنة ١٦١٢ ما غنمه الاسبانيون من المخطوطات التي كانت خاصة بمولاي زيدان سلطان مراكش . وقد التهمت النار قسماً من هذه المخطوطات بتاريخ ٧ حزيران ١٦٧١ في حريق نشب في الدير المذكور بسبب صاعقة سقطت عليه (٣) فكان الاسف عليها شاملاً في الاندلس .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : مجلد ٣ صفحة ١١٣

(٢) مقالة عنوانها « انقذوا تراث الاندلس » بقلم محمد عبدالله عنان (مجلة « الرسالة » سنة ٤
صفحة ١٦٨٥ و ١٦٨٦)

(٣) Charles Graux : Essai sur les origines du fond grec de l'Escorial, p. 319

الفصل الثامن والعشرون

غارات تيمورلنك على مكنتات البلاد الهندية والفارسية والعربية

١ - محو تيمورلنك جميع المكنتات في ما دوحه من الاقطار

في القرن الرابع عشر ظهر تيمورلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) الطاغية وملك عدة مدن في بلاد الهند وفارس والعراق وما بين النهرين وسوزيا فكان لا يدخل في سيره قرية الا افسدها ولا ينزل على مدينة الا يحاها وبددها (١).

٢ - غارة تيمورلنك على ملة الصابئة

الصابئة او الصبا ويقال لهم المندويون قوم يعرفون بنصاري مار بوخنا يسكنون في النواحي الشرقية من العراق ولا سيما في اطراف البصرة. وبلغ عددهم في القرن الرابع عشر للميلاد عشرين الف بيت ولغتهم سريانية محرفة بمزوجة بالقاظ عربية اطلق عليها اسم «النبطية». فلما شن تيمورلنك الغارة على تلك الاصقاع القى الذعر في قلوب سكانها. وما كان من عامه المتولي بلاد الصابئة الا ان افرغ جهده في ابادتهم ومحو آثارهم. فهدم كنائسهم واحرق كتبهم وشنت شملهم حتى انتزحوا عن ديارهم الى بلاد الهند. ولم يبق منهم الا بضعة آلاف في سواد البصرة (٢).

(١) بحاني الادب : جز ٦ . صفحة ٣٣٢
(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للطران يوسف داود : صفحة ٦١٤-٦١٥ طبعه الموصل

٣ - تخريب مكاتب طورعبدین وانتحاب اشعيا الباسبريني عليها

ذكر غير واحد من المؤرخين ان تيمورلنك شد سنة ١٣٩٣ للميلاد في جيش كنيف على طورعبدین فدك ادياره وخرّب مدارسہ وقبوض كنائسہ. ثم احرق ما كانت تشتمل عليه تلك المعاهد من الامتعة الفضية والاواني الذهبية والكتب القديمة الثمينة التي كانت مخطوطة باللغات العربية والسريانية واليونانية والفارسية وغيرها. واليك ملخص ما رواه شاهد عيان وهو اشعيا الباسبريني (١). المتوفى سنة ١٤٠٠ م في قصيدة له. قال ما تعريبه :

« هوذا الاتراك ينهبوننا والاكراد يسلبوننا... دكوا الكنائس والهياكل واستحذوا على اثارها ورياسهد. بعثروا مدافن الابهاء... واستباحوا كتب الاناجيل وسلبوا الكتب المقدسة... كسروا الايقونات والصور والصلبان المرصعة واصطنعوا منها فلاند. مزقوا المصنفات والحلل والسجوف فخططوها قمصاناً وثياباً... امسى دير قرتمين (دير العمر) خراباً يباباً بعد ما كانت جنة غناء... انتزعوا المسامير الفضية والذهبية من دفوف الاناجيل الجميلة... ولم يبقوا على اخشاب الابواب فاحرقوها قاطبة بالنيران (٢) »

٤ - حرق تيمورلنك كتب مدرستي العادلية والقضائية في دمشق

في وقعة تيمورلنك سنة ٨٠٣ للهجرة (١٤٠٠ م) استعرت النيران في دمشق مدة ثلاثة ايام متوالية فانتلفت اسواقها ومنازلها ومعابدها ومدارسها. وكانت النكبة شديدة باحترق خزائن كتب المدرسة العادلية والمدرسة القضائية (٣).

(١) نسبة الى باسبرينا وهي قرية شهيرة بطور عدين

(٢) الكنز الثمين للقرادحي : طبعة رومة سنة ١٨٧٥ صفحة ١١٣-١١٨

(٣) خطط الشام : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

الفصل التاسع والعشرون

أسارة الأسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين إلى العلم وحرية الأدب

١ - نهب الأسبانيين مكتبة الجامع الأعظم بتونس

في السنة ٩٧٨ للهجرة (١٥٧٠ م) جرت في تونس موقعة 'عرفت بمخطرة الدواميس دارت بها رحى الحرب بين علي باشا التركي وبين أمير تونس محمد الحفصي. فاستنجد هذا دولة اسبانيا التي أرسلت أسطولها إلى «حلق الوادي» وأيدت عمداً في أمارته. فهرب السكان من شدة خوفهم ودخلوا الغابات وعمل فيهم الجوع. ثم أرسل اليهم محمد الامان فرجعوا. وكان النصارى (الاسبان) قد استولوا على أكثر بيوتهم ونهبوا خزانة الكتب التي بالجامع الأعظم وخرّبوا المدارس ومزقوا كتب العلم وضربوا النواقيس (١) ووطئت سنابك خيلهم ما خلفه علماء تونس من مؤلفات كانت تضاهي ما اجتمع من الكتب في نيسابور و مرو و بغداد وقرطبة (٢).

٢ - ائتلاف الأسبانيين كتب سكان المكسيك القدماء وسجلاتهم

كان اهل المكسيك يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على منسوجات فظنية

(١) دائرة المعارف البستاني : مجلد ٦ صفحة ٢٧٨

(٢) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٢٠٤

مصبوغة بالوان مختلفة 'رسمت عليها احرف' وعلامات غريبة. قال احد المؤرخين :
لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات ورسوماً
وصوراً في المنسوجات وجاود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فأنلفوها
غير مبقين على شيء منها . ويُظن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء
الى حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم
الجديد (١) .

٣ - احراق مطران غوا البرتغالي كتب النساطرة الملبارين

في اواخر القرن السادس عشر اشتهر الكسيس منش رئيس غوا البرتغالي
اللاتيني . وغوا هي جزيرة في الهند استعمرها البرتوغاليون ولم تزل تحت حكمهم
حتى اليوم . وفي السنة ١٥٩٩ عقد المطران الكسيس المشار اليه مجعاً في ديامبر (٢)
حضره ثمانمائة وثلاثة عشر شخصاً من كهنة النساطرة واعيانهم الذين انضموا في ذلك
العهد الى الكنيسة الكاثوليكية . وحدث ذلك المجمع قوانين جديدة لنساطرة الملبار
المتكئلكين أدخلت في مؤلفاتهم الدينية القديمة . ولم يكتب المطران الكسيس
بذلك بل أمر ان تحرق جميع الكتب الطقسية التي كان يستعملها النساطرة في تلك
الامصار . ثم قرّر في المواد ١٤ و ١٥ و ١٦ من احكام مجمع ديامبر ما ملخصه :

« فلتحرق كتب فروض المجهي والميلاد التي مزقناها قطعاً قطعاً . ومن حوى
مثل هذه الكتب ولم يرسلها الى المطران خلال شهرين منذ اطلّاعه على هذا
الحكم . . . فانه يسقط في الحرم » (٣) .

(١) محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق : صفحة ٢٦١

(٢) مختصر تواريخ الكنيسة للمطران يوسف داود : صفحة ٦١١ طبعة الموصل

(٣) ذخيرة الازهار في تواريخ المشرق والمغرب السريان : بقلم الاب بطرس نصري :

جزء ٢ : صفحة ١٦٣

٤ - احراق كتب اليهود والبروتستان في شوارع باريس

اشتهر اولياء الامر الفرنسيون في القرون الوسطى بشد يد حرصهم على معتقد الكاثوليكي . وذاع عنهم في الوقت نفسه تعنتهم مع من كان مخالفاً لمعتقدهم كاليهود والبروتستان . يؤيد ذلك حكم صدر باحراق كتاب التلموذ فحشدوا جميع نسخه المخطوطة ونقلوها على اربع وعشرين عجلة الى ساحات مدينة باريس . وهناك اضمروا فيها النيران على مرأى من سكان العاصمة فالتهمت باجمعها .

وتصرف الفرنسيون التصرف عينه في مصاحف البروتستان الدينية في القرن السادس عشر فجمعوها وكسوها كلها اكداساً اكداساً . ثم اطلقوا فيها النيران فأتت عليها برمتها ولم تبق منها اثراً (١) .

(١) La vie de Paris au moyen âge, Par Pierre Champion, page 185

الفصل الثلاثون

مصائب مكتبات انكلترا

١ - احراق مكتبة او كسفورد وغيرها

من الحسائر الكتابية الفادحة التي سطرها التاريخ بأسف شديد ما جرى حين الانقلاب الديني في انكلترا في القرن السادس عشر . فان مكتبات حجة أحرقت حين ذلك . اخصها مكتبة او كسفورد الثمينة التي ابادها كرمويل (١٥٩٩-١٦٥٨) في اواخر حياته .

٢ - تصرف البدلين والمجلدين في مخطوطات الاديار

كتب بال احد علماء الآثار سنة ١٥٨٦ للميلاد مقالة مسهبه عن اتلاف كتب الاديار في انكلترا حين الاضطهاد الذي ثار على الكاثوليك قال : « ان مخطوطات المكتبات كانت تباع جزافاً للبدلين (باعة المأكولات) ليغلفوا بها ما يبيعونه من المأكولات والاسماك . وكان المجلدون ايضاً يشترون المخطوطات الكاثوليكية النفيسة بانحس الاثمان ويبتطنون بها الكتب الخديثة . وكثيرون ممن الانكليز البروتستان كانوا يدفعون المخطوطات الى اولادهم ليحرقوها فيتهجوا بمرأى لمبيها . وقال كاتب آخر : « ان اوراق المكتبات الثمينة كانت تستعمل لتغليف قطع الحلوى وغيرها » .

٣ - اجتياح مكاتب جمعة في حريق لندن سنة ١٦٦٦

في السنة ١٦٦٦ شب حريق عظيم في لندن اجتاح تلك العاصمة البريطانية من ادناها الى اقصاها . وروى المؤرخون يومئذ ان الحريق المذكور كانت افطع فواجه عصرهم واسترسلوا يصفونه بقولهم : « كان نيراناً من السماء تنظر على المدينة » . وقد ذهبت مكاتب جمعة خاصة وعامة طعاماً للنيران . منها مكتبة « شركة نشر الكتب » التي كانت في مستودع كبير بشارع باترنوستر (١) .

٤ - احتراق مكاتب غوطون

لما نشب حريق Ashburnham House في ناحية وستمنستر اصابت نيرانه مكتبة غوطون الشهيرة . وكانت هذه المكتبة القديمة العهد غنية بالخطوط الثمينة فذهبت برمتها وامست اثرأ بعد عين (٢) .

(١) مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣١

(٢) مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣١

الفصل الحادي والثلاثون

اغراق مخطوطات في الانهر والبحار والادبار

١ - اغراق داود الطائي كتبه في الفرات

روى ابن خلكان في تاريخه ان داؤد الطائي بن نصير الكوفي لما تبصر بالعلوم اغرق كتبه في نهر الفرات . وذكر البقاعي في حاشيته على شرح الالفية للزين العراقي قال : سألت شيخنا ابن حجر العسقلاني عما فعل داؤد الطائي وامثاله من اعدام كتبهم ما سببه ؟ فقال : لم يكونوا يرون انه لا يجوز لأحد روايتها الا بالاجازة لا بالوجادة . بل يرون انه اذا رواها احد بالوجادة يضعف . فأوان مفسدة اتلافها اخف من مفسدة تضعيف بسببهم . وقد حلت وفاة الطائي سنة ١٦٥ للهجرة (٧٨١ م) (١) .

وذكر ياقوت الرومي عن داؤد الطائي في كتابه «معجم الادباء» قوله : «داؤد الطائي ويقال له تاج الامة طرح كتبه في البحر (اي بحر الفرات) وقال بناجيا : نعم الدليل كنت ! والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء ونحول !» (٢) .

(١) ابن خلكان : جزء ١٠ صفحة ٢٢٠

(٢) معجم الادباء : جزء ١٥٠ صفحة ٢١

٢ - تغريق هولاء كو خزائن كتب بغداد في دجلة

أفضع نكبة رواها المؤرخون عن تغريق الكتب هي التي أقدم عليها الطاغية هولاء كو التتري عندما دوّخ بغداد عاصمة العباسيين سنة ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م). فانه اباد مكتبات هذه المدينة وانلفها عن بكرة ابيها كمكتبة بيت الحكمة ومكتبة المدرسة النظامية ومكتبة المدرسة المستنصرية وخزانة الدار الخليفةية وغيرها من مكتبات الامراء والوزراء والاعيان وارباب الحبار. فذهب بعضها طعاماً للنار وبعضها عرضة للنهب. اما معظمها وكان كثيراً جداً فقد امر هولاء كو ان يطرح في نهر دجلة فسدّ بجراه. وكانت جيوش هولاء كو تجتاز من شاطيء الى شاطيء على اكداس من تلك الكتب المخطوطة كانها جسر معقود !!

٣ - غرق مصحف الخليفة عثمان في البحر

هو المصحف الشير الذي كان في منبر جامع قرطبة وقد مرّ وصفه في الفصل الثاني من الباب الاول. وُنقل سنة ٥٥٢ للهجرة بمجالى التكريم والتعظيم من قرطبة الى مراکش في عهد امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي. وظل المصحف بيد السلاطين يعتنون به ويحمون به في اسفارهم متبرّكين به حتى اصبح في حوزة السعيد علي بن ادريس بن يعقوب المنصور الملقب بالمعتضد بالله. وبعد قتل السعيد سنة ٦٤٥ للهجرة قريباً من نلمسان نهب المصحف. فعثر عليه ملوك بني عبد الواد اصحاب نلمسان وحرصوا عليه كل الحرص في خزائنها. ولبثوا محتفظين به ريثما افتتح افريقيا السلطان ابو الحسن المريني. فاستولى حينذاك على المصحف وحمله معه تبرّكاً في رحلاته وفتوحاته. واتفق انه عندما قفل بجراً من تونس الى المغرب سنة ٧٥٠ للهجرة حدث في البحر هيجان عظيم أغرق المراكب بمن فيها من نفوس وما فيها

من نفائس يعزّ وجود نظيرها . واخصها واثمنها مصحف الخليفة عثمان فكان ذلك آخر العهد به (١) .

٤ - نقل كتب الطريحي وطرحها في البحر

اقتنى الشيخ فخر الدين الطريحي كتباً كثيرة مخطوطة في غابة الجودة . فانتقلت الى ورثته بعد وفاته سنة ١٠٨٥ للهجرة . ولم يسلم منها شيء . يعتدّ به الا اوراق متفرقة لدى ذريته . وحدث بعض الاعلام انه رأى بعينه في سرداب بدار الشيخ نعمة الطريحي ما يقرب من ثلاثة اجمال من اوراق كتب مبعثرة قد اتلفها المطر . فنقلت باجمعها والقيت في البحر (٢) .

٥ - فقدان سفيني مخطوطات للسمعاني في النيل

في السنة ١٧١٥ وافي العلامة الكبير يوسف سمعان السمعاني من رومة ليزور لبنان مسقط رأسه . فانتهاز الفرصة وطاف اكثر الانحاء الشرقية كدمشق وحلب والقدس واديار سوريا ولبنان وصعيد مصر متفقداً خزائن كتبها القديمة . وجمع منها ومن بيوت الخاصة ما تيسر له من المخطوطات النادرة في اللغات العربية والسريانية والقبطية .

ومن الاماكن التي تعهد بها السمعاني دير صيدنايا بجوار دمشق حيث عثر على طائفة من المخطوطات القيمة في احد جوانب الهيكل ما كلاً للعت والارضة فأذن له باخذها (٣) . وقد شحن ثلاث سفن من المخطوطات وعاد بها قاصداً رومة ليجعلها في المكتبة الواثكانية لانه كان احد امنائها . بيد انه لسوء الطالع غرق في النيل

(١) الاستقصاء لاختبار دول المغرب الافصى : لاجد بن خالد الناصري : جزء ١ صفحة ١٥٠
(٢) ماضي النجف : تأليف جعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة : صفحة ١٠٤
(٣) خبايا الروايا من تاريخ صيدنايا : لحبيب زيات : صفحة ١٠٠

سفينتان من تلك السفن الثلاث ولا يُقدّر ما فيها بأقل من عشرات الالوف من المجلدات (١) . ولا يزال علماء المشرقيات يندبون هذه الحسارة الجسيمة التي لا تعوّض . وفي عداد ما غرق من تلك الذخائر الثمينة والياذة اوميرس ، منظومة بالشعر السرياني بقلم توفيل الرهاوي رئيس منجمي الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥ م) في بغداد .

٦ - غرق مكتبة عظيمة سُحنت من الصين الى انكلترا

روى والد اللورد بيكنسفيلد أن رجلاً غنياً يُدعى Heer Huld سافر من انكلترا في اوائل القرن الثامن عشر الى بلاد الصين حيث قضى ثلاثين سنة كاملة . وهناك اقتنى الوفاً من الكتب تضمّت آداب الصينيتين وعلومهم وفنونهم واسرار صناعاتهم القديمة وتواريخهم ليؤلف منها في وطنه مكتبة معتبرة . فلما اراد الرجوع الى اوروبا سُحنت تلك الكتب في سفينة كبيرة هبت عليها العواصف في عرض البحار فاغرقتها . هكذا ذهبت تلك المساعي الحميدة ادراج الرياح بفقدان ثروة علمية عظيمة (٢) .

٧ - اغراق القرصان ثلاث سفن سُحنت كتباً من البندقية الى لندن

كان مافاي بينل يملك في البندقية مكتبة ثمينة تضم مئات الالوف من اجود المصنفات بينها مخطوطات من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر . فباعها ورثته الى كتي في تلك المدينة وهذا سُحنتها في ثلاث سفن الى لندن . فدعها القرصان ولما لم يجدوا فيها غير الكتب ألقوا هذه في البحر واكتفوا من الغنيمة بالسفن الثلاث (٣) .

(١) خطط الشام : محمد كرد علي : مجلد ٦ صفحة ١٩٨

(٢) اعداء الكتب : لجرمي سكك (مجلة الآثار : مجلد ١ صفحة ٣٣٢)

(٣) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣٢

٨ - القاء كتب عبد العزيز النجفي في البحر وفي الآبار

اقتنى عبد العزيز كتباً وافرة طلبها من الهند والعراق حتى انافت على الالوف . وكانت مخطوطة ومذهبة قد اطلع على بعضها الشيخ علي آل كاشف الغطاء . وبعد وفاة عبد العزيز جامعها تفرقت بين آله فباع فريق منهم حصته واهمل الفريق الآخر حصه حتى امست فريسة للأرضة . قتل اكثرها على يدي اعداءهم والقيت جملة منها في بحر النجف وفي الآبار (١) .

٩ - طرح كتب في بئر كنيسة الموصل

لما انضم سريان فرقوش بجوار الموصل الى الكتلكة سنة ١٧٨٠ طرحوا في بئر كنيسة الطاهرة بالموصل جميع الكتب المشتملة على ما يخالف معتقدهم . وكانت مجلدات كثيرة تنطوي على قضايا مهمة واخبار تاريخية ومباحث علمية في كل فن ومطلب . ويتناقل شيوخ قرية «فرقوش» عن اجدادهم انهم خسروا كنزاً عظيماً بفقدان تلك الكتب (٢) .

(١) ماضي النجف : صفحة ١٠٤

(٢) عناية الرحمان في هداية السريان : للطهران افرام نقاشة : صفحة ٢٦٢

الفصل الثاني والثلاثون

غارة الجزائر على مكنتات جبل عامل

في السنة ١٢٠٩ للهجرة (١٧٩٤ ميلادية) جرى خلاف بين احمد الجزائر واعيان جبل عامل ادى الى ثورة سكان هذا الجبل عليه . فارسل الجزائر عسكره ففتك بهم واهلكهم قتلاً وجساً حتى افنى الحرث والنسل (١) . واخبرني الحاج احمد عارف الزين صاحب مجلة «العرفان» في صيدا بان الجزائر اجهر في تلك الثورة على خزائن كتب جبل عامل ونقلها الى مدينة عكا . وبينها مكتبة مهدي خاتون في قرية «جوياء» كانت تشتغل على زهاء اربعة آلاف مخطوط . فانتقى الجزائر قسماً منها ضمه الى خزائن الجامع المعروف باسمه . اما الباقي فقد وزعه على افران عكا التي ظلت توفد تلك المخطوطات مدة ثلاثة ايام متوالية .

(١) مجلة العرفان : مجلد ٥ صفحة ٢٣

الفصل الثالث والتسعون

غائز مخطوطات صيدنايا

١ - مكتبة دير الشاغورة واقدام البطريك متوديوس
على احراق مخطوطاتها

لروم الارثوذكس دير قديم في صيدنايا من اعمال دمشق يقال له دير السيدة او دير الشاغورة . وقد مرّ بنا وصف مكتبته الشهيرة التي كانت آهلة بالمخطوطات النادرة في اللغات العربية واليونانية ولا سيما السريانية . وكان للسريان مذبج خاص بهم شيدوه على اسم مار يعقوب في شمال كنيسة الدير المذكور (١) . وظلوا مستأثرين بذلك المذبج الى ان هدم في اواسط القرن التاسع عشر كما روى الاسقف اسبنسكي الذي زار صيدنايا في السنة ١٨٤٣ ميلادية .

فخشي البطريك الانطاكي متوديوس (١٨٢٣ - ١٨٥٠) ان تكون كثرة المخطوطات السريانية حجة للسريان يتقنون بها على تأييد حقوقهم في الدير . فاتقاه لهذا الحظر الوهمي أمر باضرام النار في المخطوطات السريانية (٢) . وكان ذلك في الربع الثاني من القرن التاسع عشر في عهد الحاجة كاترينا مبيض رئيسة الدير (١٨٣٤ - ١٨٥١) .

٢ - اتخاذ مخطوطات المكتبة وقيداً في تنور الدير مدة اربعة ايام

الى القراء ما اثبتته البعثة حبيب الزيات عن حريق هذه المخطوطات السريانية

(١) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٩٧

(٢) خبايا الزوايا من تاريخ صيدنايا : صفحة ٩٧

وعن تلاعب وكلاء الدير بالمخطوطات العربية قال :

« ولا يخفى ما ضاع على العلم والتاريخ الشرقي من الفوائد والتعليقات التي كان يمكن اقتباسها من هذه الذخائر القديمة . وقد كان لاجراقها عمداً بيد التعصب والجهل رنة إكبار وإنكار في نفوس علماء المشرق حين وقفوا على شرح هذه الفظيعة الشنعاء في المقالة التي كنا نشرناها في تموز سنة ١٨٩٩ في مجلة المشرق . بعد ان تلقينا من فم شاهد عياناً اي من فم رئيسة الدير نفسها الحاجة سعدى هلال تفصيل الواقعة . قالت :

« كنت يومئذ فتاة صغيرة عند جدتي في زمان رئاسة الحاجة كاترينا مبيض (١٨٣٤ - ١٨٥١) ووكالة والد الحوري ميخائيل كك والشخاشيري وجبران الميداني . وكانت المكتبة في ذلك العهد حافلة بالمخطوطات السريانية النادرة . فانها كانت وافرة جداً حتى خشي الوكلاء من كثرتها ان تكون حجة بيد السريان يتقوون بها على اثبات حقوقهم على الدير . فاجمع رأيهم على اخراجها وانلافها تخلصاً من شرها . فجمعوها ومعظمها من نفائس الكتب المخطوطة على رق الغزال . وبدأوا بحرقونها تحت القناطر (وأشارت الى مكانها) ثم كرهوا ان تذهب نارها ضياعاً فجمعوها في فرن الدير لتكون وقوداً له وخبزوا عليها خبزتين . وظلت النار تشتعل اربعة ايام في تلك المخطوطات خلا ما أحرق منها تحت القناطر . لان الحبرة تبتدى . يوم الخميس ولا تنتهي الا يوم السبت (١) .

« ولم يقع التفريط في الكتب السريانية وحدها بل شمل سائر المخطوطات على السواء . وهي منذ وجدت في الدير لم تبرح قنصاً لكل صائد ونهباً لكل وارد . تتناول منها الايدي ما تختار وتشاء بطريق الاستعارة او العازة . فذهبت كل نفائسها ولم يسلم منها لهذا الوقت الا حثالة ليس فيها للعلم كبير غناء . . . وغاية ما يستفاد من البحث فيها بعض الحواشي والتعليقات في التراجم والانساب » .

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : صفحة ١١٧-١١٨

الفصل الرابع والثلاثون

انوار مخطوطات نبتة ومدارج قديمة في مصر

١ - تبعث مكتبة جامع ازبك بن ططخ بين الانقاص

من الخزان المشهورة التي بُعثت في القرن التاسع عشر مكتبة جامع ازبك بن ططخ في القاهرة . فان مخطوطاتها النادرة وبينها الشيء الكثير من كتب علم الفلك والميقات وادواتها تشتت اوراقها تحت الانقاص باهمال ديوان الاوقاف في القاهرة . وجرى ذلك في زمن اسمعيل باشا خديو مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩) عندما امر بهدم هذا الجامع لانشاء شارع محمد علي (١) . وقد سبقنا فوصفنا هذه المكتبة المعتبرة في خزائن كتب القاهرة .

٢ - احراق الفلاحين خمسين مدرجة قديمة ليشموا طيب رائحتها

لا يخفى ما تحويه ارض الفراغة من العاديات الغالية الثمن . فكان الفلاحون حين نبشهم الدفائن والحبابا وعنورهم على مدارج او بردي او قراطيس مكتوبة عمدوا الى اتلافها كلها . لكنهم كانوا اذا وجدوا بينها ذهباً او فضة احتفظوا به وتقاسموه . وهذا امر قديم ذكره المؤرخ عبد اللطيف البغدادي لما جاء القطر المصري وقال انه كان شائعاً في طول البلاد وعرضها ياتيه الجشعون . ولعل اولئك الجهلة اتلفوا من الكنوز العلمية والتاريخية ما لا يقدر له ثمن ولا تُعرف له قيمة . من ذلك ان بعض الفلاحين اكتشفوا بقرب الجيزة خمسين درجاً مكتوبة باليونانية في صندوق من خشب الجميز . وقد عرضوها على احد التجار فاخترار واحداً منها ثم احرقوا بقية الدروج لكي يشموا طيب رائحتها (٢) .

(١) مقالة « تاريخ دور الكتب في الشرق » بقلم السيد محمد علي اليلوي نقيب السادة الاشراف في الديار المصرية . نشرت في كتاب عنوانه « مطبعة المعارف واصداؤها » صفحة ٢٩ و ٣٠ .

(٢) المنتطف : مجلد ٢١ سنة ١٨٩٧ صفحة ٥٩١ .

الفصل الخامس والثلاثون

رزايا مكتبات النصارى في سوريا ولبنان

١ - نظرة اجمالية

من اشدرزايا المكتبات في الشرق ما حل بمكتبات النصارى من النهب والتدمير والحريق في اثناء الفتن الاهلية . وكانت تلك المكتبات تشتل على كل نفيس من المخطوطات العلمية والرفوق النادرة والسجلات القديمة التي جمعها رؤساء النصارى وحفظوها في بيوعهم وادبارهم مدة قرون عديدة . ومن طالع اخبار تلك الاديار في شتى العصور علم ان كلاً منها نهب او احرق مرات عديدة . وقد انتزع منها السالبون كل ما وصلت اليه ايديهم من المقتنيات العزيزة والكتب الثمينة .

٢ - خسارة كتب جمعة في ثورة لبنان عام ١٨٤٠

مما يؤيد تلك الحساثر وثيقة رسمية محفوظة بين وثائق قصر الامير بشير الشهابي في بتدين . وهي مسجلة تحت رقم ٣٥٨٣ ورد فيها ذكر كتب خطية ومطبوعة نهب او احرق عام ١٨٤٠ حين فتنة ثارت في جبل لبنان . وجاء في الوثيقة عينها ان اصحاب تلك الكتب طالبوا الحكومة العوض عما فقدوه .

٣ - نهب كتب دير مار افرام الرغم عام ١٨٤١

في السنة ١٨٤١ تعدى بعض الرعاع على دير مار افرام الرغم بجوار الشبانية

يجبل لبنان . فانتهبوا امتعته ومكتبته . وخرّبوا اضرحة المطارنة في الكنيسة
واحرقوا رفاتهم وذرّوا الرماد في الحقل . ثم قبضوا على راهبين من رهبان الدير
والقوما على صخور الوادي لناحية الغرب فقضيا لساعتها (١) .

٤ - حريق مكتبتي الروم الكاثوليك والسريان بحلب عام ١٨٥٠

في فتنة السنة ١٨٥٠ احترقت كنيسة الروم الكاثوليك ودارها الاسقفية
بحلب فذهب ما فيها من الاواني الثمينة والكتب المخطوطة ضحية النار .

وقس على ذلك بيعة السريان الكاثوليك ودارها البطريركية فانها احترقت
في ١٦ تشرين الثاني ١٨٥٠ ولم يبقَ منها حجر على حجر . واليك ما ورد في ترجمة
مار اغناطيوس بطرس السابع بطريرك السريان الانطاكي (١٨٢٠ - ١٨٥١) الذي
جرى هذا الحريق في عهد رئاسته ونصّه (٢) :

« ولشدّ ما كان أسف البطريرك على فقدان كتبه التي كانت تُعدّ بالالوف
ولاسيما الكتب المخطوطة النادرة الوجود . فانها ذهبت فريسة الحريق مع سائر
السجلات البطريركية . ولم يسلم منها الا شيء يسير كان مطموراً تحت الرماد . . .
وهنا لا بد من التنويه بمصحف الانجيل المخطوط بالقلم السطرنجي الجميل منذ القرن
الحادي عشر في قبرس . ثم نقله الاتراك لدى استيلائهم على الجزيرة المذكورة
الى القسطنطينية حيث اشتراه بعض السريان واهدوه الى كنيسة حلب . فكان
مزيناً بنقوش بدیعة ومكتوباً بحروف كلها من ذهب وفضة بما لا يوصف من سلامة
الدق وبراءة الخط (٣) . وقد اخبرنا البطريرك اغناطيوس جرجس الخامس
(١٨٧٤ - ١٨٩١) ان بعض اوراق هذا المصحف التي سلمت من الحريق بيعت بمبلغ

(١) السلاسل التاريخية في اساقفة الارشيات السريانية : صفحة ٩٨

(٢) السلاسل التاريخية في اساقفة الارشيات السريانية : صفحة ١٠٨

(٣) كتاب « الآثار المخطية » بالفرنسية : للاب انطون رباط اليسوعي : مجلد ١ صفحة ٣٨٩

الف وثلاثمائة فرنك (ذهب) . وكانت علامة التأثر ظاهرة على وجه البطريرك عند ذكره هذا الاثر العظيم القيمة والنادر الوجود،

وقد اطلعنا على رسالة مسهبة وجهها البطريرك اغناطيوس بطرس السابع الى القس ميخائيل ازرق رئيس دير الشرفة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨٥٠ نقتطف منها ما يلي : « في ١٧ الجاري داهمتنا نكبة عظيمة جداً نحن ومسيحي حلب . وهو ان الرعاع قاموا بغتة على النصارى فابتدأ النهب والقتل وسي العراض . ثم دخلوا علينا وابتدأوا يضربوننا ضرباً قاسياً بالسيوف والعصي والخناجر والسكاكين حتى صار يسيل دمنا نظير الينابيع . ونهبوا جميع مقتناتنا وامتعة البيت والكسوة ونهبوا الكنيسة ايضاً . وبعده حضر رجل مسلم (١) . حملنا على ظهره واخذنا لبيتنا في جراحاتنا وسيلان دمنا . ثم بعده رموا الحريق بالكنيسة والبيوت التي حولها وجميع القلاي مع المكتبة وكتب الكنيسة... وبالنتيجة خرجنا عربانين نظير ما خرجنا من بطن امنا فاقدن كل شيء فقراء متسولين ليس لنا مكان نسكنه (٢) .

٥ - تلف مكتبات المسيحيين بدمشق عام ١٨٦٠

كل ما روينا عن احتراق مكتبات النصارى في حلب عام ١٨٥٠ يصدق بحذافيره في مكتبات نصارى دمشق حين فتنه السنة ١٨٦٠ ايضاً . فان الرعاع ابادوا كنائس الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك والسريان وادبارهم واوقافهم التي انفقوا على تشييدها قناطير الذهب منذ اقدم العصور المسيحية . فلم يسلم من ذخايرها الكثيرة وسجلاتها العتيقة شيء على الاطلاق . وبين تلك الذخائر البتيمة

(١) هذا الرجل الشهم هو الحاج عثمان حمصاني

(٢) محفوظات دير الشرفة : رسالة البطريرك اغناطيوس بطرس السابع بتاريخ ٢٩

تشرين الثاني سنة ١٨٥٠

انجيل قديم جداً مكتوب على رق الغزال يرتقي عهد نساخته الى القرن الرابع للميلاد كان في كنيسة السريان الكاثوليك بدمشق (١) .

٦ - حرق مخطوطات اديار زحلة ونهب بعضها عام ١٨٦٠

اثبتت مجلة المشرق (٢) ان الحوري نيقولاوس صانع خلف تأليف جمّة أحرقت سنة ١٨٦٠ بعين الدوق في زحلة . وأحرقت معها كتب عزيزة الوجود كان استعارها من دير الشير السيد باسيلوس شاهبات الحلبي يوم كان اسقفاً على زحلة . فذهبت هذه الكنوز الثمينة ضحية النار . وقد المع الاستاذ عيسى المعلوف الى اطلاق مكتبات زحلة بقوله : « كان في الدار الاسقفية الكاثوليكية وفي مار الياس (الطوق) الختاوي ومار الياس (الضيعة) المخلصي وفي دير الآباء اليسوعيين كتب مخطوطة نفيسة أحرقت ونُهبت في السنة ١٨٦٠ وبقاياها قليلة ليست بذات شأن (٣) . ويؤيد ذلك ما اثبتته العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق عما تلف في فتنه السنة ١٨٦٠ من مجاميع كتب الكنائس والاديار في دمشق وبعض لبنان ولا سيما في زحلة (٤) .

(١) رسالة المطران يعقوب حلياني بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٨٦٠ (مجلد ٤ من مجموعة «المقدّمين في رسائل الآباء الى البنين» المفقولة في خزائن مخطوطات دير الشرفة)

(٢) المشرق : مجلد ٦ سنة ١٩٠٣ صفحة ١١٠-١١١

(٣) تاريخ مدينة زحلة : لعيسى المعلوف : صفحة ٢٨٢

(٤) خبط الشام : مجلد ٦ صفحة ٢٠٤

الفصل السادس والثلاثون

جوائج مكتبات بلاد ما بين النهرين عام ١٨٩٥ و ١٩١٥

١ - جائحة مكتبة سعرت

افرج اساقفة الكلدان في سعرت ولا سينا السيد بطرس برططر (١٨٥٨-١٨٨٤) جهوداً طيبة في تعزيز مكتبتهم . وجعلوا مركزها في دير مار يعقوب الحبيس . وضموا اليها مخطوطات قديمة ثمينة جمعوها من اطراف كردستان والعراق وما بين النهرين .

لكن هذه المكتبة الغنية انابتها نائبان فادحتان اجتاحتها وقضتا على جميع كتبها مخطوطة ومطبوعة . فالناتبة الاولى وقعت في خريف السنة ١٨٩٥ عندما حمل الاكراد عليها وانلقوا معظمها واتخذوا من رفوقها احذية لارجلهم . واولقوا بعضها في موافد الطبخ ومزقوا البعض بالخناجر .

اما النائبة الثانية فقد حلت بها في اواسط آب سنة ١٩١٥ في عهد المطران ادسي شير ابرهينا (١) . فان الاكراد بعدما فتكوا به فتكاً ذريعاً كما ألمعنا اجهزوا على مكتبته وانلقوها باجمعها ولم يدروا منها شيئاً . وكانت تحوي ما عزر وندر من المخطوطات والمطبوعات . فكان انلافها مصيبة من اعظم المصائب بل نكبة جديدة على الكتب والمكتبات .

(١) طالع اخباره في مجلة المشرق : مجلد ١٨ سنة ١٩٢٠ صفحة ٨٤ و ٨٥

٢ - جوائح مكتبات طورعبدین و غیرها

ما اوردناه عن مكتبة سعرت ينطبق تماماً على كثير من مكتبات بلاد ما بين
النهرين ولا سيما مكتبات طورعبدین . وقد أتينا باختصار على ذكر ما انتابها من
المحن العديدة في سالف الزمان . ولما جاءت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)
أجهز الاكراذ على ما سلم من بقاياها وعلى ما أضيف اليها بتعاقب الايام من
الكنوز العلمية وأمست اثرأ بعد عين .

الفصل السابع والتراون

اشهر رزبا المكتبات في ايطاليا

١ - حرق اثني عشر الف مخطوط في كريمون

كان في مدينة كريمون بايطاليا مكتبة امتازت باحتوائها بين مخطوطاتها على اثني عشر الف مجلد باللغة العبرانية . فجمعت تلك المجلدات برمتها في احدى ساحات المدينة وأحرقت علناً سنة ١٥٦٩ بدعوى انها غريبة المذهب (١) .

٢ - احتراق مكتبات تورينو

من اكبر النكبات التي اصيب بها العلم عام ١٩٠٤ احتراق مكتبة تورينو الشهيرة . فان النيران التهمت منها ثلاثة آلاف وسبعائة مخطوط باللغات الشرقية وثلاثة آلاف مخطوط باللغتين اليونانية واللاتينية ومائة الف مجلد من الكتب المطبوعة . هذا ما عدا الوثائق الخطيرة الغالية الاثمان التي امست اثرأ بعد عين .

٣ - تدمير مكتبة دير كاسينو

يقع هذا الدير الكبير على قمة جبل كاسينو وهو من اشهر اديار ايطاليا ومن ارسخها في الآثار التاريخية . احتوى على مكتبة ضرب المثل في نفائسها الغربية ونوادير مخطوطاتها التي نقتها ايدي الرهبان مدة اجيال عديدة . وقد احتل الالمان هذا الدير حين الحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فجعلوا منه حصناً متيناً . وبعدها نهبوا ذخائره الثمينة وانلفوا مكاتبه النادرة المثل دروه تدميراً حتى لم يبق منه حجر على حجر . هكذا زال من الوجود معهد ادبي وكتابي عظيم له صفحة مجيدة في عالمي العلم والفن .

(١) مجلة الآثار : مجلد ١ سنة ١٩١٢ صفحة ٣٣١

الفصل الخامس والثلاثون

نرمز اولاده مكتبات ستي في محاربتهم جبرائيم

١ - تخريب الالمان مكتبة ستراسبورغ في فرنسا سنة ١٨٧٠

في حرب السنة ١٨٧٠ دمرت قنابل البروسيين مكتبة ستراسبورغ العامرة. وقد التهمت النيران فيها مخطوطات رسمية ثينة بينها اوراق محاكمة غوتنبورغ مخترع الطباعة وشركائه .

٢ - تهديم الالمان مكتبة كلية لوفان في بلجيكا سنة ١٩١٤

ابقي لنا تاريخ الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) اخبار غوائل هائلة تقشعرها الابدان عن تدمير بعض دور الكتب الشهيرة . وحسبنا الاشارة الى مكتبة لوفان الذائعة الصيت في بلجيكا وقد دمرتها قنابل الالمان في شهر آب سنة ١٩١٤ دون ان يكتوتوا لكرامة العلم . وكانت خزائنها تشتمل على مائتي الف مجلد مطبوع او مخطوط بينها جانب لا يستهان به من الكتب الشرقية فضلا عن الكتب العربية التي تدور ابحاثها حول الشرق والشرقيين ولا سيما العرب . فخر علماء الاستشراق باندثارها ثروة علمية لا تقدر بثمن . وما كادت تضع تلك الحرب العظمى اوزارها حتى بادر البلجكيون الى ترميم مكتبة لوفان واعادة مجدها السابق . فانفقوا لذلك مبالغ طائلة من المال وتواردت عليهم هدايا الكتب بعشرات الالوف من جميع الاصقاع شرقاً وغرباً . لكنه في ايار سنة ١٩٤٠ اغار الالمان مرة ثانية

على مملكة بلجيكا فاكنتسحوا مدنها العامرة وسهولها وجبالها . وضربت طائراتهم مكتبة لوفان الحديثة فدمرتها ايضاً والتبستها الزيران (١) .

٣ - اكتساح الالمان مكتبات شمال فرنسا سنة ١٩٤٠

تواترت على فرنسا في حرب الالمان عام ١٩٤٠ نكبات مريعة يعجز القلم واللسان عن وصفها . ومن افدح ما دونه التاريخ عن هجومهم في مدافعهم الضخمة وسياراتهم المخرقة وطائراتهم الجوية انهم اجتاحوا جميع مدن فرنسا الشمالية ودساكرها . فاكنتسحوا كل مدينة او قرية اجتازوا بها وبحقوا معالم العلم والدين . وانلفوا الاخضر واليابس . وكان من نتائج ذلك الهجوم الهائل ان بادت عشرات المكتبات وامست اثراً بعد عين . نذكر منها : مكتبات ليل وكمبري واميات وارنوا وارأس وروان ودنكرك وكاله وبوفه ومنديديه الخ الخ .

٤ - غارات الالمان على مكتبات انكلترا سنة ١٩٣٩ و ١٩٤٠

يتعذر على ابلغ الكتاب ان يصفوا الرزايا الفظيعة التي حلت بانكلترا ولاسيما بلندن عاصمتها عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ حين غارات الالمان الجوية عليها . فاذا صرفنا النظر عن المدن العامرة التي دكوها وقضوا عليها وعن آثار الحضارة التي محقوها وانلفوها لا نرى بدأ من الاماع الى ما نزلوه بمكتباتها العظيمة . فقد شتوا غارات شعواء على مكتبة المتحف البريطاني وعلى مكتبة جامعة لندن اللتين لا تقدر ثروتهما بشئ . وقس عليها مكتبات اخرى غنية بمخطوطات الاوائل ومطبوعات الاواخر كمكتبات برمنغام ومنشستر وبريستول وكوفنتري وغيرها . وعليه فلسنا نستطيع ان نبت في مقدار الخراب ومدى التدمير الا بعد الاطلاع على الاحصاءات الرسمية بهذا الشأن .

(١) جريدة « البشير » : سنة ٧٠ عدد ٦٠٩٩ في ٢٢ ايار ١٩٤٠

الفصل التاسع والثلاثون

فظائع السبعيين في مكاتب اسبانيا

١ - احراق عدة مكاتب وُسلب كتب وافرة من اديار الرهبان

ما كنا نفرغ من تبيض هذا الكتاب حتى اشتعلت نيران الحرب الاهلية (١٩٣١ - ١٩٣٩) في اسبانيا . فكان ذلك وبالاً على الحضارة والعلم في القرن العشرين . فان الحمر (البلاشفة الشيوعيين) ارتكبوا من الفظائع ما لا يقع تحت حصر . فاتفقوا المعاهد العلمية وقوضوا الصروح الاثرية كالمناجف والمكاتب وغيرها نذكر منها قصر « الحمراء » الشهير الذي بناه خلفاء العرب في بلاد الاندلس .

وبما هدمه الشيوعيون باسبانيا دير « فيش » الفخم واحرقوا مكتبته الشهيرة (١) . وسلبوا من خزائن دير « باسترانا » كامل المخطوطات الثمينة المتعلقة باعمال الرسالات في الصين وجزر الفيليبين . واحرقوا كذلك المكتبة النفيسة التي جمعها الرهبان الفرنسيون في ديرهم الرئاسي بمدينة مدريد (٢) وغيرها من خزائن الكتب الغنية بالذخائر العلمية وخرائد المخطوطات .

٢ - نهب جامعة كوميلاس وتشتت كتبها ومخطوطاتها

ما اكتفى الشيوعيون الاسبان بارتكاب الفظائع وتقويض المكتبات كما سلف القول بل راحوا ينهبون كل ما عثروا عليه من الكنوز العلمية . ومن جعلتها مكتبة

(١) جريدة « البشير » في بيروت : ١٥ كانون الاول ١٩٣٦ عدد ١١١٣ .

(٢) رسالة العمال في حلب : سنة ٧ عدد ٨٢ و ٨٣ .

« جامعة كومبلاس » وهي من المعاهد الشهيرة التي حوت احدث ما ابتكره العقل البشري من التحف الفنية والكنوز العلمية . وبعثوا ما كان في خزائنها من الكتب الفنية والمخطوطات النادرة المثل المحفوظة منذ اعوام طويلة (١) .

٣ - اعتداء الشيوعيين على دير مونترات

للرهبان البندكتيين دير قديم عظيم يقال له « مونترات » بضواحي مدينة برشلونة في مقاطعة قشتلانة . يسكنه نحو مائتي راهب جلهم من اعلام العلماء وكبار المؤلفين . بينهم لجنة تولت ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القشتلانية وعلى رأسها المستشرق الذائع الصيت الاب بونونتور اوباخ . وقد انجزت اللجنة حتى الآن عدة اجزاء من ترجمة العهدين القديم والجديد ونشرتها بالطبع مزينة بالرسوم . وفي هذا الدير مطبعة عامرة تنطوي على آنية ثمينة وكنوز وافرة . الا ان الشيوعيين لم يحترموا العلم والفضيلة بل اعتدوا على كل ما في الدير كما اعتدوا على مكتبته العامرة بالمخطوطات النفيسة . ولو لم يتدارك الرهبان ويخفوا ما تبسر من تلك الكنوز لتفاقت الحماز وامتت النكبة اجسم وافضع .

٤ - احصاء النوازل الكتابية في الحرب الاسبانية

ابتدأت الحرب الاهلية في اسبانيا عام ١٩٣١ وانتهت ١٩٣٩ بانتصار الجنرال فرانكو على الشيوعيين . فبلغ ما دمره هؤلاء ونهبوه واحرقوه خمسة عشر الفاً وخمسمائة من الاديار والمعابد والمدارس . وكان يحوي اكثرها خزائن خافية بالمطبوعات فضلاً عن المخطوطات المحفوظة فيها منذ مئات الاعوام .

(١) البشير : في ٧ تشرين الثاني ١٩٣٧ عدد ٥٣٦٠

الفصل الرابعون

امراض مكتبة مرينثال في انكلترا

وفي شهر نيسان ١٩٣٧ ثبت النار في دير شيداه الابهاء الفرنسييون في مرينثال بالقرب من مدينة ماينس في انكلترا فدمرت تدميراً . واحترق اكبر قسم من المكتبة التي حوت اثنى المخطوطات واندرها . وقد بني هذا الدير في القرن الرابع عشر للميلاد وهو مزار يحججه الجماهير منذ ذلك العهد (١) .

(١) جريدة «البيرق» في بيروت : عدد ٢١٢٦ في ٦ نيسان ١٩٣٧

الفصل الحادي والاربعون

الاجتهاد على الكتب بعد الحرب العظمى

١ - تواطؤ البلاشفة على احراق الكتب المتعلقة بالقيصرية

لما وضعت الحرب العظمى (١٩١٤-١٩١٨) اوزارها حدث انقلاب كبير في الشعوب والحكومات اودى الى انقلاب اكبر في الافكار والمبادئ . ومن تتبع مجرى الحوادث العالمية وجدها حافلة بالثورات والاضطرابات الناتجة عن المبادئ الجديدة التي نشرها حملة الاقلام في الصحافة او دونها في بطون الكتب .

ولاجل ذلك رأينا زعماء الاتجاهات السياسية وارباب الاوضاع الاجتماعية الحديثة يهربون الكتب التي تناهى مواضعها آراءهم وتعاليمهم . فبادروا الى مكافحتها بكل الوسائل حتى عفا اثرها بتوالي الايام من ادمغة شعوبهم التي امتزجت امتزاجاً وثيقاً باخلاقهم واهدافهم . هكذا تواطأ البلاشفة في روسيا على احراق جميع الكتب التي لها علاقة بالقيصرية من آل رومانوف . ثم عملوا النهب والهدم بالمكتبات الخاصة والعامة بما فيها من المخطوطات الثمينة والفنون الرائعة .

٢ - تجميع مصنقات اليهود من انحاء المانيا والنمسا وسحقها

في المحاشد العامة

وحذا حدو البلاشفة في روسيا النازيون في المانيا . فانهم سحقوا كتب علماء اليهود على بكرة ابينا وابدوا المؤلفات التي تندد بالمبادئ الاشتراكية الوطنية .

وعلى اثر ضم النمسا الى دولة المانيا عام ١٩٣٨ نُشِرت اعلانات رسمية وُلصقت على الجدران تدعو الاهالي الى احضار ما عندهم من مؤلفات مكتوبة باقلام يهودية لاجل اتلافها . وشهدت مدن النمسا محاشد غربية لاحراق الكتب اليهودية على اختلاف مواضعها . وقد جمعت من مكاتب العامة والخاصة . وهي تشتمل على تصانيف لا تحصى لمشاهير كتاهم مثل اميل لدويغ وارثر شنيترلو واستفان زويج وفيكييوم وغيرهم وغيرهم . ومن ابرز تلك المحاشد التي تقشعرها الابدان ما جرى بتاريخ ٣ ايار ١٩٣٨ في ميدان «رازيدنس بلاتز» في مدينة سلزبورغ (١) .

٣ - اعتداء النازيين على مكتبة كردينال فينا عام ١٩٣٨

في ٨ تشرين الاول سنة ١٩٣٨ قام شبان النازي انصار هتلر بتظاهرة عدائية ضد الكردينال انتسير رئيس اساقفة فينا فهاجموا القصر الكردينالي وقاموا فيه باعمال النهب والحريق والتخريب . واتفوا مكتبته الثمينة التي حوت انفس الآثار منذ قرون عديدة (٢) :

٤ - اجهاز الاتراك على الكتب التركية ذات الصبغة العربية

عندما خلع الكماليون آخر سلطان عثماني عن عرش اجداده وطرده من تركيا مع سائر العترة السلطانية اجهزوا على جميع الكتب التي تنزع الى سلاطين بني عثمان وتغني باجمادهم . وما اكتفوا بذلك بل ائلفوا جانباً عظيماً من التأليف التركية ذات الصبغة العربية .

(١) جريدة فن العرب في دمشق : سنة ٢٠ عدد ٤٧٠٦ بتاريخ ٣ ايار ١٩٣٨

(٢) جريدة «البشير» البيروتية : مجلد ٦٩ عدد ٥٦٢٦ في ١١ تشرين الاول ١٩٣٨

وجريدة «بيروت» : سنة ٣ عدد ٥٩٣ في ١١ تشرين الاول ١٩٣٨

الفصل الثاني والرابعون

نكبة مكتبة بطريركية الفنار في اسطنبول

بطريركية الفنار هي مركز للبطريرك المسكوفي الذي يُعتبر أعلى رئيس ديني لملة الروم الارثوذكس . ففي تلك البطريركية مكتبة عامرة قديمة العهد اشتملت على وثائق ثمينة وكتابات نفيسة ومحفوظات جزيلة الفائدة يرجع اليها الباحثون في الشؤون العلمية والقضايا التاريخية . وقد صبرت تلك المكتبة البطريركية على محن الدهر حتى دهمتها في ٢١ ايلول سنة ١٩٤١ نكبة جسيمة أثقلت جانباً من محتوياتها النفيسة .

ففي التاريخ المذكور شبَّ حريق هائل في حي الفنار في اسطنبول فالتهمت النيران ما يُرَبِّي على ثلاثمائة منزل وتركت نحو الف نفس بلا مأوى . وقد لحق بالدار البطريركية خسائر فادحة اذ اندلعت السنة اللهب الى مكتبتها والى ردهة السنودس المقدسة وبعض غرف الرهبان فأثقلت الصور الفنية الثمينة . واصاب بعض العطب كنيسة القديس جاورجيوس . ولم تسلم محفوظات كنيسة القديس اوسطانيوس وخزانتها من التلف . ولم ينجُ غبطة البطريرك المسكوفي نفسه من الحريق الا بعناية الهية . وقد أحدثت هذه النكبة تأثيراً بليغاً في جميع الاوساط ولا سيما لاجل الخسائر الفنية التي لا تُعوَّض (١) .

(١) مجلة « السرة » مجلد ٢٧ سنة ١٩٤١ صفحة ٣٧٩-٣٨٠ وجريدة « اسيا » في بيروت :

مجلد ١ عدد ٦٠ في ٢٣ ايلول ١٩٤١

الباب السابع عشر

النوازل الادبية بالمكتبات والكتب

الفصل الاول

اعداء الكتب والمكتبات

اثبتنا في فصول سابقة بعض رزايا مادية انتابت الكتب ونكبت بها المكتبات . ولا نرى الان مندوحة عن تدوين بعض رزايا ادبية لا تقل عن تلك فظاعة بل تفوقها ضرراً وفداحة . لان الاولى اذا كانت تبيد الكتب وتفتك بالمكتبات فان الثانية لا تقتصر على ذلك فقط بل تقيد الحرية الفكرية وتبليبل المشتغلين في المعاهد الكتابية تلبلاً يفقد المصانيف والانتظام . وناهيك ما يتروى على ذلك التقيد الفكري وعلى تلك البلبلة المعنوية من دواعي تقهر الادب وخنق الثقافة والاساءة الى معاهد العلم .

ليس الذين دمروا المكتبات واحرقوا الكتب في القرون الغابرة هم وحدهم اعداءها كما يتبادر الى الظن . كلاً ثم كلاً . فان اولئك ما ارتكبوا تلك الجنايات الهائلة الا عن توحش بربري او جهل مطبق او تعصب ديني او عداوة سياسية . اما مرتكبو الجرائم الادبية في حق الكتب والمكتبات فلا يقلون عنهم فظاظة وسخافة . لانهم على رغم تظاهرهم بالغيرة على مصالح المكتبات والحرص على كتوزها نراهم يتدربون بنفوذهم او تسوقهم جهالتهم الى القضاء على كل مشروع ادبي وعلى كل معهد كتابي . فيحققون فيهم قول ابي العلاء المعري عن بعض امراء زمانه :
يسوسون الامور بغير عقل وينفذ امرهم ويقال ساسه

ولا شك ان مرتكبي تلك الجرائم الادبية يجدون بافعالهم الطائشة ذكرى جنكزخان الطاغية وابنه تولي وحفيده هولاءكو وطغرل السلجوقي وغازان التتري وتيمورلنك العاتي وغيرهم ممن طغوا وبغوا . فكانوا آفة الآفات على الكتب والمكتبات . وقد ألمعنا في بعض الفصول اليهم والى ما اقترفوه من الاعمال المهجبة التي يندى لها وجه الانسانية خجلاً . فكان اعداء العلم هؤلاء ومن جاراهم حاولوا ان يخذلوا لدمامتهم المقونة صفحة سوداء لطخت تاريخ حياتهم بوصمة العار والشنار على كرور الاعصار .

سبق لنا ان روينا اخبار الخلفاء والعظماء والعلماء والكرماء ممن شيدوا « دور العلم » وأسسوا « بيوت الحكمة » فسطرنا لهم آيات الشكران . اما الان فقد اضطررنا الانصاف ان نقبح افعال جميع الذين يحتلقون المشاكل او ينفثون المفساد لتتكيس رايات الادب ومناصبه الساعين لتعزيز خزائن الكتب . كيف لا وقد نصبوا لها المكاييد وسدوا في وجوها الطريق المؤدية الى تعميم المعارف بين طبقات الامة . وهذا نوع من القتل ارتكبهوه او بالحري تعدوه لتقويض اركان مكتبات جليلة محترمة لها تاريخها المجيد وشأنها الرفيع في البنيان الثقافي الذي تستند اليه الشعوب العربية . وقد صدق فيهم قول الشاعر :

قتل امرء في غابة جناية فيها نظرت
وقتل شعب آمن جريمة لا تعتقر

الفصل الثاني

لصوص الكتب والمكتبات

١ - خيانة بمض قوام المكتبات

على رغم اعتناء الملوك وائمة الادب بالمكتبات وشديد حرصهم على ذخايرها فانها لم تخلو في كل آت من افراد طماعين او وكلاء خونة قصبوا على انتهاب خرائدها واختلاس اغلب نفائسها بلا تورع ولا حياء . وهو داء وبيبل بليت به خزائن كتب الشرق والغرب معاً دون استثناء . ولولا ذلك لبقيت تلك المكتبات سالمة وازدادت الرغبة في الاختلاف اليها والاستفادة من محتوياتها .

٢ - سرقة مكتبات تونس

حدثنا صاحب « المشرع الملكي » عن بعض معاصريه في تونس انه بعدما أصيب بما أصيب به ابناؤ ذلك العصر من هدر الدماء واستباحة الاموال دخل الى مكتبته احد خدامه فاستحوذ عليها . وحمل هذا الخادم الى داره ما سرقه من كتب سيده وباعها من البقالين فاستعملها هؤلاء بدورهم في لف بضائعهم . ولسنا نغض عن ذكر خزائن عامة في تونس لعبت بها الايدي الاثيمة وقد كانت حافلة بمخطوطات ثمينة لا يحصى لها عدد . نخص منها بالذكر خزانة جامع الزيتونة بالعاصمة وخزانة الجامع الاعظم في القيروان . وقس عليها سائر المكتبات التي لم يكن يخلو منها جامع او مدرسة كجامع حمودة باشا وجامع صاحب الطابع . فقد اختلس اللصوص

من هذه المكتبات ما استأثرت ببعضه مكتبات خاصة وتلقت بعضه الآخر خزائن
أوروبا على يد فريق من الخونة كسليمان الحرثي (١٨٢٤ - ١٨٧٤) وغيره (١).

٣ - سرقة كتب أبي الغنائم الشيباني الضرير

وكان لأبي الغنائم الشيباني الضرير (٥٦٥ هـ) في بغداد خزانة حافلة بالمخطوطات
اللغوية والأدبية . لانه برع في النحو وبلغ فيه الغاية وسمع كثيراً من كتب الأدب
ودواوين العرب . ولم يكن يهتدي إلى الطريق بغير قائد كما يهتدي العميان حتى
سُرقت كتبه . وقد سرقها جار كان يأتيه في كل ليلة وهو قريب من منزله (٢) .

٤ - استباحة الحشأب النحوي كتب الناس

يروي عن أبي محمد عبدالله الحشأب النحوي انه كان اعلم اهل زمانه بالنحو حتى
يقال انه كان في درجة الفارسي . وكانت له معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق
والفلسفة والحساب والهندسة . وما مر علم من العلوم الا وكانت له فيه يد حسنة .
وختلف مؤلفات كثيرة ووقف كتبه على اهل العلم ومات سنة ٥٦٧ للهجرة .
وكان الحشأب اذا حضر سوق الكتب واراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه
ورقة وقال انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس . واذا استعار من احد كتاباً وطالبه
به قال : دخل بين الكتب فلا اقدر عليه (٣) . ومن شعره ملفزاً في كتاب :

وذي اوجهٍ لكنه غير بائعٍ بسرٍ وذو الوجهين للسرِّ مظهرٍ
تناجيك بالاسرار اسرارٍ وجهه فتفهمها ما دمت بالعين تنظرُ

(١) المجلة الزيتونية : مجلد ١ سنة ١٩٣٦ صفحة ٢٠٥-٢٠٦

(٢) بنية الوعاة : صفحة ٢١٤-٢١٥

(٣) بنية الوعاة : صفحة ٢٧٧

٥ - اختلاس كتب الدينوري

قال محمد بن يحيى : « كان الدينوري (٢٦٧ - ٣٤٩ هـ) بمصر يتلاعب به الصبيان ويتضفرون عليه ويسرقون كتبه » . وحلت وفاة الدينوري في قرطبة بالاندلس سنة ٣٤٩ للهجرة بالغاً الثانية والثمانين من سنه (١) .

٦ - احمد بن سيد الاشبيلي الملقب باللص

ما عدا لصوص الكتب كنا نودّ لو اوردنا اسماء لصوص الشعر والادب والفنون والاختراعات العلمية . غير ان ضيق المقام يحول دون ذلك لاسباب لا تدرى . وقرأ من الكتاب طرقاً هذا الموضوع قديماً وحديثاً ووضعا فيه التصانيف الجمّة . غير اننا نكتفي بذكر شاعر من كبار شعراء الاندلس اشتهر بسرقاته وهو احمد بن سيد الاشبيلي المكنى بابي العباس . وقد لقبوه باللص لاغارته على اشعار الناس (٢) . ومن بديع نظمه قوله :

سلبت قلبي بلحظ ابا الحسين خلوب
فلم اسم بلص وانت لص القلوب

ولهذا اللص مواقف مشهورة في انشاد الشعر . نذكر منها موقفه ازاء الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما بايعه اهل الاندلس بالخلافة على ظهر « جبل الفتح » المعروف في عهدنا بجبل طارق قال :

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر الى الجبل الراسي على جبل
اني استقر به اني استقل به اني راى شخصه العالي فلم يزل (٣)

(١) ابن عساكر : جزء ١ صفحة ٣٧

(٢) نفع الطيب : جزء ٢ صفحة ٤٤٥-٤٤٧

(٣) النبوغ المغربي في الادب العربي لعبد الله كنون الحسي : جزء ١ صفحة ٤٣

٧ - ابو عبدالله السميدي المعروف بلقب «مزبلة العلم»

ولا نريد ان نختم هذا الفصل دون ان نلم بذكر لص آخر اسمه محمد بن بركات ابو عبدالله السميدي النحوي اللغوي (٤٢٠-٥٢٠ هـ) الذي استتم مائة من العمر. واشتهر بلقب «مزبلة العلم» لدنس ثيابه وغبابة خلقه وخلقه وللتقير في حديثه وتخطئته لكل متكلم. وقد ادرك الشدة العظمى التي حلت بمصر عام ٤٦٠ للهجرة وما بعده وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة. وكان يحضر مائدة متولي الشرطة بمصر ويعلم اولاده ثم يأخذ اجرتهم وغبقتهم فيدفع احدهما لشيخه ابن بابشاد. وكان منقطعاً في سطح جامع عمرو ابن العاص للعبادة. وبييع الرغيف الاخر في سوق زقاق القناديل باربعة عشر درهماً ويأخذ الدراهم ويطلع الى القاهرة يدفعها للفرشين الموكلين بالابوان بخزانة الكتب بالقصر. فيأخذ بكل درهم كتاباً. فيتخير الكتب المنسوبة وخطوط العلماء. وكل مستحسن ويأتي بعد ذلك الى سقف بيت قد اغلق بابه ونقب السقف فيرمي تلك الكتب منه. كذا كل يوم. فلم تمض الشدة الا وذلك البيت ملان كتباً من كل فن. فكانت سبب غناه عن الناس الى ان مات (١).

٨ - انتحال السيوطي لنفسه بعض تصانيف غيره

كان جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١ هـ) من اكبر علماء زمانه. وانصرف منذ حداثة الى الجمع والتأليف فعُدّت مصتفاً بالعشرات. وروى تلميذه الشمس الداوودي مؤلف «طبقات المفسرين الكبري» قال: «عابنت الشيخ جلال الدين وقد كتب في اليوم الواحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً. وكان مع ذلك يبلي الحديث ويحيب على المتعارض منه باجوبة حسنة». وعلى رغم منزلة السيوطي

(١) المشرق: مجلد ٣٥ سنة ١٩٣٧ صفحة ١٨٣-١٨٤

العلمية الرفيعة لم يسلم من ذم الناس وانتقاد المؤرخين . لانه « استبد بالآخذ من بطون الدفاتر والكتب . فأخذ من كتب الحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف القديمة التي لا عهد لكثير من العصرين بها في الفنون . فغيرت فيها وقدم وأخر ونسبها الى نفسه (١) »

٩ - سرقة مكتبتي القرصانية والاحمدية بحلب

يضيق بنا المجال لو شئنا تعداد اسماء الخزائن العربية التي انتابتها امثال هذه النكبات في العصور الغابرة والحاضرة . فان ايدي اللصوص امتدت اليها واخترت ما عثرت عليه فيها من نواذر المخطوطات واستباحتها غنيمة باردة . ثم باعها من مكتبات اوروبا واميركا ومصر وغيرها بأثمان باهظة .

وبين تلك الخزائن ما سرق دفعة واحدة كما جرى لمكتبة « القرصانية » التي كانت من اغنى مكتبات حلب واقدمها . وقد اثرى سراقها واصبحوا اصحاب عقارات ذات أجور وافرة (٢) . وكان زعيم اولئك السراق على ما نقله الحلبيون ماهر الحيل . فانه وضع يده على انفس مخطوطات المكتبة القرصانية . ولما اكتشف امره عمد الى اخفائها في احد حمامات حلب . وبعد رده من الزمان بعث الى مصر بما اختلسه وباعه بأبخس الاثمان .

ومن المخطوطات النادرة التي اختلسها امثال اولئك السراق من « المكتبة الاحمدية » بحلب نذكر : كتاب « النبات » المزين بالصور النفيسة تأليف ابي حنيفة الدينوري . وقد بيع هذا المخطوط البديع من المتحف البريطاني في لندن بمائتي جنيه انكليزي .

(١) ذيل تذكرة الحفاظ : لشمس الدين الحسيني : صفحة ٦

(٢) جريدة « الاهالي » في حلب : للشعباني : ١٢ حزيران ١٩٣٨ عدد ٩٧٤

١٠ - سرقة مكتبات بلاد الشام

قس على ما سبق سرقات جمة ذكرنا نتفأ منها في بعض فصول هذا الكتاب . ونجترى ههنا باثبات ما اورده الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق عن مكتبات بلاد الشام قال : « وكان القوم ولاسيما بعض من اتسوا بشعار الدين ومن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع ببلغ بهم الجهل والزهدي في الفضائل ان يفضلوا درهماً على انفس كتاب . فخانوا الامانة واستحلوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كانه ملكهم » (١) .

وكانت المكتبة العمرية في دمشق قبل سنوات بيد آل السقطي من الحنابلة الشاميين . وقد سطوا على كثير من كتبها ثم نقل ما بقي منها الى المكتبة الظاهرية . وكان ابنا الناظر على وقف المكتبة المشار اليها قد سرقوا جانباً من المخطوطات . ولا يزال عندهم جزء من الكتاب الواحد وجزؤه الآخر في المكتبة الظاهرية (٢) .

(١) حطط الشام : جزء ٦ صفحة ١٩٨
(٢) المدرسة العمرية : بقلم محمد اسعد طلس (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد تموز سنة ١٩٤٠
صفحة ٣٦-٣٧

الفصل الثالث

العبث في الكتب المخطوطة ومحرّفها

١ - تصدي بعض الكتاب لتحريف الكتب

من أفعج المصائب التي رزئت بها المكتبات إقدام بعض الجهة أو المدعين بالعلم على العبث في المخطوطات القديمة والعبث بنصوصها . وفي جملة ما اقترفوه من الجنايات الادبية المنكرة انهم حرّفوا تلك الكتب أو صحّفوها وزوّروها . وبينهم من ساقه التعصّب فعك شديداً من كتاباتها اخفاءً للحقيقة أو اثباتاً لقضية ملفقة . ولم يجبل بعض الكتاب ان يخرجوا عن حدود الحق بمحاولة الغش واستعمال التويه واختراع حوادث لا اصل ولا فصل لها . تأييداً لمزاعمهم . بل لم يتورّع فريق غيرهم عن اتلاف المخطوطات الخطيرة أو التلاعب بها أو تمزيق بعض اوراقها . بل حملت قلة الامانة فريقاً من المدّعين بالعلم على سرقة مؤلفات غيرهم وانتحالها زوراً وكذباً لانفسهم أو لمن شاؤا من انصارهم . فنتج عن ذلك كله إفساد الكتب وبلبلة التواريخ وتشوبه الحقائق وتضليل الباحثين عن محجة الهدى والصواب (١) .

٢ - تحريف ابن حبيب كتب المؤلفين وابداله اسماءهم باسمه

وتمن ثبت تحريفهم للكتب محمد بن حبيب ابى جعفر الذي اشتهر بين علماء بغداد

(١) الاستقصاء لآخبار دول المغرب الاقصى : تأليف احمد بن خالد الناصري السلاوي :

جزء ١ صفحة ١٥٠

باللغة والشعر. وكان ثقة في الاخبار والانساب. وخلف تصانيف وافرة ذكرها السيوطي وياقوت الحموي وغيرهما من رواة التراجم. ومات بن حبيب في سامرا سنة ٢٤٥ للهجرة. غير ان عمله الواسع لم يمنع من الاقدام على تحريف الكتب بشتى الاساليب والحيل. قال المرزباني «كان ابن حبيب يُغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط اسماءهم منها (١)».

٣ - تصحيف عناوين بعض مؤلفات حبيش وضبطها غلطاً

باسم خاله حنين

في منتصف القرن الثالث للهجرة اشهر حَبِيش الاعسم ابن اخت الربان حنين بن اسحق (+ ٨٧٦ م) بنقوله الكثيرة من اللسانين اليوناني والسرياني الى اللسان العربي. غير ان الغرّ من قراء كتب حَبِيش ظنوها لحنين فصحّفوها ونسبوا اليه جهلاً او عمداً (٢).

ولما كانت الحروف العربية في عصر حنين وحَبِيش تكتب مهمة دون نقاط كان تصحيف الاسمين سهلاً. لاننا اذا جرّدنا النقاط عن لفظي «حن» و «حسن» لمخنا بينها تشابهاً محسوساً مالموساً يدعو الى الالتباس.

٤ - انتقال الحسن البناء اكتب سميّه الحسن النيسابوري

وحدّث ابو العز بن كادش عن الحسن بن احمد بن عبدالله البناء (٣٩٦-٤٧١ هـ) انه اخذ كتب سميّه الحسن ابن احمد بن عبدالله النيسابوري وانتحلها لنفسه. فكان البناء يكشط حروف «بوري» من آخر لفظة «النيسابوري» ثم يمحو السين ويتصرف

(١) بغية الوعاة: صفحة ٢٩-٣٠

(٢) تاريخ مختصر الدول: صفحة ٢٥٢-٢٥٣

في بقية حروف اللفظة حتى تصبح «البناء» بدلاً من «النيساء» . وهذا نوع آخر من تحريف الكتب . وكان ذلك من السهل لان العرب لم يتعودوا تنقيط الحروف في اول عهد كتابتهم كما قلنا .

وقد جمع احدهم ضروب العيث بالمخطوطات فاشار الى افسادها وتصحيحها وتحريفها وتغييرها قال :

فكم أفسد الراوي كلاماً بنقله وكم صحف الاقوال قومٌ وحرّفوا
وكم ناسخٍ اضحى لمعنى مغيراً وجاء بشيء لم يُردّه المصنّفُ

٥ - امانة المؤلفين الثقات وحرمتهم للكتب ومصنفها

وبعكس من سبق ذكرهم فقد اثبت التاريخ اخبار فئة من القوم يُشكرون لصدقهم في كتاباتهم واحاديثهم ويُحمدون على اجلالهم للكتب . روى ابو سعد السكري عن لسان بعض من يوثق بكلامهم ان اسمعيل الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩ للهجرة قال : « ما رويت خبراً ولا خلفت في مجلس ائراً الا وعندي اسناده . وما دخلت بيت الكتب قط الا على طهارة (١) » .

ولو توخينا تدوين كل ما عرفناه واطلعنا عليه في هذا الصدد لتوفرت لدينا المواد وتجاوزنا خطة الایجاز التي سلكناها في مؤلفنا . فاكتفينا بالالمام الى ذلك حذراً من ملل القراء .

(١) تاريخ ابن عساكر : جزء ٣ صفحة ٣١

الفصل الرابع

نصرف بعض الرهبان في مكتبات الدير

١ - عيث الرهبان في مكتبة دير السيدة بوادي النظرون

يرتقي عهد بنیان دير السيدة الى القرن السادس للهيلاد . أسسه الرهبان السريان في وادي النظرون بمصر قبل السنة ٦٠٠ ميلادية . يؤيد ذلك مخطوط نسخ في هذا الدير عينه عام ٦٠٣ م (١) . ومنذ ذلك العهد كان فريق من رهبانه يكتبون وقت الفراغ على نساخة الكتب وبضمونها الى مكتبة الدير حتى صار فيها عدد غير يسير من ذخائر المخطوطات .

وفي السنة ٩٢٧ م اضطر موسى النصيبيني رئيس دير السيدة ان يرحل الى بلاد المشرق ليجمع حسنات المؤمنين ويعود فيستفك ديره من الرهائن . وتوفق حين رحلته فاحرز كمية وافرة من المخطوطات القديمة اغنى بها مكتبة الدير .

و يستخلص من حواشٍ علقها النساخ على تلك التحف الكتابية ان موسى المشار اليه التقطها من انحاء العراق وما بين النهرين وسوريا وفلسطين . واليك اسماء بعض المدن والقرى التي منها جمعت تلك المخطوطات وهي : تكريت وقرقوش وراس العين وقرقيسيا والرها ومعدن وتل موزل وتل بسم ودينسر والابراهيمية وطورعبدین والرفة ومرعش وحمص والبقاع وحارستا وتدمر وانطاكية ومن القدس ونابلس وعكا الخ الخ (٢) .

(١) راجع فهرس مخطوطات لندن : رقم ٦٧٢

(٢) السريان في القبط المصري : للخوري اسحق ارملة : صفحة ٧١

ومنذ اوائل القرن التاسع عشر تغلبت الاقباط على هذا الدير الكبير وطردهوا منه رهبانه الاصليين وتصرفوا في اطيانه وامنته ولاسيما في مكتبته الثمينه التي تجمعت فيه منذ قرون عديدة . وجعلوا يبيعون مخطوطاتها ببيع السلع فامتلات منها مكنتات في الغرب والشرق . يتضح ذلك جلياً من فهرس مخطوطات لندن ورومة وباريس وبرلين واكسفرد وكمبردج وميلان وغيرها . ولم تخل من مخطوطات دير السيدة مكنتات دير مار مرقس باورشليم ودير الشرفة ببلنات ومكتبة الكلدان بماردين ومكتبة ملطية بارمينيا الصغرى الخ . هكذا اضمحلت وبادت مكتبة دير السيدة بوادي النطرون بعد عزّ دام لها عدة قرون (١) .

٢ - اعتداد كنوز مكتبة صيدنايا كاسقاط المتاع

بين المكنتات الشهيرة التي تفقدتها العلامة يوسف شمعون السمعاني ايام جولته في بلاد المشرق عام ١٧١٥ مكتبة دير الشاغورة في صيدنايا بجوار دمشق . وهي المكتبة الثمينه التي اسهبنا الكلام عنها في فصول سابقة .

على ان السمعاني المشار اليه لدى وصوله الى ذلك الدير سأل رئيسه ان يرخص له في زيارة المكتبة وبدلته عما يُستطاع اقتناؤه من مخطوطاتها . فأوما الرئيس الى اكديس من الكتب والكراريس المخطوطة وهي مبعثرة على الحضيض ومختلطة بعضها ببعض اختلاط الحابل بالنابل . ولما كانت ذلك الرئيس يجهل قيمتها العلمية سمح للسمعاني ان يأخذها . اولاً : ليتخلص من فذارة تلك المخطوطات العتيقة ورثاتها . ثانياً : لاعتقاده الراسخ انها من سقط المتاع ولا خير في حفظها .

فطفق ذلك البهانة الحبير يقلب المخطوطات المذكورة ويتصفحها واحدة فواحدة . فاذا في اكثرها نفائس يجب ان يحرص عليها وان تدنخر في الخزان . ثم تسلمها وهو لا يكاد يصدق ان الرئيس تخلى له عنها .

(١) السريان في القطر المعري : للخورى اسحق ارمة : صفحة ٤٧-٤٨

تلك المخطوطات الصيغانية نُقلت فوراً الى المكتبة الوائكانية وُنظفت
وُجلدت ونظمت فيها احسن تنظيم . واصبحت منذ ذلك العهد مرجعاً للعلماء
والمؤرخين يستفيدون من مطالعتها ويلجأون اليها في ابحاثهم . وناهيك انه لو لم
تنقل الى المكتبة الوائكانية لانتابها ما انتاب سائر مخطوطات دير الشاغورة من
الحريق والتلف (١) .

٣ - نبذ مخطوطات ثمينة في دير سينا وطرحها في الزناويل

تحدثنا باسهاب عن مكتبة دير طور سينا في الفصل السادس من الباب الخامس .
وذكرنا حرص رهبانه على ما احتوته تلك المكتبة من الذخائر العلمية منذ اقدم
الازمنة . لكنهم لم يسلموا من سهام نقد لاذع رشقهم به اهل العلم والتاريخ .
واليك التفصيل :

في اواسط القرن التاسع عشر يتم دير سينا سائح انكليزي . وشاهد في زواياه
عدة زناويل مملوءة بمخطوطات عتيقة واوراقاً مبعثرة غلب على اذهان الرهبان انها
خالية من كل فائدة . فافرزوها من سائر المخطوطات والقوها في تلك الزناويل
ليستعملوها في شؤونهم الخاصة . وما كاد يطلع السائح على بعض تلك الصحف حتى
دهش لحظورة مضامينها . فكتب امرها ونظاها بقلة الاكثارات لها .

وما عم ان سأل وكيل الدير زائرهما عما اذا كانت يتوخى مشتراها ووعده
بالتساهل في قضية السعر . وبعد التردد والتمنع رضي السائح ان يشتري تلك
المخطوطات . وتم الاتفاق على سعر كان غالباً في نظر البائع ورخيصاً في
نظر المشتري .

وبعد رجوع السائح الانكليزي الى وطنه درت ادارة المتحف البريطاني بأمر
المخطوطات التي استحضرها من دير سينا . فدرستها درساً دقيقاً ثم ابتاعها كلها بما

(١) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها : منحة ١١٧-١١٨

يساوي قيمتها الحقيقية لا كما اشتراها السائح . ومن تلك المخطوطات ما اقتنته ادارة المتحف المذكور بما يعادل ثقله ذهباً .

ولم يمض ربع قرن على هذا الحادث حتى تنبه المستشرق تيشندورف Tishendorf الالمانى لما جرى للسائح الانكليزي المشار اليه . فارتحل الى دير سينا وتعهّد مكتبته ووقف على مكنوناتها القديمة . ووقع نظره حين ذلك على زنبيل ملقى في زاوية المكتبة حشدت فيه اوراق مبعثرة دار حابلها على نابها . فلما قلبها وجد بينها كتابات ثمينة تحوي بحوثاً خطيرة تهم العلماء وهواة الآثار . فما كان منه الا ان ساوم رئيس الدير في مشتراها وابتاعها بسعر غال ونقلها الى بلاده . هكذا انقذ تلك الآثار الثمينة من التلّف وجعلها في حوز منيع فأدى بعمله خدمة جلى للعلم والعلماء .

٤ - تقاضي رهبان دير لوزة عن صيانة مكتبتهم

كانت مكتبة دير لوزة ببلنات تشتمل على طائفة من المخطوطات النفيسة في جملتها نسخة من «الديباطرون» باللغة العربية . والديباطرون عنون لمجموعة الانجيل الاربعة التي سبها طبانسان (+ ١٨٠ م) تلميذ بوستينس الفيلسوف (+ ١٦٥ م) سبكا محكما في القرن الثاني للميلاد . اذ أفرغ روايات الانجيليين الاربعة في قالب واحد متناسق . ولم يدع آية من آياتهم الا سطرها تباعاً في تلك المجموعة .

وشاع هذا الكتاب وذاع في بلاد المشرق واستعملته الكنائس النصرانية حتى اوائل القرن الخامس للميلاد . فنهض ربولا اسقف الرها (+ ٤٣٥) وجمع نسخه وأحرقها . وسلك مسلكه في ذلك ثودوريط اسقف قورش (+ ٤٥٧ م) معاصره على ما ذكرنا في غير هذا المحل .

ويقال ان ابا الفرج عبدالله بن الطيب القس النسطوري (+ ١٠٤٣ م) (١) نقل الديباطسرون الى اللغة العربية في القرن الحادي عشر للميلاد . ونشر هذه الترجمة المستشرق شياسكا في رومة عام ١٨٨٨ ثم نشرها ثانية العلامة مرمرجي في المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩٣٥ (٢) .

وقد صانت بعض مكينات الشرق نسخاً من هذا السفر الخطير نذكر منها مكتبة دير لوزية بجبل لبنان . لكن الاهمال تطرق الى هذه المكتبة فاتفق نفائسها وأتلف معها ذلك المخطوط الثمين . ولم يسلم منه بمرور الايام الا ورقتان فقط يرتقي عهد نساختها الى السنة ٧٣٢ للهجرة (١٣٣١ م) فعثر عليها الاب لويس شيخو عام ١٨٨٨ والتفهما من فوره مبتهجا بهما ابتهاجه باكتشاف كنز ثمين . واذخرهما باجلال في المكتبة الشرقية وضمهما الى انفس ذخاثرها . ثم نشر عنها مقالة مزينة بالرسوم مصرحاً بمخطورة كتاب الديباطسرون وترجمته العربية (٣) .

٥ - اختلاس مخطوطات دير الزعفران وبيعها بأبخس الاثمان

اتخذ بطاركة السريان دير الزعفران مركزاً رسمياً لهم منذ القرن الثاني عشر كما ذكرنا في غير هذا المحل . وقد جعلوا يتنافسون في تعزيز مكتبته بكتب قديمة العهد استحضروها من اطراف البلاد التي دوّنها التتر او احتلها تيمورلنك . و اضافوا اليها مخطوطات ثمينة عكف الرهبان على نساختها وقت فراغهم من الدرس وفروض العبادة . هكذا توفرت ثروة تلك المكتبة فلهجت اللسن بنفائسها و ذخاثرها وضربت الامثال بقدمها وندورتها .

(١) تاريخ مختصر الدول : صفحة ٣٣٠

(٢) A. S. Marmardji : Diatessaron de Tatien l'an 1935

(٣) الشرق : مجلد ٤ سنة ١٩٠١ صفحة ٩٧-١٠٩

غير ان أمناء تلك المكتبة العظيمة نشموا منذ القرن الثامن عشر يعيثون
فيها ويبعثون مخطوطاتها . يسوقهم الى ارتكاب تلك الجريمة جهلهم مضامينها او
اطماعهم في الربح الحسيس . وقد روى لنا الكثيرون ممن لا يشك في صدق
روايتهم ان رؤساء الدير ووكلاء المكتبة سطوا على انفس مخطوطاتها المنسوخة على
الرقوق وباعوها بالجس الاثبات من الاكليروس الكاثوليكي او من المرسلين
الاميركيين وغيرهم . ولولا ذلك الاعتداء وتلك الاطباع لظلت مكتبة دير
الزعفران من اغنى مكتبات العالم بلا جدال .

الفصل الخامس

النفيع لما فقدناه من الذخائر الكتابية

اننا نقف عند هذا الحد في بحثنا عن خزائن المخطوطات العربية التي دارت عليها الدوائر قديماً وحديثاً . ولو كان ذلك من المصائب المألوفة التي تفتك بالكتب كالعث او الغبار او الرطوبة او النور او قلة النظافة او طول الاستعمال هانت الامر واعتبرناه حادثاً طبيعياً . لكن الحقيقة هي ان تلك المخطوطات ، لتعس اللغة العربية ذهبت ضحية الجهل او الفتن السياسية او الحروب الاهلية او المنازعات الدينية او المحاصمات الحزبية او الجوائح الطبيعية او سوء الاثنان والسرقا وغير ذلك . وهو نزر مما اصابها من الكوارث التي ظلت اخبارها مطموسة وسدل عليها الدهر ستاراً ابدياً .

وباليت المورخين القدماء دونوا لنا اخبار خزائن الكتب البائدة وكشفوا النقب عن مصيرها وعن كل ما يتعلق بها . لان هذا الاغفال جعل في تاريخ العرب ثلمة كبيرة لا تسد . ويؤلمنا بل يؤلم كل ابي عربي ضياع تلك الثروة العظيمة التي حسدتنا عليها سائر الشعوب وهيئات ان تعوض في مستقبل الزمان ! وناهيك انه بتقلص ظل تلك المكاتب تقلص ظل العلم في انحاء كثيرة من الامصار شرقاً وغرباً . وقد كان ذلك ذريعة لتفشي الجهل في الناطقين بالضاد اكثر من غيرهم .

واذا شئنا ان نستعرض رزايا المكتبات في عواصم الدول العربية وكبريات مدها تولتنا الكتابة وُصعقنا من هول الفادحة . ولسنا نبالغ في القول انه ما من امة على وجه البسيطة نكبت بذخايرها الكتابية مثل الامة العربية . وحسبنا التاريخ

شاهداً مقنعاً على ما اثبتته عن بيت الحكمة ببغداد وعن خزائن الفاطميين بالقاهرة .
وعن دار العلم بطرابلس الشام . ومكتبة الجامع الاموي بدمشق . ومكتبة
سيف الدولة بحلب . ومكتبة الجامع الاعظم بالقيروان وتونس . وكتب المالكيين
بفاس . ومكتبة الحكمة بمراكش . ومكتبات الهند وبلاد فارس واليمن النخ .
وما سردناه عن مكتبات تلك الحواضر يصدق بحذافيه في مكتبات الرها
ونصيبين ودارا وطور عيدين وسعرت وملطية والموصل وتكريت . وقس على ذلك
كله مكتبات اديار الشام وانطاكية وفلسطين ووادي النطرون بمصر وادبار
العراق وسائر الامصار الشرقية . فقد اندثرت على بكرة ايها واصبحت بعد
ذلك المجد اللامع لثراً بعد عين .

وكانت كل مكتبة من تلك المكتبات العامرة نحو عشرين الالف من
المخطوطات على تعدد المواضيع والابحاث . واذا صحت رواية المؤرخين فان عدد
المخطوطات في بعض الخزائن ناهز مئات الالف بل تجاوزها والله اعلم ! وكيفما كان
الامر فان المكتبات العربية بلغت في عصرها الذهبي شاناً رفيعاً لم تبلغه مكتبات
بقية الامم شرقاً وغرباً

خاتمة المجلد الثالث

تم الفراغ بحوله تعالى من طبع المجلد الثالث من كتاب «خزائن الكتب العربية
في الحافقين» في ٢٠ من كانون الاول سنة ١٩٤٨ . فجاء سفيراً قيسماً حوى شوارد
الاخبار عن المكتبات العربية قديماً وحديثاً .

اما النبذة التاريخية العائدة لنشأة دار الكتب اللبنانية التي نوهنا بها في المجلد
الثاني من هذا الكتاب فقد اعتنت ادارة المكتبة بوضعها ونشرها على حدة تمة
لهذا البحث الجليل وخاتمة لهذا المؤلف الثمين والله الموفق لما فيه خدمة العلم والتاريخ .

فهرس

خزائن الكتب العربية في الخافقين

المجلد الثالث

صفحة

الباب الرابع عشر المخطوطات العربية والعالمون فيها ٨١٩

الفصل الاول مزايا المخطوطات العربية ونفائسها

١ - براعة العرب في اتقان مخطوطاتهم ٨١٩

٢ - اهم مزايا المخطوطات العربية ٨٢٠

الفصل الثاني الوراقة والوراقون

١ - اختلاف اساليب الوراقة عند الامم القديمة ٨٢٣

٢ - صناعة الوراقة عند العرب ونقلهم اياها الى اوربا ٨٢٥

٣ - تنوع الوراقة وادوات الكتابة ٨٢٦

٤ - مشاهير الوراقين ٨٢٩

- ٨٣٢ - القاب خاصة ببعض الورّاقين
 ٨٣٤ - بعض مؤلفات في الورّاقية والكتابة
 ٨٣٥ - اسواق الورّاقية والورّاقين
 ٨٣٧ - تجهيز الادباء خلفاً في منازلهم للورّاقين واهل العلم

الفصل الثالث مشاهير الخطّاطين

- ٨٣٨ - الخطّاطون الاولون واشكال الافلام القديمة
 ٨٣٩ - ابن مقلة
 ٨٤٠ - ابن البواب
 ٨٤٢ - كبار الخطّاطين بعد ابن مقلة وابن البواب
 ٨٤٤ - الخلفاء والملوك المبرزون في جودة الخطّ
 ٨٤٥ - نوابغ الخطّاطين في القرون الاخيرة
 ٨٤٨ - شذرات شعرية في الخطّ

الفصل الرابع غرائب الخطّاطين والخطّاطات

- ٨٥٠ - الخطّاط حسين البيهقي
 ٨٥٠ - الخطّاط الفتح بن شحرف الكسي
 ٨٥١ - الخطّاط بي دست
 ٨٥١ - الخطّاطة بنت خداوردي
 ٨٥٢ - الخطّاطة الست نسيم
 ٨٥٢ - الخطّاطان محمد الطائي وبيديع الزمان الممذاني
 ٨٥٣ - الخطّاط عماد الدين التيرباج

- ٨ - الخطاط ابرهيم الشيباني ٨٥٣
 ٩ - خطاط بلايد ولا رجل ٨٥٤
 ١٠ - احمد بن محمد الصخري ٨٥٤

الفصل الخامس النساخة والطباعة

- اولاً : حرص العرب على صيانة مؤلفات السلف ٨٥٥
 ثانياً : اساليب القدماء في ضبط النساخة ٨٥٧
 ثالثاً : نشأة الطباعة العربية في الغرب ٨٥٨
 رابعاً : ظهور الطباعة العربية وذووعها في الشرق ٨٦٢

- ١ - بواكير المطابع النصرانية في الشرق ٨٦٢
 ٢ - بواكير المطابع الاسلامية في الشرق ٨٦٣
 ٣ - بواكير المطابع الحجرية في الشرق ٨٦٤
 ٤ - اقامة بطريرك الاقباط مهرجاناً ابتهاجاً بمطبعته ٨٦٦
 ٥ - مطبعة عربية تصدر كتاباً بعشرين لغة ٨٦٧
 ٦ - تقلص ظل المخطوطات العربية بانتشار المطابع ٨٦٧

الفصل السادس مشاهير الكتاب والنساخ المسلمين والمسلمات

- ١ - نوابغ الكتاب في القرون الاولى للهجرة ٨٦٨
 ٢ - نوابغ الكتاب في القرنين السادس والسابع للهجرة ٨٦٩
 ٣ - نوابغ الكتاب في القرن الثامن فما بعده للهجرة ٨٧١
 ٤ - رؤساء الكتاب والمكتبيون ٨٧١

- ٨٧٢ - ٥ - اشهر النساخ المسلمين في الازمنة السالفة
 ٨٧٦ - ٦ - اشهر النساخ المسلمين في الازمنة الحاضرة
 ٨٧٨ - ٧ - اشهر النساء المسلمات الكاتبات

الفصل السابع مشاهير الكتاب والنساخ النصارى

- ٨٨٠ - ١ - نساخة الكتب في الاديار النصرانية
 ٨٨١ - ٢ - نقل مخطوطات ثمينة من تكريت الى اديار مصر
 ٨٨١ - ٣ - ذكر بعض اديار الشرق وانتشار النساخة والوراقة فيها
 ٨٨٢ - ٤ - وصف انجيل منسوخ بحروف ذهبية
 ٨٨٣ - ٥ - البطريرك يوحنا برشوشن ونسخه الكتب حين اسفاره
 ٨٨٣ - ٦ - بعض النساخ في الكنائس والاديرة
 ٨٨٥ - ٧ - مشاهير النساخ النصارى في سالف الازمنة
 ٨٨٨ - ٨ - مشاهير النساخ النصارى في القرون الاخيرة
 ٨٩٣ - ٩ - شهيرات الخطاطات النصرانيات

الفصل الثامن الضبط والاتقان في نساخة الكتب

- ٨٩٤ - ١ - مزايا اهل الضبط والاتقان في النساخة
 ٨٩٤ - ٢ - مشاهير اهل الضبط والاتقان في النساخة

الفصل التاسع التنافس في تأليف الكتب والاستكثار من نسخها

- ٨٩٧ - ١ - تشويق الخلفاء والملوك الى التبسط في العلوم
 ٨٩٨ - ٢ - استكثار المسلمين نسخ الكتب

٣ - استكثار النصارى نسخ الكتب

الفصل العاشر صناعة التجليد عند العرب

١ - اتقان العرب تجليد الكتب وتذهيبها وصنع قماطرها

٢ - مشاهير المجلدين

٣ - اسواق المجلدين

٤ - نقل صناعة التجليد العربية الى اوروبا

٥ - تأثير الفن القبطي في فن التجليد الاسلامي

الفصل الحادي عشر اشهر اسواق الكتب

١ - اقبال العظما على استنساخ المخطوطات واذخارها

٢ - اسواق كتب الاندلس

٣ - اسواق كتب القاهرة

٤ - اسواق كتب بغداد والبصرة وسائر مدن الشرق

٥ - اسواق كتب الشام ومراكش والقسطنطينية وغيرها

الفصل الثاني عشر تجارة الكتب

١ - مشاهير تجار الكتب وسمايرتها

٢ - تجار الكتب الجوالون

٣ - دلالو الكتب

٤ - كساد تجارة الكتب

الفصل الثالث عشر عبّاد المخطوطات وعشاقها

- ٩١٨ ١ - صرعى المخطوطات
 ٩١٨ ٢ - مناحة الوزير القفطي على مخطوط بنقصه
 ٩١٩ ٣ - الشيخ الصفار يدعو في المسجد على حابس كتبه

الفصل الرابع عشر سخط الرهبان والاحبار على سراق مخطوطاتهم

- ٩٢٠ ١ - الراهب سيسين النسطوري يدعو على سارق كتابه
 ٩٢٢ ٢ - مرقص اسقف صيدنايا يدعو على سارق كتبه
 ٩٢٢ ٣ - حيس لبناني يدعو على سارق دير مار شيقون
 ٩٢٣ ٤ - مطران ملكي يدعو على سارق كتبه
 ٩٢٣ ٥ - بطريرك ملكي يهدد بالحرم سارق كتبه
 ٩٢٤ ٦ - مطران ماروني يرشق بالحرم من يسرق مكتبته
 ٩٢٥ ٧ - مطران سرياني يهدد من يختلس كتب ديره
 ٩٢٥ ٨ - مطران قبطي يدعو على من يسرق او يرهن كتبه

الفصل الخامس عشر الكتب المستعارة

- ٩٢٧ ١ - اقوال الشعراء في اعارة الكتب واستعارتها
 ٩٢٩ ٢ - استعارة الكتب والمخطوطات بين الدول
 ٩٣٠ ٣ - الماطلة بالكتب المستعارة

الباب الخامس عشر مخطوطات العرب المزوّقة والمصوّرة

- ٩٣١ نظرة اجمالية في فن التصوير عند المسلمين

| | |
|-----|---|
| ٩٣٣ | ١ - نشأة التصوير عند العرب |
| ٩٣٥ | ٢ - مخطوطات الطب المصورة والمزوّقة |
| ٩٣٨ | ٣ - مخطوطات الكيمياء المصورة |
| ٩٣٩ | ٤ - المخطوطات اللغوية المصورة |
| ٩٣٩ | ٥ - المخطوطات الادبية المصورة والمزوّقة |
| ٩٤٢ | ٦ - المخطوطات الدينية المصورة والمزوّقة عند النصارى |
| ٩٤٧ | ٧ - المخطوطات الدينية المصورة والمزوّقة عند المسلمين |
| ٩٤٩ | ٨ - المخطوطات المصورة والمزوّقة في كتب التاريخ والرحلات |
| ٩٥١ | ٩ - المخطوطات المصورة في العلوم الجغرافية |
| ٩٥٢ | ١٠ - المخطوطات المصورة في العلوم الحربية والبحرية |
| ٩٥٥ | ١١ - المخطوطات المصورة في العلوم الصناعية والميكانيكية |
| ٩٥٦ | ١٢ - الصور في مخطوطات النجامة والعلوم السحرية |
| ٩٥٧ | ١٣ - المخطوطات المصورة في الهندسة |
| ٩٥٨ | ١٤ - المخطوطات المصورة في علم النبات |
| ٩٦٠ | ١٥ - المخطوطات المصورة في علم الموسيقى |
| ٩٦١ | ١٦ - المخطوطات المصورة في علم الفلك |
| ٩٦٤ | ١٧ - المخطوطات المصورة في علم الفروسية والصيد والبيطرة |

الباب السادس عشر رزايا الكتب والمكتبات

| | |
|-----|---------------------------------------|
| ٩٦٥ | نظرة اجمالية في رزايا الكتب والمكتبات |
|-----|---------------------------------------|

الفصل الاول طبر مكتبة هر كولانوم بالبركان

| | |
|-----|---|
| ٩٦٧ | ١ - مركز مدينة هر كولانوم وانطاسها بالهمم البركانية |
|-----|---|

٢ - اكتشاف بقايا مكتبة ارستيد الفيلسوف

الفصل الثاني اجهاز البرابرة والملوك القدماء على المكتبات

- ٩٦٨ ١ - احراق نبوخذنصر ملك بابل تواريخ الملوك الاقدمين
 ٩٦٨ ٢ - احراق داريوش الفارسي مكتبة آثينا
 ٩٦٨ ٣ - احراق الاسكندر الكبير كتب الفرس
 ٩٦٩ ٤ - احراق عاهل الصين كتب مملكته
 ٩٦٩ ٥ - ابادة البرابرة مكاتب الرومان واليهود والنصارى
 ٩٦٩ ٦ - شهادة الكتاب المقدس على المسيحيين باحراقهم كتب السحر
 ٩٧٠ ٧ - تأييد عمار البصري احراق النصارى كتب السحر

الفصل الثالث حريق مكتبات الاسكندرية والقسطنطينية وقبصرية
فلسطين ورومة

- ٩٧١ ١ - حريق مكتبة المتحف الاسكندري
 ٩٧١ ٢ - حريق مكتبة السيراييوم في الاسكندرية
 ٩٧٢ ٣ - حريق المكتبتين الملكيتين في القسطنطينية
 ٩٧٢ ٤ - حريق مكتبة بمفيل البيروتي في قبصرية فلسطين
 ٩٧٣ ٥ - حريق خزائن كتب القبصر في رومة
 ٩٧٣ ٦ - احراق كتب بيت ليف في رومة

الفصل الرابع احراق كتب الآراميين والعبرانيين والوثنيين والمجوس

- ٩٧٤ ١ - ابادة سلوقس كتب الآراميين في سديق (المدائن)
 ٩٧٤ ٢ - احراق انطيوخس كتب العبرانيين

- ٩٧٥ ٣ - احراق هيرودس كتب القبائل العبرانية
 ٩٧٥ ٤ - اتلاف الآراميين المسيحيين كتب اجدادهم الوثنية
 ٩٧٦ ٥ - احراق كتب الوثنيين ودفن اقدم دفنة حمار
 ٩٧٧ ٦ - طرح الكتب المجوسية في الماء بأمر امير خراسان

الفصل الخامس اتلاف الكتب النصرانية في العصور الغابرة

- ٩٧٨ ١ - حرق الكتب الدينية في القرن الرابع للميلاد
 ٩٧٨ ٢ - ابادت كتب الذباطسرون في الرها وفورش
 ٩٧٩ ٣ - احراق الاربوسيين والفساطرة كتب خصومهم
 ٩٧٩ ٤ - احراق السوفسطائيين كتبهم في اخائية
 ٩٧٩ ٥ - حرق مخطوطات السريان والارمن في قسطنطينية
 ٩٨٠ ٦ - نهب كتب فطيريركية النساطرة في بغداد
 ٩٨٠ ٧ - نهب نور الدين الوف الكتب من كنيسة نصيبين وغيرها
 ٩٨١ ٨ - نهب الروم للكتب والصلبان من كنائس الرها
 ٩٨١ ٩ - اتلاف النساطرة واليعاقبة بعضهم كتب البعض الآخر

الفصل السادس محو كتب الفرس وغيرها واحراق مصاحف القرآن

- ٩٨٢ ١ - رواية بن خلدون عن محو الخليفة عمر علوم الفرس
 ٩٨٢ ٢ - محو عبدالله بن عباس كتاباً بالمام
 ٩٨٣ ٣ - احراق الخليفة عثمان بن عفان مصاحف القرآن

الفصل السابع احراق الفرق الاسلامية بعضها كتب البعض الآخر

- ٩٨٤ ١ - منازعات اهل السنة والشيعة وغيرهم

- ٩٨٤ - ٢ - ابتهاج الاندلسيين بحرق الكتب المخطوطة في اعيادهم
 ٩٨٥ - ٣ - فظائع المالكين في الاندلس بانلاف كتب مناوئهم
 ٩٨٥ - ٤ - احراق كتب المالكين في فاس ونقاد المخطوطات في الغرب
 ٩٨٦ - ٥ - انلاف كتب ابن رشد وغيره
 ٩٨٦ - ٦ - احراق كتب الزكن عبد السلام في رجة بغداد

الفصل الثامن ذكر من غسل كتبه

- ٩٨٨ - ١ - ابن ابي الحواري
 ٩٨٨ - ٢ - ابو غالب شجاع الشيباني

الفصل التاسع ذكر من دفن كتبه

- ٩٨٩ - ١ - سفيان الثوري
 ٩٨٩ - ٢ - الامام الشافعي
 ٩٩٠ - ٣ - محمد بن العلاء
 ٩٩٠ - ٤ - دفن يوسف بن اسباط كتبه في كهف

الفصل العاشر احراق بعض المسلمين مكتباتهم

- ٩٩١ - ١ - احراق ابي عمرو بن العلاء كتبه
 ٩٩١ - ٢ - احراق كتب ابي حيان التوحيدي
 ٩٩٢ - ٣ - احراق مكتبة ابن لهيعة في مصر
 ٩٩٢ - ٤ - احراق مكتبة ابن الجعاني في بغداد
 ٩٩٢ - ٥ - احراق الداراني كتبه في تنور
 ٩٩٢ - ٦ - وصية السيرافي لولده باحراق كتبه

الفصل الحادي عشر اغراق مكتبات خاصة في انحاء مختلفة

- ٩٩٣ ١ - غرق كتب ابي الحسن السمساني ببغداد
 ٩٩٣ ٢ - اغراق كتب ابي العباس الانصاري وحرقتها في غرناطة
 ٩٩٤ ٣ - طرح كتب المبشر بن فانك في حوض داره
 ٩٩٤ ٤ - طرح كتب عبد الصمد التستري في نهر قارون
 ٩٩٤ ٥ - طرح كتب عبد الله بن احمد في حوض ماء

الفصل الثاني عشر رزايا مكتبات بغداد والبصرة

- ٩٩٥ ١ - احراق خزانة كتب ابي جعفر الطوسي في كرخ بغداد
 ٩٩٥ ٢ - احراق طغرل بك مكتبة سابور بن اردشير في بغداد
 ٩٩٦ ٣ - احراق بني عامر داري كتب في البصرة
 ٩٩٦ ٤ - نهب العرب خزانة كتب القاضي ابي الفرج بالبصرة

الفصل الثالث عشر نقوبض الحاكم بامر الله معابد النصارى واليهود

- ٩٩٧ ١ - ابعاد النصارى واليهود عن مصر والعبث في معابدهم ومخطوطاتهم
 وكنوزهم وتدميره مكتباتهم
 ٩٩٧ ٢ - هدم ثلاثين الف بيعة والاستيلاء على اوقافها

الفصل الرابع عشر اتلاف مكتبتي المستنصر الفاطمي وقصر الفاطميين
 في القاهرة

- ٩٩٨ ١ - اتخاذ العربان رفوق كتب المستنصر احذية لارجلهم
 ٩٩٨ ٢ - رواية الجبرتي عن احتراق تل الكتب في الخطابة

- ٣ - بيع مخطوطات قيمتها مائة الف دينار لوفاء خمسة آلاف دينار ٩٩٩
- ٤ - عبث صلاح الدين بمكتبة الفاطميين وكنوزهم ٩٩٩
- الفصل الخامس عشر احراق مكتبة سيف الدولة وانتهاب الخزانة
الصوفية في حلب ١٠٠٠
- الفصل السادس عشر نكبات مكتبة الجامع الاموي وبعض مكاتب دمشق ١٠٠١
- الفصل السابع عشر اتلاف بعض المكتبات في الغزوات الصليبية
- ١ - احراق المصاحف في محراب داؤد بالقدس ١٠٠٣
- ٢ - نكبة مكتبة طرابلس ١٠٠٣
- ٣ - احراق الصليبيين كتب الروم في قسطنطينية ١٠٠٥
- الفصل الثامن عشر احراق مصاحف جامع اصبهان ومكتبات اردشير
وغزنة وخراسان وبخارا ونيسابور والنجف وغيرها ١٠٠٦
- الفصل التاسع عشر انقراض الصاعقة على مكتبة المسجد الحرام بمكة ١٠٠٨
- الفصل العشرون احراق اسماعيل شاه مصاحف اهل السنة وكتبهم ١٠٠٩
- الفصل الحادي والعشرون اجتراف السيول عدة مكتبات واتلافها
- ١ - اجتراف كتب ابن الدهان ببغداد ١٠١٠
- ٢ - اجتراف كتب المسجد الحرام بمكة ١٠١١
- ٣ - اجتراف مكتبة دير الربان هرمزد بجوار الموصل ١٠١١

صفحة

الفصل الثاني والعشرون احراق ابن الآبار البنسي واحراق كتبه معه ١٠١٢

الفصل الثالث والعشرون اكتساح المغول مكاتب ما بين النهرين
والعراق وسوريا وتركستان والهند

- ١ - انقراض يساور التتري على مكاتب ملطية ١٠١٤
- ٢ - اجهاز هولاكو على مكاتب بغداد حرقاً وغرقاً ١٠١٤
- ٣ - قسط مدينة دمشق من مظالم هولاكو وغازان التتريين ١٠١٥
- ٤ - تحويل مكاتب سمرقند وبخارا والهند الى رماد ١٠١٦
- ٥ - حرق مكتبة ابي الفداء في حماة ١٠١٦

الفصل الرابع والعشرون بيع مكتبة المدرسة الفاضلية بارغفة خبز
في اثناء المجاعة بمصر

١٠١٧

الفصل الخامس والعشرون حريق خزانة الكتب في القاهرة ١٠١٨

الفصل السادس والعشرون احراق كتب ابن حزم الاندلسي ١٠١٩

الفصل السابع والعشرون فواجع مكاتب الاندلس والاسكوريال

- ١ - احراق ثمانين الف مخطوط في ساحة غرناطة ١٠٢٠
- ٢ - انقراض صاعقة على الاسكوريال احرقت قسماً من مخطوطاته ١٠٢٠

الفصل الثامن والعشرون غارات تيمورلنك على مكاتب البلاد الهندية
والفارسية والعربية

١ - محو تيمورلنك جميع المكتبات في ما دوحه من الاقطار ١٠٢١

- ٢ - غارة تيمورلنك على ملة الصابئة ١٠٢١
 ٣ - تخريب مكتبات طورعبدین وانتحاب اشعيا الباسبريني عليها ١٠٢٢
 ٤ - حرق تيمورلنك كتب مدرستي العادلية والقضائية بدمشق ١٠٢٢

الفصل التاسع والعشرون اساءة الاسبانيين والبرتغاليين والافرنسيين
 الى العلم وحرية الاديان

- ١ - نهب الاسبانيين مكتبة الجامع الاعظم بتونس ١٠٢٣
 ٢ - اتلاف الاسبانيين كتب سكان المكسيك القدماء وسجلاتهم ١٠٢٣
 ٣ - احراق مطران غوا البرتغالي كتب النساطرة للمباريين ١٠٢٤
 ٤ - احراق كتب اليهود والبروتستان في شوارع باريس ١٠٢٥

الفصل الثلاثون مصائب مكتبات انكلترا

- ١ - احراق مكتبة او كسفرود وغيرها ١٠٢٦
 ٢ - تصرف البدالين والمجلدين في مخطوطات الادبار ١٠٢٦
 ٣ - اجتياح مكتبات جمّة في حريق لندن ١٠٢٧
 ٤ - احتراق مكتبات غوطون ١٠٢٧

الفصل الحادي والثلاثون اغراق مخطوطات في الانهار والبحار والآبار

- ١ - اغراق داود الطائي كتبه في الفرات ١٠٢٨
 ٢ - تغريق هولاء كو خزائن كتب بغداد في دجلة ١٠٢٩
 ٣ - غرق مصحف الخليفة عثمان في البحر ١٠٢٩
 ٤ - نقل كتب الطريحي وطرحها في البحر ١٠٣٠
 ٥ - فقدان سفينتي مخطوطات للسمعاني في النيل ١٠٣٠

صفحة

- ٦ - غرق مكتبة عظيمة شحنت من الصين الى انكلترا ١٠٣١
٧ - اغراق القرصان ثلاث سفن شحنت كتباً من البندقية الى لندن ١٠٣١
٨ - القاء كتب عبد العزيز النجفي في البحر وفي الآبار ١٠٣٢
٩ - طرح كتب في بئر كنيسة الموصل ١٠٣٢

١٠٣٣ الفصل الثاني والثلاثون غارة الجزائر على مكتبات جبل عامل

الفصل الثالث والثلاثون غائلة مخطوطات صيدنايا

- ١ - مكتبة دير الشاغورة واقدام البطريرك متودبوس على احراق مخطوطاتها ١٠٣٤
٢ - أخذ مخطوطات المكتبة وقيداً في تنور الدير اربعة ايام ١٠٣٤

الفصل الرابع والثلاثون اندثار مخطوطات ثمينة ومدارج قديمة في مصر

- ١ - تبعثر مكتبة جامع ازبك بن ططخ بين الانقاض ١٠٣٦
٢ - احراق الفلاحين خمسين مدرجة قديمة لبشموا طيب رائحتها ١٠٣٦

الفصل الخامس والثلاثون رزايا مكتبات النصارى في سوريا ولبنان

- ١ - نظرة اجمالية ١٠٣٧
٢ - خسارة كتب جمّة في ثورة لبنان عام ١٨٤٠ ١٠٣٧
٣ - نهب كتب دير مار افرام الرغم عام ١٨٤١ ١٠٣٧
٤ - حريق مكتبتي الروم الكاثوليك والسريان في حلب عام ١٨٥٠ ١٠٣٨
٥ - تلف مكتبات المسيحيين بدمشق عام ١٨٦٠ ١٠٣٩
٦ - حرق مخطوطات اديار زحلة ونهب بعضها عام ١٨٦٠ ١٠٤٠

الفصل السادس والثلاثون جوائح مكتبات بلاد ما بين النهرين ١٨٩٥ و ١٩١٥

- ١٠٤١ ١ - جائحة مكتبة سعرت
١٠٤٢ ٢ - جوائح مكتبات طور عبيد وغيرها

الفصل السابع والثلاثون اشهر رزايا المكتبات في ايطاليا

- ١٠٤٣ ١ - حرق اثني عشر الف مخطوط في كريمون
١٠٤٣ ٢ - احتراق مكتبات تورينو
١٠٤٣ ٣ - تدمير مكتبة دير كاسينو

الفصل الثامن والثلاثون تدمير الالمان مكتبات شتى في محاربتهم جيرانهم

- ١٠٤٤ ١ - تخريب الالمان مكتبة ستراسبورغ في فرنسا
١٠٤٤ ٢ - تهديم الالمان مكتبة كلية لوفان في بلجيكا
١٠٤٥ ٣ - اكتساح الالمان مكتبات شمال فرنسا
١٠٤٥ ٤ - غارات الالمان على مكتبات انكلترا

الفصل التاسع والثلاثون فظائع الشيوعيين في مكتبات اسبانيا

- ١٠٤٦ ١ - احراق عدة مكتبات وسلب كتب وافرة من اديار الرهبان
١٠٤٦ ٢ - نهب جامعة كوميلاس ونشئت كتبها ومخطوطاتها
١٠٤٧ ٣ - اعتداء الشيوعيين على دير مونترات
١٠٤٧ ٤ - احصاء النوازل الكتابية في الحرب الاسبانية

الفصل الاربعون احتراق مكتبة مرينتال في انكلترا

١٠٤٨

الفصل الحادي والاربعون الاجهاز على الكتب بعد الحرب العظمى

- ١ - تواطوء البلاشفة على احراق الكتب المتعلقة بالقياصرة ١٠٤٩
 ٢ - تجميع مصنفات اليهود من انحاء المانيا والنمسا وسحقها ١٠٤٩
 ٣ - اعتداء النازيين على مكتبة كردينال فينا ١٠٥٠
 ٤ - اجهاز الاتراك على الكتب التركية ذات الصبغة العربية ١٠٥٠

الفصل الثاني والاربعون نكبة مكتبة بطريركية الفنار في اسطنبول ١٠٥١

الباب السابع عشر النوازل الادبية بالمكتبات والكتب

الفصل الاول اعداء الكتب والمكتبات ١٠٥٢

الفصل الثاني لصوص الكتب والمكتبات

- ١ - خيانة بعض قوام المكتبات ١٠٥٤
 ٢ - سرقة مكتبات تونس ١٠٥٤
 ٣ - سرقة كتب ابي الغنائم الشيباني الضمير ١٠٥٥
 ٤ - استباحة الحشاش النعوي كتب الناس ١٠٥٥
 ٥ - اختلاس كتب الدينوري ١٠٥٦
 ٦ - احمد بن سيد الاشيبلي الملقب باللص ١٠٥٦
 ٧ - ابو عبد الله السعدي المعروف بلقب «مزبلة العلم» ١٠٥٧
 ٨ - انتحال السيوطي لنفسه بعض تصانيف غيره ١٠٥٧
 ٩ - سرقة مكتبي القرصانية والاحمدية بحلب ١٠٥٨
 ١٠ - سرقة مكتبات بلاد الشام ١٠٥٩

الفصل الثالث العيث في الكتب المخطوطة وتحريفها

- ١ - تصدي بعض الكتاب لتحريف الكتب ١٠٦٠
 ٢ - تحريف ابن حبيب كتب المؤلفين وابداله اسماءهم باسمه ١٠٦٠
 ٣ - تصحيح عناوين بعض مؤلفات حبيش باسم حنين ١٠٦١
 ٤ - انتحال الحسن البناء كتب الحسن النيسابوري ١٠٦١
 ٥ - امانة المؤلفين الثقات وحرمتهم للكتب ومصنفها ١٠٦٢

الفصل الرابع تصرف بعض الرهبان في مكتبات الاديار

- ١ - عيث الرهبان في مكتبة دير السيدة بوادي النظرون ١٠٦٣
 ٢ - اعتداد كنوز مكتبة صيدنايا كاسقاط المتاع ١٠٦٤
 ٣ - نبد مخطوطات ثمينة في دير سينا وطرحها في الزناويل ١٠٦٥
 ٤ - تغاضي رهبان دير لوزة عن صيانة مكتبتهم ١٠٦٦
 ٥ - اختلاس مخطوطات دير الزعفران وبيعها بالبخس الاثمان ١٠٦٧

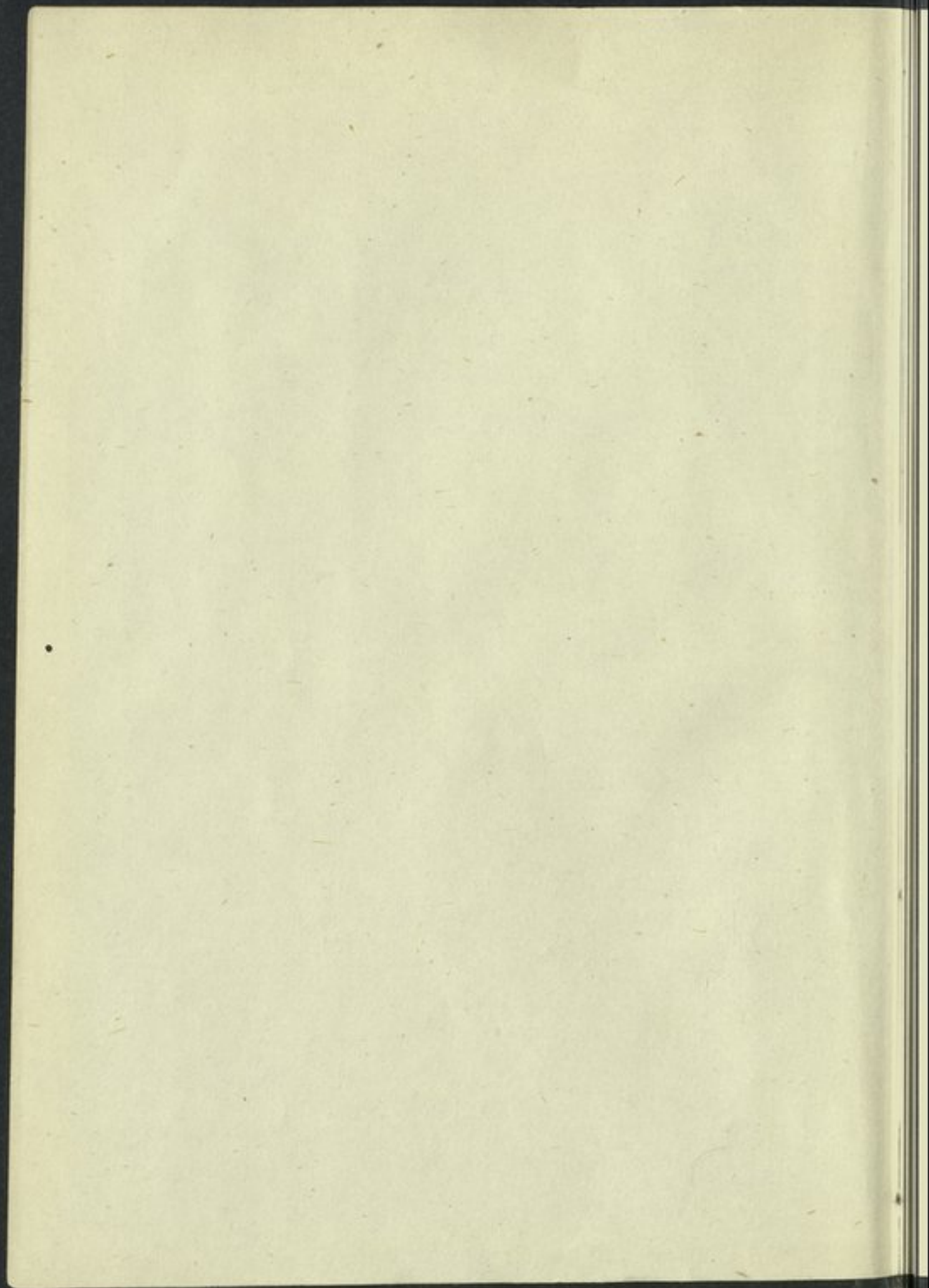
الفصل الخامس التفجع لما فقدناه من الذخائر الكتابية

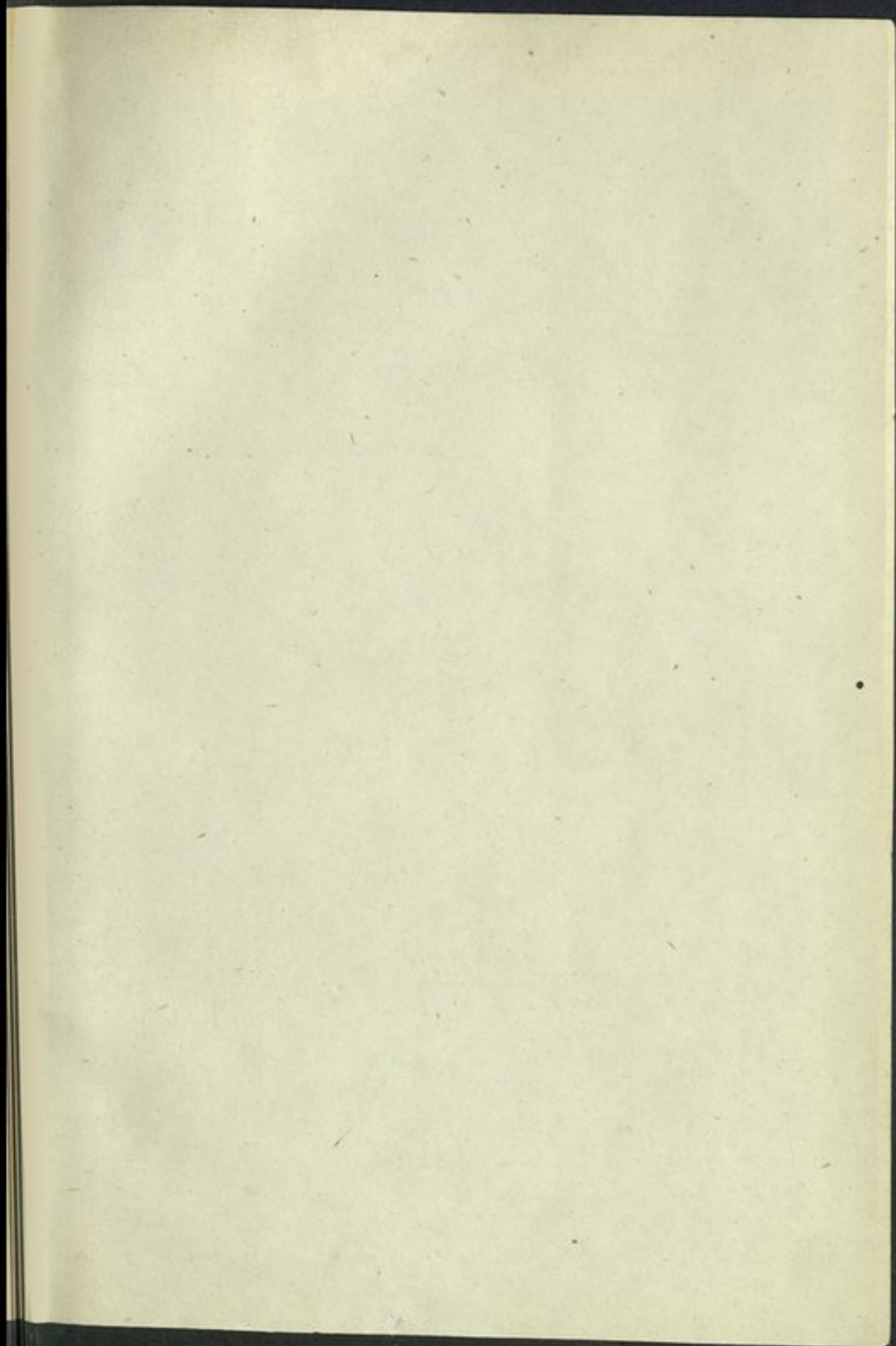
- ١٠٦٩
 خاتمة المجلد الثالث ١٠٧١
 فهرس المجلد الثالث من خزائن الكتب العربية في الحاققين ١٠٧٢

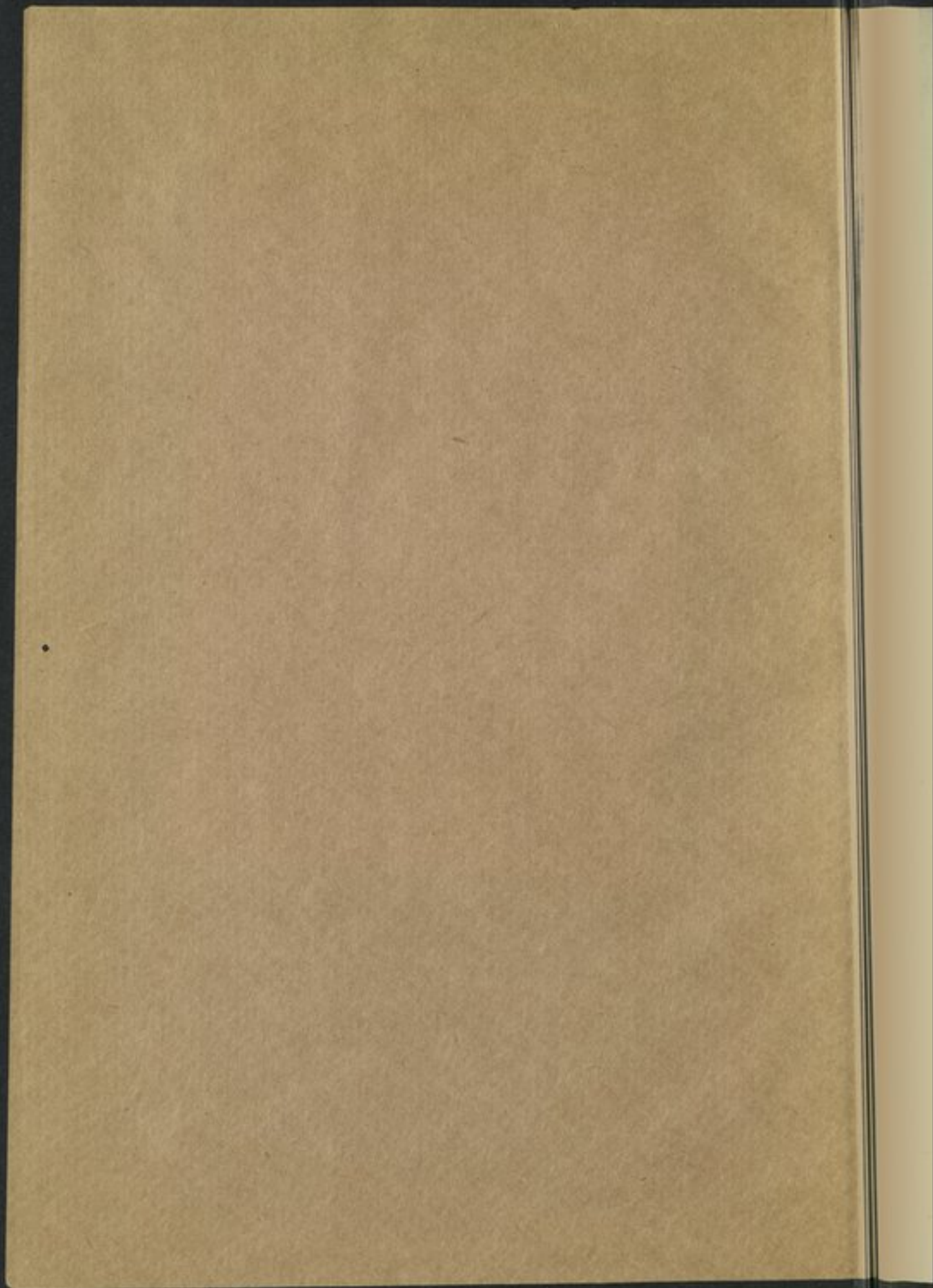
وَقَفَّ عَلَى طَبْعِهِ

مَنِيرُ الْبَيْرُوتِيِّ وَوَيْسِي

القائم بأعمال دائرة التدریس والتبصیر بدار الكتب







DATE DUE

JAFET LIB.
16 DEC 2005
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
30 SEP 2006
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 5

JAFET LIB.
30 APR 2010
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
30 JUN 2009
Circulation Dept. 3

JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 1

027
T19KA
v.3

027

T19KA

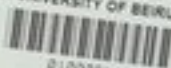
v.3

General Library

027:T19KA:v.3:c.1

طرازى، فيليب دى (المحرر)
خزانة الكتب العربية في الخالدين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01000314

